المسيحيّة

في مِيزان المسلِمين

THE CHRISTIANITY IN THE BALANCE OF MUSLIMS

www.muhammadanism.org
November 30, 2011
Arabic
Font: Simplified Arabic

أبو موسى الحَريري

ABÛ MÛSÂ AL-HARÎRÎ

المسيحيّة
في مِيزان المسلمِين

أبو موسى الحَريري

المسيحيّة
في مِيزان المسلمِين

دَار « لأجل المعرفَة »
ديَار عَقل ــ لبْنَان
١٩٨٩

سلسلة الحقيقة الصَّعبة

١ ــ **قسّ ونبيّ**. بحث في نشأة الإسلام
٢ ــ **نبيّ الرحمة وقرآن المسلمين**. بحث في مجتمع مكّة
٣ ــ **عالم المعجزات**. بحث في تاريخ القرآن
٤ ــ **أعربيّ هو ؟!** بحث في عروبة الإسلام
٥ ــ **العلويّون النّصيريّون**. بحث في العقيدة والتاريخ
٦ ــ **بين العقل والنبيّ**. بحث في العقيدة الدرزيّة
٧ ــ **رسائل الحكمة**. كتاب الدروز المقدّس
٨ ــ **مصادر العقيدة الدرزية**
٩ ــ **السلوك الدرزي**
١٠ ــ **مذبحة الجبل** (حسر اللثام عن نكبات الشام)

سلسلة الأديان السريَّة

١ ــ **العقيدة الدرزيّة**
٢ ــ **تعليم الدّين الدرزي**. (بالفرنسية والعربية معاً)
٣ ــ **النبي محمّد في العقيدة الدّرزية**. (بالفرنسية والعربية معاً)
٤ ــ **العجل والشّيصبان في العقيدة الدّرزيّة**. (بالفرنسية والعربية معاً)
٥ ــ **رسالة درزيّة إلى النَصيريَين**، (بالفرنسية والعربية معاً)
٦ ــ **تعليم الدين العلوي**
٧ ــ **الباكورة السليمانيّة في كشف أسرار الدَيانة النصيريّة**

مقدمة الكتاب

منذ بدء الإسلام وحتى اليوم، هناك خطّ واحد مستمرّ، موقف صريح مستقرّ يعتمده المسلمون في مفهومهم للمسيحية، وفي فهمهم لعقيدتها وقضاياها. وإذا ما استعرضنا كبريات المؤلّفات الإسلامية لكبراء المؤلّفين المسلمين عبر التاريخ. وجدنا المواقف إيّاها والفهم إيّاه. وفي استعراضنا هذا، لن نكون مجحفين بحقّ أحد من الذين لا نذكرهم. لأنّهم جميعهم، في فهمهم للمسيحية. سواء.

ولسنا، في هذا البحث، متوخّين مناقشة مواقف القرآن من المسيحية وعقائدها. فهي تُختصر في موقفين : موقف، فيه المسيحيون هم أهل مودّة وإحسان؛ وموقف، فيه هم أهل كفر وشرك. وورث المسلمون، عن القرآن، موقفه الثاني، وقالوا بأنّ مسيحييّ الموقف الأوّل قُضي عليهم وعلى إنجيلهم وعقيدتهم. ولم يبقَ إلاّ مسيحيّو الأناجيل المتعدّدة، ومسيحيّو مجامع الكنيسة، وتبّاع القديس بولس. هؤلاء قضوا على عيسى وإنجيله الحقيقي.

جميع المسلمين وقفوا مع القرآن في موقفه الثاني. وجميعهم كتبوا وحلّلوا وفسّروا وناقشوا وانتقدوا مسيحيّي الكفر والشرك. ومسيحيّو اليوم هم هؤلاء الذين كفروا إذ قالوا: « إن الله هو المسيح ابن مريم » (٥ / ١٧)، وقالوا : « إن الله ثالث ثلاثة » (٥ / ٧٣). وقالوا: « إن المسيح صلب وقُتل » (٤ / ١٥٧)، وقالوا: « إن المسيح وأمّه إلهان » (٥ / ١١٦)، إلى ما هنالك من عقائد تنسب إلى مسيحيّي اليوم وبها يختلفون عن مسيحيّي الموقف الأوّل.

* * *

ولئلاّ نثقّل على القارئ، ويملّ من التكرار، ويضيع بين الكتب والكتّاب، ويسأم من طول الكلام وكثرته ... سنأخذ عيّنات من الكتب والكتّاب، القديمين

والحديثين، ونستعرض. مفهومهم للمسيحية، كما هم فهموها وكتبوا عنها. منهم من كتب برصانة وهدوء، ومنهم من كتب بتعصّب ونزق. لكنّ المفهوم واحد. لا يختلفون إلاّ في الأسلوب وطريقة العرض. وسنبدأ بالأحدث من الكتب والكتّاب إلى الأقدم. ونعرض الموضوعات كما عرضها أصحابها.

الكتاب الأوّل : للسيّد شريف محمد هاشم، **الإسلام والمسيحية في الميزان**، مؤسّسة الوفاء، بيروت، ط ١، ١٩٨٨، قياس (١٧ × ٢٤)، ٧١٢ صفحة، تجليد فنّي. يدور الكتاب، في معظمه، على الردّ على كتاب « قسّ ونبيّ » ، لأبو موسى الحريري.

الكتاب الثاني : لسماحة مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد*، **موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية**، سلسلة « الدراسات الإسلامية » ، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط ١ ، ١٩٨٦، قياس (١٧ × ٢٤)، ٨١٢ صفحة، تجليد فنّي. معالجة واضحة للعقيدة المسيحية بحسب ما يتمكّن منها المسلمون.

الثالث : للعلاّمة الشيخ محمد جواد البلاغي (+ ١٩٣٣)، **الرحلة المدرسيّة والمدرسة السيّارة في نهج الهدى**، تقديم سماحة العلاّمة السيّد محمد حسين فضل الله، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣، قياس (١٧ × ٢٤)، ٥٢٦ صفحة، تجليد فنّي. يستعرض العقائد المسيحيّة برمّتها، بأسلوب حوار بين شخصيّات وهميّة.

الرابع : لسماحة الإمام الأكبر محمد الحسين آل كاشف الغطاء، **التوضيح في بيان حال الإنجيل والمسيح**، دار الغدير، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠، توزيع التوجيه الإسلامي، قياس (١٤ × ١٩,٥)، ١١٢ صفحة. كتاب جريء على المسيح واخلاقه.

الخامس : للشيخ الإمام محمّد أبو زهرة، **محاضرات في النصرانية**، بحث في الأدوار التي مرّت عليها عقائد النصارى وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم.

(*) اغتاله النظام السوري العلوي وعشرين معه في ١٦ / ٥ / ١٩٨٩، بسبب تغييره مواقفه السياسيّة.

دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٢، قياس (١٧ × ٢٤)، ١٩٦ صفحة.

السادس : لمحمد ابن الخطيب، **هذا هو الحقّ! ردّ على مفتريات كاهن كنيسة**، المطبعة المصرية ومكتبتها، القاهرة، ط ١، ١٩٦٦، قياس (١٧ × ٢٤)، ٩٦ صفحة. أسلوب جريء هجومي يدافع به عن الإسلام الذي عالج أموره كاهن قبطي.

السابع : للإمام العلاّمة شمس الدين محمد ابن أبي بكر ابن قيّم الجوزيّة (+ ١٣٥٠ م)، **كتاب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**، توزيع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، المملكة السعودية، ١٣٩٦ هـ، قياس (١٧ × ٢٤)، ١٩٤ صفحة.

الثامن : لشيخ الإسلام ابن تيميّة (+ ١٣٢٧ م)، **الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**، ثلاثة أجزاء، مطبعة المدني بمصر، ١٩٥٩، قياس (١٧ × ٢٤). هو أساس لجميع المسلمين الذين عالجوا الأمور المسيحية. على نهجه نهجوا، وبأسلوبه كتبوا.

هذه الكتب، مع العديد غيرها، هي عيّنات من كتب إسلاميّة عالجت العقيدة المسيحية، واتّخذت منها موقفاً صريحاً واضحاً. وموقفها هو توضيح وتفسير لموقف القرآن من أهل الكتاب الذين في ظنّها غَلوا في دينهم وكفروا، بل أشركوا. وقصدنا في التركيز عليها هو للتأكّد من أنّ موقف المسلمين اليوم لا يزال هو هو، في الأمس كما اليوم وبعد اليوم.

* * *

أمّا **الكتاب الأوّل** من هذه الثمانية فقد يعنينا أكثر من سواه، لجملة أسباب : أوّلها لأنه كتاب حديث، وقد يكون آخر ما قيل في فهم المسيحية. ثانيها لأنّه كتاب موقف صادقٍ لرجل يريد تخليص الإسلام من المعتدين عليه. ثالثها لأنّه كتاب ردّ بأسلوب جريء ومنطق جَدَلي قلّ نظيرهما. رابعها لأنّه كتاب يعني

سلسلة « الحقيقة الصعبة » في أوّل كتاب صدر فيها؛ وهو كتاب « قسّ ونبيّ » لأبو موسى الحريري.

هذا الكتاب يدور كلّه حول كتاب « قسّ ونبيّ » ، بحسب تصريح المؤلّف السيّد شريف محمد هاشم الذي يقول : « والكتاب الذي نحن بصدد مناقشته قسّ ونبيّ » (ص ٨)، في طبعته الأولى سنة ١٩٧٩، (علماً بأنّه أصبح في طبعته الثانية عشرة سنة ١٩٨٥، منقحة مصححة، في ٢٣٢ صفحة رقم ١ من سلسلة « الحقيقة الصعبة » ، دار لأجل المعرفة، ديار عقل لبنان).

وبمناسبة الردّ على أبو موسى الحريري يعرّج السيد هاشم في ٢٨٠ صفحة على المسيحية في تاريخها ومعتقداتها ومجامعها ونظمها ومسلكها، محللاً منتقداً آخذاً من كل مسألة موقفاً.

كتاب السيد هاشم يستحقّ المعالجة، فهو « حدث » في الفكر الإسلامي المعاصر: في أسلوب الردّ، في الجرأة على مناقشة المعتقدات المسيحية كلّها، في « وصف » الحريري و « غربلته » و « تقريص عجينه » ، في إظهار مدى نجاح الوفاق المسيحي الإسلامي ... أجل هو « حدث » ، وعلى المسيحيين، والمسؤولين الكنسيين منهم، أن يكون لهم منه أقلّه علم وخبر.

وعلى الحريري أيضاً الذي حرّك الرماد وأوقد النار وفتح عليه وعلى المسيحيين أبواباً مغلقة ... أن يتحمّل وحده أو « من هم وراءه » . بحسب تعبير السيد هاشم المتكرّر، نتيجة عمله الجريء على الإسلام، ونبي الإسلام، والقرآن العظيم ...

السيد هاشم رمى « بكتابه ــ الردّ » بين يدي القارئ، والحريري صنع كذلك ... ردود فعل القرّاء يعرفها الحريري من خلال ٣٥ ألف نسخة انتشرت في أقطار الدنيا، ومن خلال ترجمات إلى الإنكليزيّة والألمانيّة والفرنسيّة. والسيّد هاشم، والحريري معه، ينتظر ردود فعل القرّاء على كتابه، علّها تعود بالخير والمنفعة عليه وعليهم.

من حقّ القارئ على الحريري أن يبدي الحريري رأيه بكتاب السيّد هاشم،

ويقدّم للقارئ العادي نتيجة قراءته وحكمه. فالقارئ العادي قد يجهل أمور اللاهوت وعلم الكلام، وتفوته قضايا الخلاف والوفاق بين المسيحية والإسلام، وقد يعجز عن الحكم على المسائل الدينية العويصة، والمقارنة بين المصادر المسيحية والإسلامية ... فمن واجب الحريري أن يسلّط الأضواء، ويصحّح الأخطاء، بعد أن قامت قيامة السيد هاشم عليه وعلى كتابه.

وقد يحلو للقارئ أن يشاهد الصراع الحامي بين الحريري والسيد هاشم، كما بين المسيح والقرآن، ومحمّد والإنجيل، والكنيسة والإسلام ... صراعاً فيه يبدو كلٌّ من الحريري والسيد هاشم صادقاً صريحاً في مقولاته وحججه ومواقفه. غير أن فرقاً يبدو واضحاً بين الحريري والسيد هاشم. فالسيد هاشم يستميت في الدفاع عن القرآن والنبي والإسلام، والحريري يستميت في الكشف والبحث والتفتيش عن المصادر التي تخوّله فهم نشأة الإسلام ومعرفة من كان وراء النبي والقرآن والإسلام.

ثمّة ملاحظات لا بدّ من الإشارة إليها :

الأولى : لا ينتظر القارئ من الحريري، في بحثه هذا، أن يعيد حججه وبراهينه الواردة في « قسّ ونبيّ » . كما لا ينتظر أن ينقل إليه الحريري كتاب السيد هاشم ليناقشه في كل مقولة أو حجّة. بل من حق القارئ أن يرى الحريري يردّ ويناقش ويدلّ على أنّ الأمر يعنيه، وأقلّه في إبداء رأيه وموقفه.

الثانية : لم يكن يوماً، في فكر الحريري وأبحاثه، أن يشنّ هجوماً أو حرباً على الإسلام، أو على نبي الإسلام، كما يحلو للسيد هاشم تصوّره. هذه الحرب، لا الحريري يستطيعها، ولا هي من برنامجه، ولا هي تفيد قضيته وبحثه ... اللهم، إلاّ إذا كان البحث عن حقيقة الإسلام يسمّى حرباً!

الثالثة : ليتنبّه القارئ، ومعه السيد هاشم، بأنّ مسألة البحث في نشأة الإسلام صعبة وخطيرة، إلى درجة تكون فيها مع الحريري أو ضدّه. وقد حظي الحريري بالفريقين معاً، ومن المسلمين أنفسهم. وكان بودّه أن يكون السيد هاشم من الأنصار لكثرة اندفاعه وشدّة معاناته. فعن مثل هؤلاء المعانين يفتّش الحريري.

الرابعة : وليتنبّه القارئ أيضاً إلى الأسلوب تُعالج فيه الأمور الدينيــة، بنــوع عــام، والإسلاميّة، بنوع خاص؛ فهو أسلوب معاناة، يشير إلى موقف شخصي من الأمــور، وإلــى عاطفة تعني صاحبَها، وتعني مصيرَه وإيمانَه وأخصَّ خصائصه. فلا نفاجَأ إذاً ببعض العنف في الأسلوب. ويجب أن يعذر القارئُ صاحبَه.

وفي الختام، نشير إلى أنّنا سنعتمد كتاب السيد هاشم **الإسلام والمسيحية في الميــزان** كمنطلق أساسي في معالجة المغامرة الإسلامية في فهم العقائد المسيحية؛ ومنه نطلّ على سائر الكتب والمواقف. وسوف نعالج مقالاته بالنسبة إلى مواقفه، لا بالنسبة إلى تبويبه وتقسيمه. كما سنبحث في الأمور ابتداءً من الشكليّات وكيفيّة معالجتها، ومنها ننتقل إلى العمق، إلى الأمــور الجوهرية، والمواقف الصادقة.

الفصل الأوّل

أسلوب الردّ

أوّلاً ــ الحريري على لسان السيد هاشم

ثانياً ــ الحريري في « صوت العروبة »

ثالثاً ــ صفحات الشيخ لا مثيل لها

رابعاً ــ ... ولسماحة الإمام أسلوبه أيضاً

خامساً ــ ضحايا أسلوب الأئمة والشيوخ

[Plank Page]

أوّلاً ــ الحريري على لسان السيد هاشم

يشير السيد شريف محمد هاشم إلى الأسلوب الذي اعتمده في كتابه. فهو، كما يقــول، أسلوب رصين هادئ موزون بالنسبة إلى أسلوب الحريري. ويستعيذ بالله ويقول : « معاذ الله أن يكون في نيّتنا الانجرار إلى أسلوب المؤلّف (الحريري) الرخيص » (ص ١٠).

على القارئ أن يحفظ هذا القول ويتذكّره فيما هو يسير معنا عبر ما نبيّنــه لــه مــن أسلوب يتحلّى به كتاب السيد هاشم.

منذ البداية، وفي الصفحة الأولى من المقدمة يبتدئ هاشم بالإشارة إلى « جبهة الدس والتشكيك والتضليل والافتراء ... محشوّة بالأفكار الهدّامة والآراء المشكّكة، والكلمة المضلّلة والرأي المسموم، يحقنون بها (أي الحريري « ومــن هــم وراءه ») الفكــرَ البشــري ... والتشويه والإشاعة المغرضة في خطّة خبيثة مشبوهة مرسومة، تسهر على تنفيذها مراجــع القرار المسيحي والصهيوني في العالم ... ثم الأباطيل والتلاعب الفاضح والأسلوب الرخيص والاستهجان والكذب والافتراء والأحقاد ... » ثم ينهي المقدمة بإبداء شعور الإحراج وهو يردّ « على هذا اللقيط » ، أي كتاب « قسّ ونبيّ » (ص ٧ ــ ١٣).

ثم ينطلق السيد هاشم في كتابه، وهو يردّ ويكرّر دون ملل أو ســأم بــأنّ مقــولات الحريري « ما هي إلاّ هذيان بهذيان » [1] ، مدفوعة « بقطار هذيانــه » (١١٨)، ومكتوبــة بــ« حمى الهذيان » (١٠١).

---

(١) ص ١٩، ١٤٥، ٤٤٣، ٤٤٤، ٥٣٢، ٥١٦.

ثمّ يكشف السيد هاشم عن نفسية الحريري الذي « يتحرّق غيظاً » (١٨)، و« يتحسّر » (١٧)، و « يتأسّف » (٢٠)، و « يصبّ جام غضبه » (٢١)، و « يتأوّه ويتحسّر » (٤٥٤)، و « يزداد تظلّماً وحسرةً » (٤٥٤). وأخيراً « يندب حظّه » (٦٥٢).

وكثيراً ما يستعيض السيد هاشم عن اسم الحريري بكنايات وألقاب. مثل « صاحب اللقيط » [٢] ، والحريري المزيّف[٣] ، والحريري المزعوم[٤] ، والمقنّع[٥] .

وقليل على الحريري أن يشبّهه السيد هاشم بالكلب الذي يلهث ويزيد ويفجّر ويجترّ ويلحس ويتشدّق. وما أشبه. يقول « يركض الحريري لاهثاً » (٦٧). « مزبداً هائجاً » (٤٤٣). « يجترّ نفسه، ويلوك طروحاته، ليثبت بطريقة مثيرة للسخرية والضحك، التطابق الوهمي بين الإسلام والنصرانية » (٦٣٩)، وسيظلّ الحريري « يجترّ (تهريجه)، ويلوكه، ويكابر، ويعاند، ويشرح، ويتفلسف في تهويش مضحك » (٦٥٣)، « ويتشدّق » (٦٨٥)، « ويلحس توقيعه » (١٢١)، أو « يلحس أقواله » (٦٥٣ ، ٤٤٩).

الحريري، في كتابه، « مليء بالهرج الرخيص » (٤٥٨)، « بالهرج والتلفيق » (٥٠٩)، والفجور (٨٧ ، ١٠٦). وكل ما يقوله « ليس إلاّ هراءً وتلفيقاً » (٦٩٢)، بل كل مقولاته « سخيفة تافهة » (٦٩٠)، أقاويل « شاذّة مستهجنة » (٦٨٩)، « أكاذيب وافتراء وتهريج » (٦٧٩).

هذا الحريري « مليء بالعهر والفجور » (٥٢٦). وكم ذرف من عينيه « دمع العهر » (٦٧٧)! وكم تكلّم « بحماس موتور » (٥٢٢)! حتى « بلغ العهر الرخيص والتذكي المصطنع حدّاً » (٦٩٤).

---

(٢) ص ٣٩، ٥٧، ١٣٤، ٤٦٠، ٥١٦، ٦٤٧.
(٣) ص ٦٤، ٨٨، ٣٨٥، ٤٤٤، ٥٤٦، ٦٢٨، ٦٧٥، ٦٩٣، ٧٠٣.
(٤) ص ١٠٩، ١١١، ١١٨، ٤٣٠، ٤٤٧، ٤٦١، ٤٧٢، ٥١٠، ٥٢٢، ٥٢٨، ٥٣٤، ٥٤٨.
(٥) ص ٩٠، ١٤٣، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ٤٦٣، ٤٦٩، ٤٨٨، ٥١١، ٥١٥، ٥٥٧، ٦٢١، ٦٢٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٧٣، ٦٧٥، ٦٨٥، ٦٨٧، ٦٩٢.

وهــو باستمرار « يهذي ويهــلوس (٦٨٩). بأقــوال « مليئة بالهــلوسة » (٥٣٢)، « ويذرف دموع التماسيح » (عنوان فصل، ص ٦٨٩ و٦٩٤)، « ويبحث عن ثغــرة فــي جدار الإسلام ليدخل منها ناشباً أظافره في جسد الإسلام تهشيماً، شاغلاً معــول حقــده فــي ركائزه تهديماً، ليتمزّق الجسد، ويتقوّض البنيان، فيرتاح ويطمئنّ » (١٤٦).

« بحقده الأعمى » (١٢٦) يركّز معوله الهدّام وقلمه الخبيث » (١٢٥)، و « يصــل حقد المقنّع (الحريري) على الإسلام حدّاً جعله يخرج من حدود اللياقة والأدب والتهــذيب » (٦٢٣)، ولم يستطع أن يرتفع من درك أحقاده » (٥٢١)، في كتاب دعا فيه « إلــى التفرقــة والتباغض وزرع الأحقــاد والضغائن » (٦٩٧). هــذا « الحقد الأسود » (٦٩١) تدلّ عليه « نواياه السوداء » (٦٩١). وقــد تميّز الحريري « في حقده على النبي » (٦١٨). بل هــو « يزفر كل حقده على النبي » (١٢٢).

كل ما كتبه الحريري قد كتبه « بأسلوب غوغائي رخــيص » [٦] ، بـــ« التزويــر والتلفيق » (٥٩٩)، بسفسطة فارغة (٦٥١)، بطريقة بهلوانية رخيصــة (٦١٣)، بمســرحيّة مبتذلة (٦١٣)، بتأتأة (٥٢٧ مرّتين)، « بسخرية وهزء بدت بهما ســماجته طاغيــة علــى غروره وادّعائه الفارغين » (٤٥٣). بل بسخرية سمجة أيضاً (٦١٨)، بالهرج الدعائي الظالم (٦٥٩). بالمستوى الرخيص المكشوف (٤٦٠)، بالدس والفرقة (٤٦٦)، بالــدس الــرخيص (٦٧٥ و٦٥٩). بدس وكذب وافتراء (١١)، بدواخة مضحكة (٦٩٠)، وصرعة من صرعاته المحمومة المضحكة (٦٨٩)؛ بل هو « متيّم بالصراعات الكلامية » (١٢٣)، « ببسمة صفراء تملأ شدقيه » (٦٥٨).

والحريري في كتابه « يزفر كل مخاوفه، وينفّس عمّا يرعبه ويقلقه، ويجمع كل مــا يفزعه ويفري عظامه » (٦٩٥). لكأنّه مضطرب القلب قلق الضمير. فهو يكتب « والخــوف يأكل قلبه، ويفري عظامه » (٦٢٦)، و « الحسرة تأكل قلبه »

---

(٦) ص ١٣، ١١٣، ٦٧٦.

(٦٩٣). يلفّه السواد من كل صوب، وهو « المقنّع القابع في الظلام، الغـارق فـي عتمتـه وظلامه » (٦٩١)، حيث « حارب الصدق، وماشى البهتان، وتقنّع، وقبـع فـي الظـلام » (١١٨).

والحريري « رغم أنّه غارقٌ إلى أعمق ضلاله وبهتانه، إلاّ أنّه يعتبر نفسه بحاجة إلى انحدار أشدّ. وإلى تعمّق بالدس والتضليل أعمق فأعمق، ليصل على أسفل السافلين » (٦٣٢). يحاول الحريري باستمرارٍ العملَ « في تشويه صورة الإسلام. ومحاولته ستكون حتماً فاشلة » (٨٢). فهو « يختزل (في كتابه) أحقاده ومواقفه العدائيّة من الإسلام » (١٢٤). ولا يزال. منذ الصفحة الأولى من كتابه حتى الأخيرة يتابع « دبيبه علـى أرض الـدس والضـلال » (٦٤٠).

هذا « الدس » الذي يحلو للسيد هاشم الكلام عليه، وقد لصقه بالحريري مراراً، وتوّج به عنوان الفصل الأخير حيث قال : « بالدس بدأه وبالدس نهاه » (٦٩٩). وفي مـتن هـذا النص يجد السيّد هاشم أن الحريري « لم ينسَ أن يفرغ في كبد الحقيقة آخر سهم في جعبتـه، وأن ينفث في جسدها آخر جرعة سمّ تختزنها خبايا نفسه » (٦٩٩). ولا تقل أفكار الحريري سمّاً عن أسلوبه. إذ « دسّ سمّه في دسمها » (٦٩٩).

ويختم السيد هاشم كتـابه بكلام شامل لجميع مَن يمثّلهم الحريري. أو كمـا يقـول ، لـ« مَن هم وراءه » [٧] فيصفهم بـ« القلة المتشنّجة المتعصّبة ... قلّـة حاقـدة موتـورة » (٧٠٣)، أو أيضاً « الفئة الحاقدة الموتورة » (٧٠٤).

ولنعد قليلاً إلى بداية كتاب السيد هاشم لنسمعه يصف كتاب « قسّ ونبـي » بعـدما سمعناه يصف الحريري. وفي وصفه لكتـاب الحريري قد نجد السبب الـذي من أجله سـمّاه « لقيطاً » . قال : « فبعدما رماه مؤلّفه وطابعه وناشرهُ على قارعةِ طريقِ المجتمع. ثم هربوا منه، أصبح يتلطّى وكأنّه ممنوع من الظهور بقرارٍ ذاتي، إن أطلّ على مكتبة فمتسـلّلاً مـن نوافذها، وإن وجدتَه في إحداها فمزويّاً وراء كوم

---

(٧) ص ٩٠٨، ٢٢، ٨١، ١٠٦، ٤٧١.

الكتب المهمولة، وإذا طلبتَه دسّه لك صاحبُها بالخفاء، كمن يُخفي عيباً أو يتستّر على فضيحة. فهو هارب من وجه العدالة الاجتماعية، كما هرب مؤلّفه منه وبسببه من وجـــه المجتمـــع » (١٣). فهو بالنتيجة كتاب « لقيط حملت به أمّه سفاحاً » (٥١٦). والسفاح، بحســـب لســـان العرب، هو الزنا والفجور.

ثانياً ــ الحريري في صوت العروبة

حظّ الحريري مع الذين يردّون عليه من المسلمين لا يُحسد عليه. فقبل السيّد هاشم قامت قيامة « النجّاد » في جريدة « **صوت العروبة** » **البيروتيّة**، في خمس مقالات نشرت تباعاً في ١٦ / ٧ / ١٩٧٩ حتى ٢٠ / ٧ / ١٩٧٩، وفي الصفحة الأولى. وخطر ببال الحريري أن يطبعها وينشرها ويوزّعها مرفقة مع كتابه، وذلك حتى يكون القارئ على بيّنة من الحقائق والمواقف والردود.

في عناوين مقالات النجّاد جاء ما يلي : « عصابة الهراطقة اللبنانية والمسخرة المسمّاة قسّ ونبيّ » . « الافتراء على التاريخ والدس على الإسلام والقرآن. عصابة من الهراطقة اللبنانيين يحاولون هدم الإسلام » . « كلام أبي موسى الحريري هريري » (الهرير، بحسب شرح النجّاد، يعني نباح الكلاب. وقد حصل الحريري على هذا اللقب في كتاب السيّد هاشم).

وفي متن النصّ نجد النجّاد يقول إنّ « اسم أبي موسى الحريري تغطية شفّافة جدّاً لعصابة من الدجاجلة الأفّاكين الذين يمتهنون فقط التهجّم على الإسلام وعلى نبي الإسلام ... إنّه عمل شارعي تهويشي سفيه ... بأسلوب الغوغائية التافهة » . واضعو هذا العمل هم « مجمع الهراطقة » ، وكم هؤلاء « طبخوا من سموم في كتاب قسّ ونبيّ » !؟

وفي حماس السيّد نجّاد المثار نجد العلاج التالي. وقد لا ينفع الحريري غير هذا العلاج. يقول النجّاد : « قائل مثل هذا الهراء يستحقّ أن تُفرك أذناه الطويلتان، وأن يُصفع على قفاه، وأن يُربط من رقبته بحبل، ويَدخل إلى أحد المصحّات المخصّصة لشفاء مدمني المخدّرات ... لأنّه واحد منهم قطعاً » .

وينتقل السيّد نجّاد من الحريري إلى جميع النصارى. يقول : هـؤلاء « لا نصـوص عندهم، فيما يعتمدونه من أناجيل، تمنعهم من سبّ نبيّنا؛ ولا أدب ولا تهذيب يحبس ألسنة بعضهم القذرة من التطاول عليه والإساءة إلينا وإليه ؟ » . و « يبدو أن النصارى كالنساء المصابات بعقدة الساديّة يعشقون من يجلدهم ويهين إلههم ويتراذل على أمّه ... ونصارى بلادنا ليسوا ساديين فحسب، ولكنّهم ينافسون كافور الأخشيدي في طبعه المرذول » .

أمّا كيفية معالجة هذه العصابة التي أصدرت كتاب قس ونبي فواضحة في أقوال السيّد نجّاد الطبّية : « باللجوء إلى السموم » ، و « المبيدات » . لأنّ « المجتمع المهدّد بالوباء الخطير ... لا بدّ لنا من حملة تلقيح عامّة » .

ثالثاً ــ صفحات الشيخ لا مثيل لها

أسلوب الردّ العنيف لم يكن من حظ الحريري وحده. إنّـــه أســـلوب معظـــم الكتـــب الإسلامية التي تعالج الأمور الدينيّة أو تردّ عليها. ولكي يكون للقارئ فكرةٌ واضحةٌ عمّا نقول نرى لزاماً علينا الإشارة إلى بعض ما كُتب في هذا الباب.

أصدر الشيخ خليل سليمان (طرابلس) كتاباً تحت عنوان : « **الردّ على المرتـــدّ** » : **الردّ على كتاب** « **محنة العقل في الإسلام** » **لمؤلفه مصطفى جحا،** طرابلس. ربيـــع الثـــاني ١٤٠٣ هــ / ١٩٨٢م، قياس (١٤ × ١٩,٥)، ١٤٠ صفحة.

منذ بداية الكتاب ابتدأ الشيخ بمصطفى جحا. يقول : « كان جحا في كتابه محنة العقل في الإسلام كان كذّابـــاً صفيقاً غير ذي حيـــاء ولا ضمير » (ص ٣). والصفيق : الوقـــح. « ومصطفى هذا هو نفسه « محنة » إنّه من أحقر أنواع المنحطّين من بني الضلالة والعمـــى والفجور » (ص ٤). ويحكم الشيخ بلسان التاريخ على جحـــا فيقـــول : « إنّ « محنـــة » مطيتي. إنّ جحا مهرّجي. إنّ التقمّص مذهبي. إنّ الكذب طريقتـــي » (ص ١٢). ويـــردّد الشيخ : « محنة يتقمّص. محنة يطوّل أنفه. محنة يتشمّم. محنة يصرخ ... حتى صار وجهُه قفاه » (١٤).

وما جاء به جحا في كتابه، برأي الشيخ، كان خليطاً من الكذب والخبث. يقول الشيخ : « لقد اختلطت على « محنة » الأمور، حتى اختلط فخولط فخلط فجاء بخبيث خليط » (٢٦). و « محنة » وُلِد لغيرِ رشده فلم يعرف أباه، فشكّ في أمّه » (١٦). لهذا السبب « يلزمـــك أن تمسك « محنة » من أذنِه وتقوده » (٥٤). تماماً كما أراد النجّاد أن يصنع بالحريري.

وللقارئ نقدّم هذا المقطع المثير عن مدى انفعال الشيخ. يقول : « ألم أقل منذ قليل إنّ « محنة » لا يمكنه إلاّ أن يكذب! فتلك هي طبيعته التي جُبل عليها. ذلك أنّ أباه كـــان قبيحـــاً كريهاً، فأراد أمَّه على نفسِها في تلك الساعة السعيدة التي كُتب عليها أن تحملَ فيهـــا بعزيزها « محنة » ، فأرادتْ أمُّ « محنة » أن تصدّ أبا « محنة » عن نفسها، فزعمتْ له أنّها في فترة الحيض، فكذبت عليه. فزعم لها كاذِباً أنّه لن يمسَّها إلاَّ مداعبةً، حتى إذا تمكّن منهـــا، فـــنَكح الكـــذبُ بعضَه بعضاً، وتيسَّرَ مرورُ العزيزِ « محنة » ، فكان أن جـــاء، واطربـــاه! ، أحـــدُ الكذّابين » (١٢٩ ــ ١٣٠).

وأخشى على القارئ إن نقلتُ إليه صفحتين صغيرتين محشـــوّتين (١٠٥ ــ ١٠٦) بما لا يليق بأحدٍ قراءتها أو التفكّر بها. وبتّ أسأل كيف استطاع الشيخ أن يكتبها ويتأمّل بهـــا ويخرجها للناس! وكيف قبلتها المطابع، ونشرتها، ووزّعتها على المكتبات! وأعفي نفسي من نقلها، كما أعفي قلمي من الجواب على مثل هذه الأسئلة. ومن القارئ عذراً.

رابعاً ــ ... ولسماحة الإمام أسلوبه أيضاً

والنموذج الثالث من أسلوب الردّ الإسلامي نأخذه من سماحة الإمام الأكبر محمد الحسين آل كاشف الغطاء، وهو عالم شيعيّ ذو شأن في عالمه، له جملة مؤلّفات معتبرة في العلوم الشيعيّة. ومنها كتابه **التوضيح في بيان حال الإنجيل والمسيح**، وقد جاء التعريف به في مقدمة هذا البحث.

لسماحته مبادئ صريحة في الردّ على المسيحيين، يأخذها من الحِكَم السائرة، ومن القرآن والحديث. من الحِكَم ما يقول « إنّ دَفْعَ الشرِّ أحزم » . ومنها أيضاً : « وحلمُ الفتى في غير موضعه جهلٌ » (ص ٨). ومن القرآن قوله : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (سورة البقرة ٢ / ١٩٤). ومن الحديث النبوي قوله : « رُدَّ الحجرَ من حيث جاء، فإنّ الشرّ لا يدفعه إلاّ الشرّ » (ص ٨).

وممّا يميّز سماحة الإمام في أسلوبه أنّه لا يردّ على كاتب مسيحيّ معيّن، ولا على كتاب يطعن في الإسلام. بل هو يتناول المسيح في شخصه، والأناجيل والمسيحيين عامّة.

فالأناجيل، بنظر سماحته، « هي أساطير، تصوّر لك المسيح رجلاً، دجّالاً، محتالاً، خائناً، جبّاراً، عاقّاً، قاطعاً، مفرّقاً، سكّيراً، شرّيب خمر، يغازل الغلام في حضنه، ويتّكي والفتاة تمسح بشعرها رجليه، ويحابي الزانية في درء حدود الناموس عنها ... » (ص ٢٦).

وبالجملة، يقول سماحته : « إنّنا معاشر المسلمين لا نعترف بالمسيح الذي تعبده

النصارى اليوم. وندلّ بالحجج القاطعة : إنّه رجل كاذب دجّال. خمّير سكّير. جبّـــار شـــقيّ. خوّار جبان. إلى آخر ما نصّت عليه أناجيلهم من وصفه. والعجب كله : كيف غفــل علمـــاء المسلمين منذ ثلاثة عشر قرناً عن هذه الحقيقة الراهنة ... » (٢٨). المسيح هو « ابـــن زنـــا وولد سفاح » (ص ٣٩). « يسوع تلك الأناجيل. الذي يعبده النصارى، هو مجموعة خطايا وآثام، تجعله أحوج ما يكون إلى مخلّص وشفيع » (ص ٥٥).

ثم يروح سماحة الإمام يشرح ويفصّل في فصول مستقلّة من كتابه شخصيةَ المســـيح الذي تعبده النصارى. ويضفي عليه من الأوصاف ما لم يخطر ببال. فنحن لسماحته مـــدينون لما عنده من مقدرة على استجلاء النصوص الإنجيلية واستنطاقها. كما نحن له أيضاً مـــدينون في تعريفنا بنفسية نوعٍ غريبٍ من أنواع الرجال. جاء في عناوين سماحة الإمام ما يلي :

١ ــ يسوع الأناجيل كاذب مفتري (ص ٥٦ ــ ٥٧).

٢ ــ يسوع الأناجيل كاذب مغيّر للناموس ومبدّل لأحكام الله (ص ٥٧ ــ ٥٩).

٣ ــ مسيح الأناجيل كاذب محتال مخادع (ص ٥٩ ــ ٦٠).

٤ ــ مسيح الأناجيل معطّل لحدود الناموس ومبطل لها من غير سبب ولا علّـــة (ص ٦٠ ــ ٦١).

٥ ــ مسيح الأناجيل قاطع الرحم، عاقّ لأمّه وأخوته، مفرّق بين الأقـــارب (ص ٦١ ــ ٦٢).

٦ ــ مسيح الأناجيل مخبط ومخلط، متناقض الأفعال والأقوال (ص ٦٣).

٧ ــ مسيح الأناجيل ملعون (ص ٦٣).

٨ ــ نعم يسوع الأناجيل كان يرتكب الجرائم يقترف المآثم، فكان يأخذ أمـــوال الناس ظلماً (ص ٦٤ ــ ٦٥).

٩ ــ مسيح الأناجيل جبّار متكبّر مسرف مبذر (ص ٦٦ ــ ٦٧).

١٠ ــ مسيح الأناجيل لا قداسة فيه، ولا كرامة ولا أمانة (ص ٦٧ ــ ٦٨).

١١ ــ مسيح الأناجيل يغازل النسوان ويجلس في حضنه الغلمان (ص ٦٨).

١٢ ــ يسوع الأناجيل يستعمل الظلم والعدوان، فيُدخل الشيطان في الإنسان، وفي الحيوان، بل يُدخل الظلم والبوار حتى على الأشجار (ص ٦٨ ــ ٧١).

وبالنتيجة « إن يسوع، بحسب ذات أناجيلهم، كان مجموعة خطايا وجرائم وجرثومة فساد ومآثم. وأي جريمة تريد أكبر من الكذب الصريح في أكثر من عشرين مورد، ومن تحقير الأنبياء، وجعلهم لصوصاً وسرّاقاً، ومن تبديل أحكام الناموس، وتعطيل حدود الله. وأمثال ذلك. فحقّاً إنّه هو بذاته أحوج ما يكون إلى مخلّص يخلّصه وشفيع يشفع له. وظنّي (وظنّ الألمعي يقين)[1] أنّه لا ينال خلاص من القصاص إلاّ بالتمسّك بطهارة أذيال حبيب الله محمد وأهل بيته » (٧١ ــ ٧٢).

أمّا المسيحيون فليسوا بأقل شرّاً من مسيحهم. فهؤلاء هم « دعاة السوء ومبشّري الشؤم المنتشرين في الآفاق ... يحملون بضاعة الصلف والقحة وعدم الحياء، داعين إلى دين الخمر والخنزير وترويج سلعة المكر والتزوير » (١١٠). هؤلاء يتعرّضون « لبسطاء المسلمين بالإغواء والإضلال والتمويه والتعمية. وإنّهم يعيثون الفساد ... حتى بلغت بهم القحة والصلف والجرأة والاستهوان أنّهم دخلوا في بلدان الإسلام... على حين أن ليس عند أولئك السود الغرابيب من بضاعة سوى الأكاذيب والأعاجيب والقحة والصلف والخداع والمكاشرة... إنّ أولئك السفالة مستأجرون على تلك الأعمال... تلك الشرذمة الرعاع (هم) بمقامٍ من رداءة الجوهر وخباثة العنصر بحيث كأنّ الله لم يخلق في طباعهم ذرّة من الحياء والانصاف... أناجيلهم... لا يليق أن تصدر من الصبية والمجانين... أولئك الرعانفة... الذئاب العادية، وشرورها السارية... » (٣٤ ــ ٣٨).

---

(١) هكذا ورد حرفياً في النصّ.

خامساً ــ ضحايا أسلوب الأئمة والشيوخ

والعيّنة الرابعة من أسلوب الردّ الإسلامي نأخذها من الأستاذ محمد بن الخطيب في كتابه **هذا هو الحقّ!** ، وقد عرّفنا به في مقدّمة هذا البحث. يقول في ردّه على كاهن كنيسة : هذا الذي حاول كتابة كتاب في حقّ الإسلام، كيف تحدّثه نفسه أن « يعتدي على مقدّسات قوم يعيش في كنفهم ... كيف تسوّل له نفسه الآثمة ... وكيف يرتضي لنفسه مركب الهوان بعد أن أعزّه الدين الذي يطعنه! ... » ، إنّه « منطق المحارب الموتور الأعمى » (ص ٦ ــ ٧).

كتاب هذا الكاهن حظّه مع الأستاذ ابن الخطيب أن يُلقى « في سلّة المهملات ... » ولكن، يضيف الأستاذ « شرعتُ في الردّ عليه، لأردّ كيدَه في نحره، وأسقيه، محقاً، بالكأس التي أراد أن يسقيناه، مبطلاً » (ص ٨). هذا الكاهن « كم في نفسه من البغض والحقد والسمّ الدفين! » (٩)، و « النفاق والرياء والكذب والطعن طعناً مريراً حقيراً، بلفظٍ مزخرف يقطر سمّاً، وقولٍ معسول يسيل علقماً!!! وكم فيه من بهتان تشتعل القلوب غيظاً وكمداً! » (ص ٩).

« لقد طعن هذا الأفّاك بخيرِ دين، وقذف خيرَ نبيّ، وعاب خيرَ كتاب. فلا يجوز أن يلومني إنسان على سبق لسان، أو على شدّة في قولي. فإنّ مثله ــ وقد فعل ما فعل. لا يخاطب إلا بمثل ذلك » (١٠). أقواله خبيثة (٢٨)، نفسه خسيسة، وكرامته منحطّة (٣٣). إنّه الرجل الأوكس (يشرح الأستاذ في الحاشية : الخسيس) (ص ٤٠). « أجزاه الله تعالى وزاده جهلاً، ولو أنّ جهله لا يقبل المزيد » (٥٩). « فيا أيّها الكاهن! اسمح لي أن أقول : إنّ منطقك أعرج،

وفهمك أعوج! ومهما قلت فإنّ قولك مشوب بالحقد، ورأيك مليء بالجهل » (ص ٧٥).

« ولكن ما الحيلة، ونحن حيال رجل كنيسة ... انطلق علمه ــ لا بغزارته ــ يلــوّث كل ما يلمسه من مقدّسات ... ويا ليته تكلّم عالماً ... أمّا وقد تكلّم جاهلاً، متكبّراً، معتوهــاً، فليس لدينا سوى التقويم باللسان، فإن لم يقوّمه المنطق، فليقوّمه السجن الذي أعدّ لأمثاله ... » (٥٤ ــ ٥٥).

* * *

أمّا الشيخ محمّد أبو زهره. في كتابه **محاضرات في النصرانية** المشار إليه في مقدّمة هذا البحث، فهو، في أسلوبه، أرصن الرادّين والمغامرين. ومع ذلك، لا يخلو من بعض التهجّم والعنف. فحكمه على الأناجيل مثلاً لا يمكن أن يصدر عن قلم رجلِ حــوار. يقــول : « وإذا كانت هذه الكتب متناقضة متضاربة، يلحق الكذبُ كلَّها، في جملتِها وأجزائِها، عند مناقشـــتها، فهي إذن ليست بإلهام. ويكفي هذا بطلاناً لدعواهم في الإلهام » (٨٩).

وفي كلامه على عقيدة النصارى اتّهمهم بالجنون وبأنّهم لا عقل لهــم ولا حجّــة ولا برهان. ومع هذا يجتهدون في إقناع الصبية بمنطقهم اللاعقلي. يقول : النصارى، مع عقائدهم « نجدّهم يجتهدون في تصويرها، ويشعرون بعظم المشقّة في ذلك، حتى إذا يئسوا قالوا إنّهـــا فوق العقل، وإنّ العقل لا يستطيع تصويراً كاملاً، وإنّها ستتجلي يوم القيامة ... وهم يلقّنـــون الصبية بأن يجتهدوا في تصوّرها وتصديقها، لا في البرهنة لها وإثباتها ... » (١٢٠).

* * *

أمّا العيّنة السادسة والأخيرة في أسلوب الردّ الإسلامي فنأخذها من الإمام العلاّمة ابن قيّم الجوزية، في كتابه المشار إليه سابقاً « **كتاب هداية الحيارى** » . هذا الكتاب يصف حـــال النصارى في عقيدتهم وممارستهم، ويقدّمها إلينا بصور قد لا ترضي الأذواق السليمة. ومـــع هذا فالواجب يقضي علينا بالإشارة إليها.

يقول الإمام العلاّمة عن النصارى « الذين اختاروا عبادة الصور، خطّوها بأيديهم في الحيطان، مزوّقة بالأحمر والأصفر والأزرق، لو دَنَتْ منها الكلابُ لبالــتْ عليهــا » (٢١). ويكمّل في وصفه قائلاً : « والذين اختاروا صلاةً، يقوم أعبَدُهم وأزهَدُهم إليها، والبولُ علـــى ساقه وأفخاذه، فيستقبل الشرق ثم يصلّب على وجهه ... ثم يحدّث مَن هو إلى جانبه، وربّمــا يسأل عن سعر الخمر والخنزير وعمّا كسب في القمار ... وربّما أحدث (أي خرجــت مــن بطنه أرياح وأصوات) وهو في صلاته. ولو أراد لبالَ في موضعه إن أمكنه ... » (٢٢).

هؤلاء « أكثرهم جهّال بمنزلة الدواب السائمة ... » (٢٢) إنّهم « أمّة الضلال وعبّاد الصليب والصور المزوّقة في الحيطان، وإخوان الخنازير، وشاتمو خــالقهم ورازقهــم أقــبح شتم... فلا إله إلاّ الله الذي أبرز للوجود مثل هذه الأمّة التي هي أضلّ من الحمير ومن جميع الأنعام السائمة ... » (١١٥).

ويردّد الإمام العلاّمة قوله عن النصارى بأنّهم « أمّة الضلال وعبّاد الصليب والصور المدهونة في الحيطان والسقوف ... ألا يستحي (النصراني) الذي يعتقد أنّ ربّ الســموات والأرض نزل عن كرسي عظمته وعرشه ودخل في فرج امرأة تأكل وتشرب وتبول وتتغوّط وتحيض فالتحم ببطنها! » (١٣٩، راجع ١٤٧ ــ ١٤٨).

الخاتمة

في ختام هذه الجولة يخطر بالبال سؤال واحد لا غير : لماذا يتّخذ المسلمون عامّة مثل هذا الأسلوب العنيف في الردّ على مخالفيهم ؟! قبل أن نبدي رأينا ونعطي جوابنا لنسمع السيّد شريف محمّد هاشم يوضح لنا لماذا ردّ على الحريري بمثل ما ردّ. قال: إن الحريري « يحاول أن يوقد نار فتنة كبرى ... وعلينا أن نكون إطفائيين، لكي نخمد ناره في مهدها، قبل أن تأتي على الأخضر واليابس » (١٧). وكذلك أفتى النجّاد بملاحقة الحريري ودعا المجتمعَ الإسلامي إلى أن « يباشر فوراً بحملة تلقيح عامّة يحمي بها نفسه وكيانه » . وكذلك أيضاً قال ابن الخطيب عن كاهن كنيسة : « شرعتُ بالردّ عليه لأردّ كيده في نحره ... » (٨).

يبدو أنّ عنف الأسلوب يأتي من شدّة الغيرة على الإسلام ونبي الإسلام وقرآنه. وهو، بالفعل كذلك، لأنّ منطق الدفاع عن الإسلام وقضاياه لا يزال هو السائد في كل ما كتبه ويكتبه المسلمون في دينهم. والدفاع عن الإسلام، ككل دفاع، له منطقه الخاص وأسلوبه الخاص. والمسلمون، عندما يتناولون كتاباً يعالج شؤون الإسلام يتبارون في تحطيم الكتاب وصاحبه، وينقلون المعركة إلى معسكر الخصم مباشرة، فيتوجّهون نحو المسيحيّة مثلاً، ويفكّكون أوصالها، وينزعون عنها ميزتها الإلهيّة، ويلاحقون المسيح بالتهم والتجريح، ويغربلون رجالات الكنيسة كلّهم، ويبرزون نقاط ضعفهم ومآثمهم ... إلى ما هنالك.

ونحن قد لا نعجب من مثل هذا الأسلوب العنيف والمشين أحياناً، ذلك لأن العقيدة الدينيّة هي أعمق وألصق ما تكون بالشخصية الإنسانيّة. وتناول هذه

العقيدة من قبل الخصم بشيء من التحليل أو الاستهتار أو التساؤل يقيم الأرض ويقعدها عند الإنسان المؤمن الذي يرى شخصيته وعقيدته في كفّة الاتّهام. فمن الطبيعي إذاً أن ينتفض المسلم كلّ مرّة يرى عقيدته بين أيدي الباحثين غير المؤمنين بها. لهذا نقدر مبدأ يقول : المؤمن معنيّ بإيمانه.

الفصل الثاني

منطق الردّ

أولاً ــ أين هي المصادر الإسلامية ؟

ثانياً ــ تشويه النصوص

ثالثاً ــ منطق لا مثيل له

رابعاً ــ فريّة فريدة من نوعها

خامساً ــ من يخترع الأحاديث ؟

[Plank Page]

منطق السيد هاشم في الردّ على الحريري كمنطقه في أسلوبه. فأسلوبه في الردّ كـان واضحاً للقارئ، تبيّن لنا بدون عناء؛ أمّا في ردّنا على منطقه فقد يلزمنا التركيز على أدلّة نأخذها من مواضيع الكتاب كلّها. وقد نرى مثلاً عليه في كل صفحة منه. ويبقى على القارئ الكثير الكثير لكي يتأكّد ممّا ننقل إليه. وما ننقل إليه ما هو الاّ عيّنات متناثرة، من هنا وهناك.

هذه العيّنات نختصرها في خمس نقاط : غياب المصادر الإسلاميّة في الردّ. تشويه في نقل النصوص من كتاب « قس ونبي » ، اتّهام الحريري بأشياء وأشياء لم يقلها الحريري، تبنّي السيد هاشم احتمالاً ما من احتمالات التفسير الحريري على أنّه من وضعه واخراجه، وأخيراً اتّهام الحريري باختراع الأحاديث النبويّة ...

أوّلاً ــ أين هي المصادر الإسلاميّة ؟

لقد اعتمد الحريري، في كتابه « قسّ ونبيّ » ، على مصادر إسلاميّة أساسيّة كثيرة : القرآن الكريم، والتفاسير العديدة عليه، وكتب الأحاديث النبويّة، وكتب السير، وكتب التاريخ الإسلامي ... كلّها مشهور، يعتمده المسلمون عامّة، وله الاعتبار الذي يستحقّ ... ولولا هذه المصادر لما استطاع الحريري أن يذهب في بحثه بعيداً ...

هذه المصادر التي هي عمدة الحريري في بحثه، لم يبدِ السيدُ هاشم رأيه فيها. لم يذكر منها إلاّ القليل جدّاً. لم يعتمد عليها. لم يناقشها. لم يفسّرها. لم يأخذ منها موقفاً يختلف أو يتّفق مع مواقف الحريري. لم يعترض على أيّ استشهاد نقله الحريري منها ــ اللهمّ سوى حديث عائشة عن موت ورقة. وسنخصّه بمعالجة منفردة بعد حين ــ .

فهل صمتُ السيد هاشم على مصادر الحريري الإسلاميّة هو جهلٌ لها ؟ أم رضىً عليها ؟ ليس علينا أن نفترضَ الاحتمالَ الأوّل عند رجلٍ ظهرت ثقافته في لائحةِ ما ذَكَرَ من مراجعِ لكتابه؛ بل نستطيع اعتبار موقف السيد هاشم رضىً، وإن هو لم يعبّر عنه إلاّ بالصمت.

غير أنّ صمت السيّد هاشم عن مصادر الحريري الإسلاميّة لا يعني أيضاً صمته عن قذفه ببعض التهم. ففيما هو لا يناقش المصادر، نراه يقول باستمرار بأنّ الحريري لم يقدّم لحججه دليلاً واحداً. يقول : « افترض (الحريري) كل هذه

الأمور دون أن يكلّف نفسه إبراز دليل واحد يدعم به افتراضاته، ومع ذلك يريدنا أن نصدّق » (ص ٩). ويقول أيضاً : « الحقيقة أنّنا لم نجد لأي من رواياته وآرائه سنداً مقبولاً، أو أساساً معقولاً » (ص ٩).

مثل هذا المنطق يحتاج هو الآخر إلى ما به يتّهم الحريري. فهو أيضاً كلام بدون سند. وقد وقع السيد هاشم في التهمة نفسها التي يتّهم بها الحريري، إذ هو لا يقدّم دليلاً واحداً على ما به يتّهم.

من مآخذ السيد هاشم أن الحريري سمّى الآيات القرآنية « نصوصاً » . وبسبب هذه التسمية نال الحريري ما ناله من ملامة السيد هاشم. قال : « لسانه (أي الحريري) لا يطاوعه أن يقول الآيات » (٦٢٧). وقال أيضاً : « لو لسانه طاوعه لقال آيات » (٦٢٨). قد نقبل بهذه الملاحظة شاكرين، غير أنّنا وجدنا سماحة الشيخ حسن خالد مفتي الجمهورية اللبنانية، وشيخ الإسلام ابن تيميّة، والإمام العلامة ابن قيّم الجوزيّة، وغيرهم، يكثرون من استعمال كلمة « نصوص » بدل « آيات » .

بيد أن الأهمّ من ذلك، في رأي السيد هاشم، هو تجزئة الحريري للآيات. يقول: « حُمّى الهذيان بدأت فعلياً عندما أورد الحريري آياتٍ من القرآن .. » (١٠١)، يذكر السيد هاشم بعضاً منها ليدلّ، في الحاشية، على أنّها مجتزئة مشوّهة، فيقول : « أوردنا هذه الآيات مجتزئة حسبما وردتْ في كتاب قسّ ونبيّ تدليلاً على طريقة التشويه التي اعتمدها المؤلّف (١٠١).

نقول : إنّ الآيات التي يشير إليها السيد هاشم تدور عند الحريري حول كلمات وألفاظ فقط، مثل : « أحزاب » و « شيع » و « فرق » وما أشبه. والمقصود منها الإشارة إلى وجود مثل هذه الأحزاب والشيع في بني إسرائيل، كما يقصد القرآن من تبيانه. وليس المقصود، من الاستشهاد بهذه الآيات، معانيها وتفاسيرها وأبعادها الكلاميّة أو الفقهية أو الروحيّة أو الصوفية .. لهذا يحقّ للحريري نقل ما نقل وبالطريقة التي نقل.

ولنا أيضاً ملاحظة ثالثة فيما يخصّ تفاسير الآيات القرآنية. قد يختلف الحريري، في كثير من تفاسيره، عن المفسرين المسلمين. وهذا شيء لا بدّ منه. ولكن على القارئ النبيه أن يحكم على كل تفسير بمفرده، وأن يحكم على الحريري أو معه.

وأخيراً نقول : كان على السيد هاشم، بعد سبعمائة صفحة من كتابه، أن يناقش، ولو مرّة واحدة، المصادر الإسلامية التي اعتمد عليها الحريري، ويتخلّى عن مناقشة الحريري نفسه ومقارعته. فالمطلوب في البحث كلّه مناقشة المصادر لا مناقشة الحريري. وليته استشهد مرّة بنصٍّ استشهد به الحريري وفسّره، لنكون معه أو عليه. ولكنّه لم يفعل.

ثانياً ــ تشويه النصوص

معظم نصوص الحريري التي يستشهد بها السيد هاشم مشوّهة ومهشّمة. ينقل دون مراعاة الفاصلة، أو النقطة، أو الرجوع إلى السطر، أو وضع ثلاث نقط عند إهمال مقطع أو أكثر .. ثمّ يترك السيّد هاشم كل مصادر الحريري ومراجعه. ومن المعلوم أنّ كلام الحريري قد لا يكون له شأن إن لم تكن هذه المصادر والمراجع دعماً له ..

يضاف إلى ذلك مهارة عند السيد هاشم في ربطِ جملِ الحريري بعضها ببعض. فهو يأخذ جملةً من صفحة، وجملةً ثانية من صفحةٍ ثانية، وثالثةً من صفحةٍ أخرى .. ويجمعها في جملة واحدة، دون الإشارة إلى هذا التهشيم وهذا القضم العجيبين ...

ولئلا نبقى في مستوى الاتّهام غير المدعوم سنقدّم للقارئ عيّنات من التهشيم :

لنبدأ بالبداية : أوّل نصّ ينقله السيد هاشم عن الحريري، كما الثاني، والثالث، في صفحة ١٥ و١٦، هي نصوص مهشّمة. وكذلك نصوص صفحة ١٧ و١٨ .. حتى آخر الكتاب.

الحريري	السيد هاشم
« ... نصرانية مكة ليست هي مسيحية انطاكيا وروما والاسكندرية. ومقصد القس والنبي كان تلك لا هذه. وتلك كهذه كانت مبعثرة في شيع وأحزاب، وأراد القسّ والنبي جمع شتاتهما في دين واحد جديد » (ص ٦).	« كان دين النصرانية أفكاراً مبعثرة أو أشلاء موزعة بين شيع الأحزاب والأناجيل المتعدّدة. فأراد القسّ والنبيّ جمع شتاتها في دين واحد » (ص ١٦).
« ... وتمّ النجاح في الإسلام بعدما ذابت النصرانية فيه. ولا تظنّن للمرة الثانية أن نصرانية الأمس هي مسيحية اليوم .. » (ص ٦).	« فإذا بالنصرانية قد أسلمتْ، بعدما أذابها ورقة ومحمد في إسلامهما الجديد » (١٦).
« بيد أن النبي استطاع أن يتفوّق على القسّ ويستقلّ عنه، شأنه شأن أي تلميذ بارع يتخطّى بذكائه قدرات معلّمه. وشأن القس شأن أي مربّ حكيم يترك لربيبه حريّة التصرّف. لقد كان النبي، لفرط ذكائه، ينشد الحرية ويلتمس الاستقلال؛ وكان القس، لوفرة حكمته، يختفي أمام عنفوان تلميذه بلباقة، أو يتوارى عن مسرح التاريخ الذي واراه وراء ستار حاجب. لقد أدّى القس خدمته وذهب، وبقي النبي يجاهد ويناضل.. » (ص ٦).	« إن التلميذ قد تفوّق على أستاذه ورقة الذي فضّل، شأن كل مرب حكيم، أن يترك حرية التصرّف لربيبه، فآثر بحكمة أن يتوارى عن الأضواء، مفسحاً في المجال أمام تلميذه كي يصعد ويصعد » (١٧).

يبدو أن السيد هاشم يأخذ الفكرة من نصوص الحريري، بالأسلوب الذي يريد، ثم يرفض ويتّهم على هواه.

* * *

بالإضافة إلى هذا النوع من التشويه، هناك نصوص عديدة ينقلها السيد هاشم عن الحريري، ولا نعلم أين هي في كتاب الحريري، ومن أين أخذها. مثلاً : هناك جملة في صفحة ٤٦٥ من كتاب السيد هاشم، على أنّها من صفحة ٨٤ من كتاب الحريري بحسب زعمه؛ ولا نجد لها مقابلاً، لا في الصفحة المذكورة، ولا في سواها[١] ... وكذلك أيضاً جملة في صفحة ٥١٠ ينقلها عن صفحة ٩٧، وهي أيضاً غير موجودة، لا فيها ولا في غيرها[٢]... وأيضاً صفحة ٦٢٥ حيث لا أثر لها في الحريري[٣] .. ومقطع في صفحة ٦٢٣ يختصر فيه السيد هاشم صفحاتٍ ثلاث من الحريري .. إلى ما هناك.

ثمّ نأخذ مثلاً على « قضم » السيد هاشم لصفحات الحريري : يعالج الحريري في أربع صفحات قصة توحيد « النصرانية والحنيفية والإسلام » . فينقلها السيد هاشم بجملتين : الواحدة من صفحة ١٠٦، والثانية من صفحة ١٠٨. ولا يفصل بين الجملتين سوى نقطة واحدة. وبعد هذا « القضم » يعلّق السيّد هاشم بقوله : « وبهذه البساطة وحّد الحريري النصرانية والحنيفية فصارت النصرانية هي الحنيفية » (٥٣٧).

نقول : نعم إنها « البساطة » في ابتلاع السيد هاشم للصفحات أكثر منها بساطة في منطق الحريري.

* * *

ونأخذ أيضاً عيّنة أخرى من تشويه النصوص وتحريفها. ففي صفحة ٤٥٨ المليئة بالتهم والتحريف نصٌّ للحريري طويل يختزله السيد هاشم. ثم يقفز من صفحة إلى صفحة دون أيّة إشارة سوى فاصلة لا غير.

---

(١) جملة السيد هاشم : « القرآن، وهو يعرف أهله النصارى. حاكاهم، وهو يعتبرهم أعلم الناس بحاله. وأدركهم بوضعه. ولذلك فلقد اتجه إليهم وهم على علم بما فيه » (ص ٤٦٥) ؟

(٢) جملة السيد هاشم : « إنها حبشية نصرانية، كانت متعلقة بمحمد ومتعلّق بها » (٥١٠) ؟

(٣) جملة السيد هاشم : « عرف محمد السريانية بواسطة معارفه الشخصيّة واحتكاكه المباشر ببعض مؤلفات السريانية » (٦٢٥) ؟

وفي الصفحة ذاتها هناك نقطة استفهام (؟) بعد كلمة « محمّد » حذفها السيد هاشم، وهي تعني عند الحريري ما تعني؛ أي هي تعني شكّاً بأن يكون محمّد هو المعني، كما الأمر واضح من النصّ. هذه العلامة الاستفهامية تجاهلها السيد هاشم ليزوّر على لسان الحريري ويتّهمه بـ « الهرج الرخيص » ..

وأخيراً يسرّ السيد هاشم اتّهام الحريري بأنّه يزوّر الآيات القرآنية ويحرّفها. وحقيقة ذلك، كما هو في الصفحة المذكورة آنفاً (ص ٤٥٨)، أن الحريري يأخذ آية قرآنية والسيد هاشم يأخذ آية أخرى شبيهةً بها، وينقل إلينا في كتابه الآيةَ الشبيهة، ويروح يكيل على الحريري بتزوير القرآن وتحريفه، وينزّل عليه لعنات السماء والملائكة.

* * *

هذه هي عيّنات فقط من بحر واسع من التشويه، يخشى فيه من تزوير العلم كله، إن نحن بقينا نستعرض ما نقل السيد هاشم من نصوص الحريري.

وليعرف القارئ أنّ السيّد هاشم، هو أيضاً، لم يوفّر الحريري بتهمة تزوير النصوص الإسلامية وتحريفها. انّها تهمة متبادلة قد يضيع القارئ فيها إن هو لم يحسن القراءة ومقارنة النصوص بعضها ببعض.

ثالثاً ــ منطق لا مثيل له

وثمّة نوع آخر من « المنطق في الردّ » ، قد يعجز الإنسان العاقل العادي أن يرى له فيه مدخلاً. مثلاً : يتّهم السيد هاشم الحريري بشيء لم يقله الحريري. ثم يروح السيد هاشم يبرهن ويبرهن عن خطأ ما يُتّهم به. ولنا على ذلك أمثلة كثيرة وكثيرة جداً. إنما نقدّم عيّنات فقط من كل موضوع نعالجه. تاركين للقارئ أن يقيس بذاته على هذا المنوال.

من هذه العيّنات مثلٌ واضحٌ نأخذه من فصل « موت القسّ ورقة » الذي عالجه الحريري في صفحتين من كتابه (قس ونبي ٣٢ ــ ٣٣)، وعالجه السيد هاشم في تسع صفحات (١٠٧ ــ ١١٥).

يقول السيد هاشم : « طالما أنّ ورقة كان لمحمد أستاذاً .. هل مات ورقة بن نوفل مسلماً!؟. ويسأل : « أليس غريباً ومستهجناً أن يموت باعث الإسلام على غير الإسلام ؟ » (١٠٩). ثمّ يرمق السيد هاشم الحريري بعين الشفقة ويقول : « أتصوّر أنّ المؤلّف مرتبكاً (كذا) أيّما ارتباك لستر هذه العورة الفضيحة ولفلفتها » (١٠٩).

نجيب ببساطة كلّيّة على هذا المنطق : السؤال عن إسلام ورقة غير مطروح إطلاقاً عند الحريري، لسبب واحد واضح جليّ كرّره الحريري في كتابه مرّات ومرّات؛ بل إن كتابه كلّه يقوم عليه، ألا وهو : إنّ ما يدعو إليه ورقة ليس غير ما يدعو إليه محمّد. وبوضوح نقول: إنّ نصرانية ورقة لا تختلف عن إسلامية محمد. وبوضوح أكثر أيضاً نقول : الإسلام والنصرانية، عند القسّ والنبي، هما (والأصح هو) دين واحد، لا دينان، وبوضوح أكثر فأكثر، نقول للسيد هاشم :

إنّ الحريري لم يخطر بباله يوماً أن يَطرح السؤالَ الذي طرحه هو. وهو : هل مـات القس ورقة على الإسلام أم على النصرانيّة!

ومع هذا، ورغم ما بيّناه مراراً وتكراراً في مقصود الحريري، وغاية كتابه. والركيزة الأولى والأخيرة فيه، وهي أنّ محمّداً كان للقسّ ورقة تلميذاً أبدع في نقل رسالة معلمه ... مع هذا نرى السيد هاشم يصرّ على السؤال ويلحّ، بل ينفعل ضد الحريري ويتّهمه قائلاً : « بيدٍ محترفة لا ترتجف يزوّر الحريري المزعوم وقائع التاريخ » (١٠٩). ويقول أيضاً: « ولعمري! كيف يصحّ أن يكون من عاش ومات نصرانياً، هو باعث الإسلام ونبيّ الإسلام ؟! » (٥٥).

نسأل السيد هاشم : ما هي « وقائع التاريخ » ؟ من كتب هذا التاريخ ؟ وكيف يستنتج منه ما استنتج ؟ ثم نقول له : إنّ سؤاله حول دين القسّ ورقة قد يكون صحيحاً، لكن بعد رفضه الوحدة بين النصرانية والإسلام. ورفضه لهذه المقولة جعلته يفترض ما يريد أن يفترض بأنّه من مقولات الحريري، لا ما يجب عليه أن يراه أمراً واقعاً.

ملاحظة : إننا لا نعالج موضوع موت القس ورقة هنا، وقد عالجه الحريري في كتابه، وعلى القارئ الرجوع إليه ... إلا أننا نعالج من « منطق الردّ » عند السيد هاشم. فالذي يهمّنا هو التركيز على أسلوب الردّ والمنطق، أكثر من طرح الموضوع والبرهان عليه. هذه الملاحظة تصحّ في نقاط هذا الفصل كلّها .اقتضى التنويه مع الاعتذار.

* * *

ثمّ عيّنه ثانية نأخذها من اعتراض السيد هاشم على مصادر القرآن في موضوع الحسنات والصدقات. ففي الصفحتين ٦١٤ ــ ٦١٥ يذهب السيد هاشم إلى القول : بما أنّ الدعوة إلى أعمال البرّ والإحسان موجودة في كل دين، في الوثنية والبوذية والزرادشتية وأديان مجاهل افريقيا .. فلماذا يقول الحريري، يا ترى! بأنّ القرآن أخذ فقط عن النصرانيّة، ولم يأخذ من هذه الأديان المذكورة!؟

يقول بالحرف الواحد : « لماذا لا نضمّ تلك الديانات أينما كانت إلى عائلة الأناجيل، متى ولوقا والعبراني الضائع، طالما أنّها مثلها تقول بالحسنات والصدقات ؟! » . يريد السيد هاشم أن يقول لنا بأنّ القرآن لم يتأثر بأي مصدر بشريّ! وأنّ القرآن إذا كان له مصدر فلماذا لا يكون له أكثر من مصدر! وأنّ القرآن أخذ نظرياته، في أعمال الحسنات والصدقات، من تراث البشرية كلّها، وليس من مصدر قريب.

* * *

والعيّنة الثالثة نجدها في قول السيد هاشم التالي : يقول : « لماذا استبعد المؤلّف (الحريري) طيلة مراحل كتابه إنجيلَ يوحنا من دائرة المقارنة والبحث ؟ علماً إنّ المنطق يفرض أن يكون ما يقاس بأناجيل متى ولوقا ومرقص يقاس بإنجيل يوحنا أيضاً. أليستْ وحدةُ الأناجيل الأربعة قائمةً ثابتة راسخة حول كل شيء ؟ أم انّها متّفقة أحياناً، وعلى تناقض وخلاف أحياناً أخرى ؟ » (٦١٦).

نقول للسيد هاشم :

أولاً ــ ليست الأناجيل الأربعة كَسُوَرِ القرآن. أي ليست وحدة مستقلة، ومن يدٍ واحدة؛ إنّها روايات كتبها أناس يحتفظ كلّ واحد منهم بشخصيته وأسلوبه وإلهاماته ... هذه المقولة قد لا يفهمها السيد هاشم لأنّها لا توجد في الإسلام. في الإسلام إنزال من السماء العليا إلى الدّنيا، وليس فيه شيء من يد النبيّ. أمّا في المسيحية فلا إنزال، بل إلهام. وفي الإلهام يحتفظ الكاتب بشخصيته المميزة ...

ثانياً ــ لكأنّ السيد هاشم يريد أن يقول : بما أن موضوع الحسنات تكلّمت فيه الأديان السابقة واللاحقة، وتكلّم فيه المصلحون في البشرية، قبل النبي وبعده ... فلماذا لا يقول الحريري بأنّ القرآن أخذ عنها جميعها! وبتعبير أوضح يقول السيد هاشم : لماذا لم يتأثر القرآن بإنجيل يوحنا ؟ لماذا استبعد الحريري هذا

الإنجيل! ألعلّه لا يعترف بوحيه ؟! ... فالجواب البسيط هو من واقع الحال : أي إن القرآن لم يعرف إنجيل يوحنا. لا أكثر ولا أقلّ.

ثالثاً ــ علينا أن نذكّر السيد هاشم بأنّ كتاب « قس ونبي » يدور حول المقارنة بين القرآن والإنجيل العبراني ... فالقرآن أخذ عن هذا، وليس عن يوحنا. والإسلام، في بدايته، هو « النصرانية » التي كانت تأخذ بالإنجيل العبراني وليس بغيره ... لهذا، فالحريري الذي يعتبر إنجيل يوحنا كسائر الأناجيل، لا يهمّه هنا، في موضوع القرآن ومصادره، إنجيل يوحنا إطلاقاً.

لهذا السبب استبعد الحريري إنجيل يوحنا عن أن يكون مصدراً من مصادر القرآن، ولو كان إنجيل يوحنا من الكتب المقدسة في المسيحية.

رابعاً ــ فريّة فريدة من نوعها

ثمّة تعدٍّ على المنطق نأخذه من فصل « القسّ يزوّج النبي » (قسّ ونبي، ص ٣٧ ــ ٤٠)، وفي كتاب السيد هاشم، (صفحة ١١٦ ــ ١٢٣). خلاصة الموضوع : إنّ الحريري يأخذ معلوماته في زواج النبي من كتب السير النبوية، ويفسّرها على احتمالاتها المتعدّدة. فيأتي السيد هاشم ويأخذ احتمالاً واحداً منها، على أنّه موقف الحريري، واحتمالاً ثانياً، على أنّه للسيد هاشم نفسه. ثم يروح السيد يتهجّم على الحريري ويتّهمه بـ« تناقض فاضح » (١٢١)، وبأنّه « ينقلب على نفسه، ويلحس توقيعه » (١٢١)، و« يزفر كل حقده ضدّ النبي » (١٢٢) ...

وها نحن نقدّم للقارئ نوعاً من منطق الردّ قلّ ما يراه في كتب المنطق :

يقول الحريري في موقف أبي طالب من زواج محمّد بأنّ أبا طالب فرح جداً بزواج محمد ابنِ أخيه، إذ دبّر له السيدةَ خديجة ليعمل عندها، ثمّ لتتزوّجه. وبعد هذا الزواج، حسب ما تقول كتب السير، فرح أبو طالب فرحاً شديداً، وحمد الله كثيراً، بسبب استراحته من عبء إعالة ابن أخيه وهموم الحياة، هو الفقير الكثير العيال ...

هذا الكلام لم يرضِ السيد هاشم، بل قامت قيامته على الحريري بسببه، واتّهمه بالهذيان والبهتان والتقنّع (١١٨) ... ولكنّه يعود، في الصفحة التالية مباشرة، ليقول مقولة الحريري نفسّها. يقول : « الصحيح هو أنّ محمداً، الفقير مادّياً، كان يفتّش عن الاستقرار، علّه يرتاح من فقره، ويريح عمّه أبا طالب

الشهير بفقره وكثرة عياله، ومحمد اليتيم المفتقد إلى الحنان والعاطفة ... وجد بهذا الزواج من خديجة استقراره المادي وحنانه المفقود ... » (١١٩).

وهل يريد الحريري من السيد هاشم غير هذا الكلام! أو هل يقول الحريري غير هذا الكلام ؟

من زواج النبي أيضاً نأخذ هذا المثل أيضاً على هذا النوع من « منطق الردّ » . يقول السيد هاشم: زواج النبي « حدث مبارك وكبير... كان له كبير الأثر في حياة النبي. وفي مسيرة دعوته. لِما كانت تتمتّع به خديجة من مزايا طيّبة وصفات حميدة. ساعدت النبي في تذليل الصعاب. وإزالة العقبات من طريق دعوته. كما كانت خير زوجة. وأوفى شريكة حياة وجهاد، وأوّل من آمن بنبوّة محمد وصدّقها » (١١٩) ...

وهل يقول الحريري، في كتابه، غير هذا الكلام حتى يتّهمه السيد هاشم في مطلع هذا النصّ، بأنّه « حمّل موضوع زواج محمد من خديجة أكثر ممّا يستحقّ ؟ » . أو ينعته أيضاً ويقول عنه بأنّه « خاصم الصدق وماشى البهتان » (١١٨) ؟

وأيضاً، وفيما الحريري يدلّ على اكتفاء محمد بخديجة كزوجة وحيدة له، بسبب ما أمّنت له من عاطفة وحنان ومال وجمال ...، على ما تقول كتب السير، يقوم السيد هاشم ليقول الكلام نفسه : « وماذا ينشد (محمد) من زواج آخر أكثر ممّا أمّنته له خديجة ؟ » (١١٩). ولكن بعد أن يكيل للحريري أكيالاً من التهم « والهذيان » ...

وأيضاً. وفيما الحريري ينبّه على أهميّة وجود القس ورقة ودوره في حفل الزواج، يقوم السيد هاشم ليقول الكلام نفسه : « الثابت إن ورقة حضر هذا الحفل فقط لكونه ابن عم خديجة، وأكبر المسنّين في عائلتهما، والعادات تفرض أن يتصدّر مثل هذه المناسبات كبار السنّ في العائلتين » (١١٩). ولكن استحقّ الحريري على كلامه صفة « السخيف والمبتذل ».

وأيضاً، يقول السيد هاشم : « لقد أمضى (الحريري) الساعات الطوال، وهو يدفعنا باتّجاه الإقناع بأنّ زواج محمّد من خديجة ما كان إلاّ نتيجة مخطط ربّاني. وقعة إلهيّة، قدر مرسوم. جزء من خطّة رسمها القس ... » (١٢١). ويكمّل : « وفجأة .. نراه (الحريري) يغيّر ويبدّل فيقول : لن ندرك الآن مقصد القس في ذلك (الزواج)! لعلّه يريد الاهتمام باليتيم محمّد ... أو يريد خليفة له من بعده ... أو يريد قائداً على قريش ... » .

ثمّ يستنتج السيد هاشم من هذا الكلام الحريري تناقضاً، فيقول : « أي تناقض فاضح! في كل الصفحات ظلّ (الحريري) يعاند ويكابر .. فما باله الآن ينقلب على نفسه ويلحس توقيعه ؟ » (١٢١).

نقول للسيد هاشم : أين هو التناقض الفاضح في هذا الكلام[(١)] ! الحريري يقول بوضوح : إنّ القس ورقة دبّر زواج محمّد من خديجة، لأمر ما. هذا الأمر أعلنه الحريري مراراً، وأصبح معروفاً. ولئن لم يعلنه الآن إلاّ بصورة سؤال فهذا لا يعني تنكّراً لما أعلنه سابقاً. وعلى السيد هاشم ألاّ يضطرب ويشكك بما أعلنه الحريري وظلّ يعلنه في طول الكتاب وعرضه. و « التناقض الفاضح » ، الذي يتهّم به الحريري، غير موجود. ويخشى أن يكون في نيّته تضليل القارئ! وهذا أيضاً « أمر مدبّر » ، قد يكون أخطر ممّا دبّره القسّ!

ثمّ .. وفيما الحريري يتساءل عن نيّة القسّ في زواج محمّد. ويقدّم ثلاثة احتمالات .. يروح السيد هاشم فيختار احتمالاً واحداً لينقضّ به على الحريري، ويجد فيه تناقضاً فاضحاً. « حتى الزواج لم يعد القرار المخطّط، ولا الوقعة الإلهية، ولا القدر المرسوم، بل أصبح له دافع آخر، أصبح شفقة على فقير ... » (١٢٢).

يرى السيد هاشم هنا أيضاً « تناقضاً فاضحاً » . وما زلنا نجدّ ونجهد النفس

---

(١) كلام الحريري الذي ينقله السيد هاشم متّهماً إيّاه بالتناقض هو هذا : « ولن ندرك الآن مقصد القس في ذلك : لعلّه، وهو الابيوني المذهب، يريد الاهتمام باليتيم والفقير محمد؟! أو لعلّه، وهو قسّ مكّة، يريد أن يعدّ له خليفة ؟ أو يدبّر قائداً وسيداً يخلفه على قريش ؟! » .

لنجد هذا التناقض في أقوال الحريري، ولكن دون جدوى. يضاف إلى ذلك أسلوب « البتـــر » الذي يمارسه السيد هاشم.

وأخيراً يختم السيد هاشم فصل « زواج النبي » بهذا الكلام : « أصـــبحنا نعـــرف أنّ الحريري المقنّع متيّم بالصراعات الكلاميّة. ويبدو أنّ « الوقعة الإلهية » من أحبّها إلى نفسه » (١٢٣). هكذا ينتهي كلام السيد هاشم في هذا الفصل فجأة.

ولئلا ينتهي كلامنا الآن فجأة نقول للقارئ : كل المعلومات والأوصاف والمميـــزات التي أضفاها السيد هاشم على زواج النبي هي نفسها أضفاها الحريري. مع فارق واحد هو أنّ السيد هاشم رأى في كلام الحريري تناقضاً. فاتّهام الحريري بذلك هو أسلوب ماهر في التأثير على القارئ. ولن يكون لنا عند القارئ حجّة إلاّ الرجوع إلى ما قيل في فصل زواج النبي في كتاب « قس ونبي » .

* * *

مثل آخر من « منطق الردّ » الإسلامي نأخذه من موضوع أمّية النبي. من المعلـــوم عند الحريري أنّ لفظة « أمّية » لا تعني جهلاً بالقراءة والكتابة، بل تعني من ليس له كتـــاب منزل. فليراجع ذلك في كتـــاب قسّ ونبيّ (صفحة ٤٦ ـــ ٥١)[٢] . أمّا السيد هاشم فيقـــول: « معجزة أمّية النبي المؤكّدة لسماوية القرآن وقدسيّة تعاليمه .. عليها يركّـــز (الحريـــري) معوله الهدّام وقلمه الخبيث » (١٢٥). ويستنتج من الآيات القرآنية التي يعتمد عليها الحريري بأنّ « الأميين هنا العرب المشركون الذين لا يجيدون قراءة ولا كتابة. فهم وأهل الكتاب سواء مدعوون إلى الإسلام » (١٢٨).

ولكن، وفيما السيد هاشم يؤكّد ذلك يعود ليقول : « أمّا غير اليهود ويسمّونهم الأمّيين وكانوا يعنون بهم العرب. وهم في الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود »

---

(٢) نجد القرآن يوازي باستمرار بين الكتابيين والأميين. يقول مثلاً : « قل للذين **أوتوا الكتاب والأمّيّين** أأسلمتم ؟ » (٣ / ٢٠). ويقول : « ومنهم **أميّون** لا يعلمون **الكتاب** إلاّ أمانيّ » (٢ / ٧٨). وأيضاً: « هو الذي بعث في **الأمّيين** رسولاً (٦٢ / ٢). وأيضاً : « وقالوا (**أهل الكتاب**) : ليس علينا في الأمّيّين سبيل » (٣ / ٧٥) ... فالأمّي، إذن، يعني في القرآن : مَن ليس له كتاب منزل ...

(١٢٨ ــ ١٢٩). وهو أيضاً يعتمد على السيّد قطب والطبرسي (الأوّل سنّي والثاني شيعي) فيقول : « قيل إن العرب سمّوا بالأميين لأنهم لا يقرأون ولا يكتبون ... وربّما سمّوا كــذلك كما كان اليهود يقولون أمميّون نسبة الأمم ... وحكمة الله اقتضت أن يكون هذا النبــي مــن العرب، من الأميين غير اليهود » (١٢٩).

يلاحظ القارئ المعاني المتضاربة والمتناقضة عند السيد هاشم. ففي أقوالــه بتتــا لا نعرف إن كان الأميّون هم الجهّال أم غير اليهود! فالمعنيان نجدهما في كلامــه. ومــع هــذا التضارب نراه يستنتج : « هذه هي الآيات التي تحدّثت عن كلمة « أمّي وأميــين » . وقــد فسّرها أئمة اللغة العارفون بها بمعنى : عدم القراءة والكتابة (١٣٠) ... نودّ تــذكير الســيد هاشم بكلام الشهرستاني في الملل والنحل ١ / ٢٠٨ يقول : « أهل الكتاب يذهبون مذهب بني إسرائيل، والأمّيون يذهبون مذهب بني اسماعيل » .

هذا الموضوع، في « أمّية النبي » لم يحسمه السيد هاشم سوى في عنــوان الفصــل حيث يقول : « أمّية الرسول حقيقة، وهذه براهين عليها » (١٢٤). أمّا في متن هذا الفصــل فلا نرى سوى تهشيم بالحريري وتناقض في المواقف. وحتى الاستشهادات من أئمــة اللغــة والتفسير لم تكن كلّها في صالح نظريّته. ومع هذا يريد التــأثير على القارئ بما يستعمل من « منطق في الردّ » نعجز عن اللحاق به.

خامساً ــ من يخترع الأحاديث ؟

مرّة أخرى نودّ الاحتكام إلى القارئ، قد لا يعجزه الحكم الذي يعوزنا كثيراً في مغالبة منطق لم نعتده. ننقل عن السيد هاشم هذا الكلام الغنيّ بكل شيء، يقول : « عندما يعوز صاحب قسّ ونبي الدليل والبرهان نراه يلجأ إلى أسلوب رخيص، فيخترع أحاديث ينسبها إلى مؤرّخ ما بصفة المجهول، ومنها قول كرّره عشرات المرّات في كتابه، نسبه إلى السيّدة عائشة، هو : « لم ينشب ورقة أن توفّي وفتر الوحي » (١١٣).

وفي ردّنا نقول أوّلاً : إذا كان من مرجع أكيدٍ، صحيحٍ، مُسندٍ، معتَمدٍ عليه للأحاديث النبويّة عند المسلمين فهو كتاب « صحيح البخاري » . فالبخاري (+ ٢٥٦ هـ) يروى عنه أنّه قال : « خرّجت كتابَ الصحيح من زهاء ٦٠٠ ألف حديث في ١٦ سنة. وما وضعتُ فيه حديثاً الاّ اغتسلتُ وصلّيتُ ركعتين » . ويروي أيضاً قوله : « كتبت عن ١٠٨٠ رجلاً ليس فيهم إلاّ صاحب حديث. كلّهم يقول : الإيمان قول وعمل » . ويقول المسلمون « صحيحه أصحّ كتب السنّة » .

فإذا كان هذا مقام البخاري في « المحدّثين » فكيف يجوز للسيد هاشم أن يتّهم الحريري بأنّه يعتمد على « مؤرّخ مجهول »! وكيف يقول إنّه حديث « نسب إلى عائشة »!؟ اللهمّ إلاّ إذا كان السيّد شريف محمّد هاشم من جماعة « الشيعة » . ونحن نعرف نظرة الشيعة للبخاري والسيّدة عائشة. وكم حاول السيد هاشم أن يخفي، في كتابه، هويّته الطائفيّة، إلاّ أنّه كشفها هنا بطريقة استفزازيّة ضد قطبين من أقطاب السنّة : السيّدة عائشة، أحبّ نساء النبيّ إلى قلبه، ومرجع أساسي

في الأحاديث عنه، والبخاري الذي قضى حياته في جمع الأحاديث النبوية الصحيحة.

بعد هذا التوضيح، هل يعقل أنّ يتّهم السيد هاشم الحريري بالتزوير ؟ وهل هذا « أسلوب رخيص » ؟ وهل هذا « اختراع » منه! وهل السيدة عائشة تقول الحديث زوراً ؟ وهل البخاري مؤرّخ « مجهول » ؟ وهل هو ينقل عن السيدة عائشة بدون سند ؟!

المهمّ، بعد كل هذا، أنّنا نعود لنؤكّد للقارئ صحّة الحديث النبويّ، لو شعر السيد هاشم الشيعي ببعض الانزعاج. هذا الحديث تراه في صحيح البخاري، في باب الوحي، في أوّل الكتاب الأوّل. وتراه مبتوراً عند الشيخ صبحي الصالح ليدل على أن القسّ، عندما تعرّف عليه النبيّ، كان قد أصبح عاجزاً أعمى. وقد كان للحريري من هذا البتر موقفاً في كتابه، صفحة ٦٥ ــ ٦٦ .

* * *

ثمّة دليل آخر على اختراع السيد هاشم في « منطق الردّ » العجيب. يأخذ السيد هاشم على الحريري هذا التناقض : يقول الحريري : « إن ورقة تولّى إعلان نبوّة محمّد على العرب » . ثم يعود الحريري ليقول : « من أين للقس أن يعلن محمّد نبياً ؟ » . على هذا الكلام يعلّق السيد هاشم : « من قرأ من المسلمين قوله، ليس بغير الرثاء قابل هذيانه .. فالحريري هو، وليس سواه، من زعم بأنّ ورقة قد تنطح لهذه المهمة » (٤٤٣ ــ ٤٤٤)، أي مهمّة التنبّؤ على مستقبل محمد.

نسأل السيّد هاشم هذا السؤال الواضح : هل الحريري هو الذي تولّى إعلان نبوّة القس ورقة ؟ أم الحريري يستنتج نبوّة القس من كتب السير والتاريخ والأحاديث النبويّة ؟ أينسى السيد هاشم ذهاب السيدة خديجة إلى القس ورقة، أكثر من مرّة، لتستشيره بما كان يحدث لبعلها، ثم تعود لتطَمئن زوجَها بما كانت تسمع! وكم مرّة كان القس يقول : « قدوس قدوس .. لئن صدقتِ يا خديجة ..

فإنّ محمّداً لنبي هذه الأمّة » (انظر ذلك كلّه في قس ونبي، (ص ٥٢ ــ ٦١). فمن يعلن نبوّة محمّد إذاً ؟ الحريري ؟ أم كتّاب السير ؟

وكانت نتيجة هذا « المنطق » أن صبّ السيد هاشم على الحريري لعنات التاريخ والأجيال، وراح يصفه « مزوّراً للحقائق، مزيّفاً للوقائع، باذراً الفتنة، محرِّضاً على الفرقة والشرّ » (٤٤٤).

* * *

مثل آخر : يقول السيد هاشم عن الحريري بأنّه يتّهم النبي بعلم الغيب. يقول : « نرى الحريري المزعوم، برعونةٍ مبتذلةٍ، يسمحُ لنفسه أن يوزّع شهاداتِ معرفة علمِ الغيب على الرهبان والقسيسين بسخاء غريب » (٤٤٧ ــ ٤٤٨)، وذلك بعدما وزّعها على النبي نفسه... وكان ردّ السيد هاشم بآيات من القرآن تنفي عن النبي معرفة الغيب ..

نجيب السيد هاشم، كما أجبناه سابقاً، يا صاح! ليس هو الحريري الذي يوزّع علوم الغيب على النبيّ وعلى الرهبان والأحبار والقسيسين.. بل هي كتب السير والأخبار والأحاديث التي تستفيض بذلك. والحريري يستنتج ولا يقرّر، ينقل ولا يؤلّف أو يخترع. وإذا أراد القارئ التأكد ممّا نقول فليرجع إلى مئات الصفحات في كتب السير النبوية التي تجعل على لسان النبات والجماد والملوك والنجوم والأحبار .. تنبّؤات عن مجيء نبيّ اسمه أحمد.

الفصل الثالث

النبيّ النصرانيّ

أوّلاً ــ نصرانيّة مكّة

ثانياً ــ الحنيفية

ثالثاً ــ إبيونيّة مكّة

[Plank Page]

عندما عالج الحريري موضوع « نصرانيّة مكّة » . و « إبيونيّة ورقة » ، والمنـــاخ النصراني العام في أسرة عبد المطلب وفي قبيلة قريش ... حاول الإشارة، ولو من بعيد، إلى نصرانيّة النبيّ محمّد، ربيب قسّ مكّة، وزوج ابنة عمّه خديجة، ونديم الأحبـــار والرهبـــان، وصديق ملكيْ الحبشة ومصر النصرانييْن ... فما كتبه الحريري بخفر عن هـــذا الموضـــوع الدقيق، كان قد أزعج السيد شريف هاشم في الصميم، فما أدرانا يصير به اليوم، بعدما استزدنا من المراجع في هذا المجال !!!

ولا يضطرب السيد هاشم إن قلنا للقارئ بأنّنا سنستزيد دليلاً على « نصرانيّة النبيّ » ممّا قاله السيّد هاشم نفسه، وممّا فلتَ من تحت قلمه، وممّا استشهد به في كتابـــه، ظانّـــاً أنّـــه يغالبنا بما استند إليه، في حين أنّنا نرى حجّة إضافيّة تفيد طرحنا. وقد لا يغرب عـــن البـــال بعض ما نجده في كتب إسلاميّة حديثة أخرى تفيد مقولتنا أيضاً.

وقد تجرّنا أهميّة « نصرانيّة النبيّ » إلى بعض التوضيح. بل إلى التأكيد مجدّداً بـــأنّ الإسلام يعني المسيحيين لأنّه من إرث النصرانيّة المشرقية. ويدور تأكيدنا هذا إلى القول بأنّ النصرانيّة كانت في مكة، والنصرانيّة هي الحنيفية، والإسلام هو الاثنتان معاً، وأهم ما بـــرز في نصرانية مكة من شيع كانت الشيعة الإبيونيّة، والقسّ ورقة كان زعيمها. فليتصبّر الســـيد هاشم على هذا الكلام، وليقل معنا بأن الإسلام والنبي والقرآن لهم في التاريخ جذور ومصادر، ولو تزحزحت بذلك معتقداتٌ راسخة!!

أوّلا ــ نصرانيّة مكّة

ينكر السيد هاشم على الحريري قوله بوجودٍ نصراني كبير في مكّة : « فإنّ الحريري، بحسب السيد هاشم، يحاول مستميتاً أن يضخّم الوجود النصراني في صفوف قريش خاصة، وفي مكة عامّة » (٦٣). وغاية الحريري، في رأي السيد هاشم، واضحة : « تنصير أجداد النبي وأهله وعشيرته، ومن ثمّ الانقضاض عليه نفسه » (٦٧) ... ورغم هذا يعود السيد هاشم ليقرّ بوجود نصرانيّ في مكة، ولكن بحجم محدود : « إنّ ما نريد قوله هنا لا يعني رفضاً لوجود نصراني بحجمه الحقيقي في مكة، ولكن ما نرفضه هو تضخيم وتوريم هذا الوجود » (٧٧).

إذا جمعنا كلام السيد هاشم بعضه إلى بعض نراه لا يخلو من غرابة :

أوّلا، يجب أن نشير إلى أنّ الحريري كان يقول بأنّ لنا على الوجود النصراني في مكة « إشارة » ، ولم يقل « دليلاً » . وهذه « الإشارة » لم تكن تصريحاً ولا إثباتاً؛ بل بقيت في مجال الظنّ والتخمين، إلى أن تجود علينا علوم الآثار بالحقائق والوقائع. فغير الآثار واكتشاف الخرائب لا يفيدنا حجّة.

ثانياً، إنّ السيد هاشم هو الذي يصرّح ويقرّ ويثبت ويدلّ على وجود نصراني فاعل في مكّة. وقد خدمنا في ذلك من حيث لا يدري. قال : « .. كان في مكة جيل من الشباب قد بدأ يشرئبّ بأعناقه متطلّعاً بعين حائرة متسائلة إلى ما يحيط به من أصنام ووثنية ... لقد بدا واضحاً أنّ رياحاً فكرية جديدة هبّت على عقول أولئك الشباب، وأنّ مفاهيم جديدة مختلفة يحملونها في أذهانهم لا تلتقي أبداً ومفاهيم الوثنية السائدة، اكتسبوها من جرّاء أسفارهم التجارية إلى الشام أو العراق، واحتكاكهم هناك ببعض الرهبان الذين كانوا قد زرعوا أنفسهم في أديرة

ــ مصائد ــ كان لا بد لكل آتٍ من الشام أو راجع منها أن يمرّ بها لبعض الوقت، يقضيه بضيافتهم في جوّ من التعبئة النفسية والتثقيف النصراني، أو من جرّاء قراءتهم الكتب ومطالعتهم لها، ممّا مكّنهم من الاطلاع على بعض مبادئ النصرانية أو اليهودية أو على شيء من كليهما ... » (٣٦).

نقول : إنّ الحريري لم يتجرّأ على مثل هذا الإثبات للنصرانيّة في مكة وفاعليتها. لقد خدم السيد هاشم الحريري خدمة جلّى، وكرهاً منه. فهو، هنا، يقول قولاً يرتدّ عليه ... ومع هذا فإنّ الحريري لا يمكنه الاعتماد على أقاويل السيد هاشم، حتى ولو كانت تخدمه. والسبب أنّنا لا نرى مرجعاً لكلام السيد هاشم، غير مرجع حديث، من الدكتور جواد علي الذي يقول : « أثّرت الأديرة تأثيراً مهمّاً في تعريف تجّار العرب والأعراب بالنصرانيّة » . ويضيف السيد هاشم على ما قال جواد علي : « ولا يسعنا إلاّ الاعتراف بأنّه كان للرهبان فضل كبير بتحويل أولئك الشباب عن عبادة الأصنام إلى عبادة قوّة أخرى » (٣٦).

ومع هذا، يبدو أنّ كل ما قاله السيّد هاشم بنفسه لم يكفه ليستدلّ على وجود نصراني في مكّة. بل عكس ذلك تماماً، فهو يستدل على ضعف النصرانيّة في مكة بالبراهين التالية :

أوّلا ــ « استمرار الوثنية في مكة قوية منيعة، بدليل استشراس أهلها في الدفاع عنها بالأرواح والأموال عند ظهور الإسلام » (٧٣).

لقد عالج الحريري هذه النقطة بتوسع في كتابه « نبيّ الرحمة وقرآن المسلمين » الذي يلي كتاب « قس ونبيّ » في سلسلة الحقيقة الصعبة. ومختصر ما قال : إنّ قريشاً اضطهدت النبيّ، لا بسبب الدفاع عن آلهتها ووثنيتها، كما يقول السيد هاشم ومعظم المسلمين، ولا بسبب دعوة محمّد إلى دين جديد وإله جديد .. بل بسبب دعوة محمّد إلى إصلاح مجتمع مكة المنهار اجتماعيّاً. أهل قريش، حفظاً لمركزهم التجاري الواسع، عُرفوا بتساهلهم الديني الواسع، وببعدهم عن التعصّب الديني، وميلهم إلى السلم والهدوء وتجنّب الحروب ... لقد كان لهم في كعبتهم رموزٌ لجميع الأديان المعروفة في وقتهم، وقبلوا في مجتمعهم مختلف أصناف

العبادات والصلوات والكتب والصور والتماثيل الدينية. فهم، إذاً، لم يضطهدوا محمّداً، بسبب ما يدعو إليه من دين، بل بسبب ما يقوم به من ثورة على مترفي مكّة وأثريائها، أي بسبب إصلاح وضع اجتماعي فاسد، ناتج عن مجتمع تجاري، يأكل قويُّه ضعيفَه.

ثانياً ــ ثمّة سبب ثان لضعف النصرانية في مكّة، كما يقول السيد هاشم، وهو « بقاء العادات الهمجية، التي لا يقرّها دين ولا عقل، سائدة ومعمول بها (الوأد، السطو، الثأر، الغزو، القتل، السبي) » (٧٤).

نقول للسيد هاشم : إنّ هذه العادات القبلية، والبدوية، كانت قبل النصرانية وبقيت بعدها، كما كانت قبل الإسلام وبقيت بعده، وحتى اليوم. هذه العادات الاجتماعيّة البدائيّة لا علاقة لها، ببقائها أو بزوالها، بالدين، لا بالنصرانية ولا بالإسلام. وبقاؤها في مكة لا يعني عدم وجود النصرانية، كما يتصوّر السيد هاشم. كما أنّ بقاءها اليوم في مكة وفي حواضر العالم الإسلامي لا يعني أنّ الإسلام هو الذي يحفظها ويحافظ عليها ...

ثالثاً ــ ويقول السيد هاشم أيضاً : « لم يتحدّث أهل الأخبار عن أماكن في مكة، أو عن قرى في محيطها محسوبة على النصرانية، كما كان الحال بالنسبة لليهود أمثال خيبر وسواها » (٧٤).

نقول : لماذا يريد السيد هاشم أن يتعيّن أمكنة خاصة بالنصارى في مكة ؟! فهل هو يعرف أمكنة تعيّن فيها وجود وثني ؟ أو يهودي ؟ أو مجوسي ؟ أو رومي ؟ أو حبشي ؟ وما أشبه! ... وأهمّ من ذلك كله : ماذا يقول السيد هاشم عن « غار حراء » ! أهو مكان نصراني، حيث تحنّث فيه وتعبّد عبد المطلب والقس ورقة ومحمّد وزيد بن نفيل وغيرهم الكثير من قريش، ممّن اعتكف وصام وصلى وقرأ الكتب وسهر الليالي ... على ما جاء في كتب السير والتاريخ. ثمّ ماذا يقول السيد هاشم عن الكعبة نفسها ؟ قد لا نخوض في بحثها الآن، ولكن نحيل القارئ والسيد هاشم إلى كتاب « قس ونبيّ » في طبعته الجديدة، صفحة

١٤٥ ــ ١٤٧، حيث يجد أدلّة على أن الكعبة والحجر الأسود هما من بقايا آثار نصرانية.

رابعاً ــ يقول السيد هاشم أخيراً : « لم يتحدّث أهل الأخبار عن أي نفوذ سياسي أو اجتماعي مارسه نصارى مكة، بحيث ظلّ تأثيرهم في الأحداث محدوداً حتى ظهور الإسلام » (٧٤).

نجيب بأنّ السيد هاشم نفسه عدّد شخصيّات نصرانيّة، أو حنيفيّة بارزة، في الصفحتين ٤٨ ــ ٤٩ من كتابه. وهم، على جهلنا وبعد الزمان عنّا، بلغوا، معه، ١٩ اسماً. وهذا ليس بالقليل ... ومع هذا، نريد أن نشير إلى دور عثمان بن الحويرث، ابن عمّ السيدة خديجة والقسّ ورقة، الذي أراد انتزاع الملك في مكة، وهو، على شهادات الجميع، نصرانيّ، عاش نصرانيّاً، ومات على النصرانيّة. ساعده على ذلك قيصر الروم. تماماً كما كان حال « قصيّ » ، مؤسّس قريش، وملك مكّة، والجد الخامس للنبي. قصيّ هذا، هو أيضاً، طلب مساعدة الروم، بواسطة قبيلة بني عذرة الغسانيّة، قبيلة أمّه المتنفّذة ... ولا يجب أن ينسى السيد هاشم قول القرآن حيث بعض النصارى كانوا يُمْلون الآيات على النبيّ (سورة النحل ١٦ / ١٠٣).

* * *

ومع هذا يستنتج السيد هاشم. بعد هذه الوقائع، بـ« أنّه كان في مكة وجود نصراني هشّ مبعثر محصور ... » (٧٤). ويتساءل عن سبب ضعف هذا الوجود، فيردّه إلى ما « عُرف عن الديانة النصرانيّة من تعقيدات فلسفية نظرية جدلية يصعب على البدوي فهمها أو استيعابها » (٧٤) ...

وجوابنا على السيد هاشم، بأنّ الإسلام أيضاً، مع ما فيه من مفاهيم للإنزال والوحي، وبأن القرآن هو كلام الله، وبأنّ النبوّة ختمت بمحمّد، وبأنّ محمّداً ملأ الدنيا معجزات، وبأنّ الله موصوف معروف بما وصفه به القرآن وعرّف به ... الخ. كل هذه وغيرها، هي أيضاً معقّدة بالنسبة إلى البدوي.

وجوابنا الأهمّ على السيّد هاشم الذي يحصر الوجود النصرانيّ في مكّة إلى المدى الذي يريده ويرتاح إليه، جوابنا هو من السيد هاشم نفسه. فهو يقول ويؤكّد بأنّ النصارى في الجزيرة العربية وفي مكّة، كانوا في عزّهم وأوج مجدهم، « ورهبانهم يعسكرون على طرق مواصلاتها » ، و « أنّ الصراع الذي يغطّي منطقة الشرق الأوسط برمّته يومذاك كان صراعاً طوائفياً مسيحياً محموماً » (٨٠).

وهل يريد الحريري من السيد هاشم أكثر ممّا قاله ؟! ليته يتجنّب المتناقضات قليلاً حتى نعرف كيف نتصرّف معه!

* * *

لن نترك هذا الفصل في الكلام على مكة النصرانيّة دون الوقوف على ما جاء به مفتي الجمهورية اللبنانيّة، في كتابه المشار إليه، « **موقف الإسلام من ... النصرانيّة** » . يقول سماحته :

« وقد ثبت أنّه كان في مكة العديد من العبيد والأرّقاء، وأنّ عامّتهم كانوا على النصرانيّة، وأنّهم كانوا ذوي كفاءة وبراعة في العلم والمعرفة والصناعة، وأنّهم كانوا أرباب خبرة عريضة في الحياة ومداخلها ومخارجها، وأنّ أسيادهم كانوا يعتمدون عليهم، إلى حد بعيد، في تصريف شؤونهم المعاشية ... » (موقف ...، ٥٣٥) ... وفي مكان آخر يقول : « يلفت النظر إلى أنّ أهل الكتاب هؤلاء كانوا في مكة في وفرة عددية » (٥٥١).

ويقول أيضاً : « ولقد كان لمكة من هؤلاء النصارى المهجّرين نصيب، فكان منهم فيها رقيق وموالي يقومون بخدمة ساداتهم. وكان منهم الأبيض والأسود، وكان من هؤلاء من آتاه الله نصيباً جيّداً من الفهم والمعرفة والقراءة والكتابة، فكانوا يقومون بالأعمال التي تحتاج إلى خبرة ومهارة وذكاء. ومنهم من كان يقصّ على أسياده ما حفظه ورواه من أخبار الماضين من الأمم الغابرة ... وكان من هؤلاء سلمان ويسار أو جبر أو بلعام، وهو الذي نسب إليه أهل مكّة تعليم الرسول

(سورة النحل ١٠٣) ... وكان منهم نسطاس مولى صفوان بن أميّة، ويوحنا عبد صـــهيب، حتى وصهيب نفسه ... » (٥١٥).

وأيضاً : « وكان بمكة غلام لعتبة ابن أبي ربيعة اسمه « عداس » كان عنـــده علـــم الكتاب » وانّ خديجة أرسلت إليه تسأله عن جبريل، فقال : قدوس قدوس! أنّى لهذه البلاد أن يُذكر فيها جبريل يا سيدة قريش! » (٥٣٣).

وأيضاً : « وكان من الجواري عدد كبير من مختلف الجنسيات، من اليونان من أصل أوروبّي، أو رومي، أو من الشام، أو من أقباط مصر، يضاف إلى هؤلاء وأولئك الأحـــابيش ومنهم العديد من النصارى. وقد ذكر بعض المؤرّخين أن بعض الرهبان والشمامسة قد وفدوا على مكة أيضاً، فكان منهم من يقوم بالتطبيب ... » (٥١٦).

ثم يحدّد سماحة المفتي، تماماً كما فعل الحريري، مع الفرق بـــأنّ الحريـــري يـــذكر المراجع التي اعتمد عليها، في حين أنّ المفتي يخبر عنها وكأنّها من المسلّمات. يقول سماحة المفتي : « ولقد انتشرت النصرانية في بعض القبائل العربية العريقة، فكـــان فـــي ربيعـــة، وغسّان، وقسم من قضاعة، وطيء، ومذحج، وبهراء، وتنّوخ، ولخم... وقريش... وكما دخل في النصرانيّة كثير من ملوك الغساسنة. فقد أشار أهل الأخبار إلى تنصّر بعض ملوك الحيرة، ونسبوا إليهم بناء الأديرة... » (٥١٤).

وأخيراً، نختم كلامنا عن ذاك الوجود النصراني الواسع في مكّة. بما قاله سماحة مفتي المسلمين. قال : « ومهما يكن من أمر فقد كان للنصارى وللنصرانية وجود في مكّة المكرّمة، قبل مبعث الرسول وبعده. غير أنّ وجودهما كان وجوداً طارئاً ودخيلاً، وليس وجوداً عريقـــاً وأصيلاً. وكان للنبيّ بهما لقاء. وكان له معهما احتكاك قبل البعثة. ولكنّه لم يؤت على ذكـــره بشكل مرموق، لأنّه كما يبدو لم يكن ذا بال، ولا على مستوى الأهميّة اللافتة للنظر » .

« وكان للرسول والمسلمين صلة ولقاءات بعد البعثة بالنصارى، الوافدين على

مكة والمقيمين فيها. وكان من آثار هذه الصلة واللقاءات دخول بعضهم في جماعة المسلمين واعتناقهم لمبادئ الإسلام، وجهادهم في سبيله ... كما كان من آثار ذلك الآيات المتنوّعة والعديدة التي أفاضها الوحي الشريف على قلب الرسول في عيسى وأمّه عليهما السلام، وفي ولادتها، وفي ولادته الخارقة بالذات، وما رافق الولادتين من مظاهر الرعاية والتكريم والإعجاز » .

« وكانت مكّة بالإجمال مسرحاً شهد حوار المشركين مع النصارى في عقائدهم، وحوار المسلمين مع النصارى في عقائدهم أيضاً. وكان الحوار بين هؤلاء وأولئك، وبين المسلمين والنصارى على الخصوص في مظلّة من المنطق الهادف الهادئ والفكر الواعي والحاني، والقاصد للخير، والقلب المنفتح المتطلّع للحق وللحقيقة، والباحث عن الضياء في عتمة الليل الجاهلي إليهم ... » .

« ولم تشهد هذه الفترة، على الرغم من أنّه قد نزل فيها آيات بيّنات كثيرات في عيسى وأمّه عليهما السلام، وفي الإنجيل وأهل الكتاب عامة، لم تشهد من النصارى أي تعصّب أو انفعال، ولا أي تزمّت أو انفجار، أو أي موقف حانق متهوّر خطير ... » (٥٥٥ ــ ٥٥٦).

* * *

ويسبق موقفي السيد هاشم ومفتي الجمهورية اللبنانية، موقف شيخ الإسلام ابن تيمية الذي اختصر كل شيء بقوله : « إِنّ مِنَ العرب مِن النصارى مَن لا يُحصي عددَه إلا الله تعالى »[١] .

* * *

لقد استفضنا في الكلام وفي نقل الشهادات من أصحابها، وذلك لأسباب :

أوّلاً : للتأكيد على الوجود النصراني الكبير والفاعل في مكة. وهذا قد استفدنا فيه حتى من الذين لا يعجبهم ذلك.

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح ١٠ / ٢٠٦.

ثانياً : لإظهار تناقض بيّن في كلام السيد هاشم، إذ هو يمدّد الوجود النصرانيّ حيناً، ويحسره حيناً آخر، تبعاً لمسار الكلام.

ثالثاً : لم يكن كلام سماحة المفتي طارئاً على البحث، بقدر ما هو دليل رسمي، من رجل رسمي، بكلام موزون، وبأسلوب رصين ... فكل هذا يصبّ في مصلحة القس ورقة والنبي محمّد والحريري معاً.

ثانياً ــ الحنيفيّة

لا يقل موضوع الحنيفية في مكّة أهميّةً عن موضوع النصرانيّة. وليس على الحريري أن يعيد الآن ما كتبه في فصل « الحنيفية والنصرانيّة والإسلام » (ص ١٠٦ ــ ١٠٩). بل يهمّه توضيح أمرين : الأوّل التشديد على أهميّة معالجة الحنيفيّة ومفهومها الحقيقي؛ والثـــاني إظهار تناقض في منطق الردّ عند السيد هاشم.

سمعنا السيد هاشم، قبل قليل، يحدّثنا عن رهبان الأديرة ــ المصائد ــ على طريــق الشام التجارية، وعن دورهم الفعّال في تنصير أبناء قريش التجّار ... (انظر ٣٦)، ولكنّه لم يعرّفنا على حقيقة دين هؤلاء الرهبان. كيف هو ؟ أهو نصراني ؟ ويقول ذلك! أو حنيفـــي ؟ ويقول ذلك أيضاً! كما سترى بعد قليل. ومع هذا الاضطراب في تعيين هويّة الرهبان لا يزال السيد هاشم يصرّ على أنّ الحنيفية غيــر النصرانيّة، وذلك لأنّ النصرانية، على مـــا يقــول « معقّدة بجدليتها وفلسفتها فأبعدت الكثيرين عنها؛ بينما الحنيفية هي دين ابـــراهيم الفطـــري البسيط البعيد عن التعقيد الفلسفي » (٣٧).

يهمّ السيد هاشم أن يصل إلى هذه النتيجة، أن يقول بأنّ القس ورقة كـــان حنيفيّـــاً لا نصرانيّاً. ودليله أنّ الأحناف لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ... ولكن، وبعد قليل، يعود ليجمـــع بين الحنيفية والنصرانيّة. يقول : « مهما يكن من أمر فالأرجح أنّ المبادئ الحنيفيّة التي فهمها أو طبّقها حنفاء مكّة، على قلّتهم، كان مزيجاً من بعض التعاليم النصرانيّة التي عرفها الحنفاء من اتّصالهم بالنصارى فأخذوا عنها طرح عبادة الأصنام والوثنيـــة، ومـــن بعــض التعـــاليم اليهودية التي أخذوا عنها وحدانيّة الله وعدم الشرك به ... » (٤٣).

نريد أن نسأل السيد هاشم : وماذا بقي للحنيفية إذاً ؟ كيف كانت الحنيفية، قبل اتّصالها باليهودية والنصرانية ؟ وما كانت عقيدتها لو لم تأخذ عن النصرانيّة ما أخذته من طرح عبادة الأصنام والوثنية، وعن اليهودية ما أخذته من وحدانية الله وعدم الشرك به ؟ ... فالقرآن نفسه يشهد على أن ابراهيم، أب المؤمنين، كان، قبل اليهودية والنصرانية وتأثيرهما، حنيفاً مسلماً، أي رافضاً الشرك وعبادة الأصنام ... فما بال السيد هاشم يهشّم القرآن!!!

ثم ماذا يريد الحريري أكثر من القول بأنّ « الحنيفية كانت مزيجاً من التعاليم النصرانية والتعاليم اليهوديّة » ؟ إنّها خدمة للحريري لا تقدّر، يسديها السيد هاشم وهو يرفض وينكر. ولو كان السيد هاشم أكثر منطقاً لأستنتج من كلامه بأنّ الحنيفية، في ما أخذت عن النصرانية واليهودية، من تعاليم أساسية وجوهرية ــ بمعنى أنّه لولا هذه التعاليم لما كانت شيئاً ــ بأنّ الحنيفية هي النصرانيّة واليهودية معاً. أو هي : اليهودية المتنصرة. أو هي : النصرانيّة.

وفيما السيّد هاشم يدافع مستميتاً عن استقلالية كل من النصرانية والحنيفية بعضهما عن بعض، يقع أيضاً وأيضاً في « المزج » بينهما. فهو يسمّي شخصيّات عديدة، تارة هي، بنظره، نصرانية، وطوراً هي حنيفية. يقول : « من بين الأحناف (وكان يمكنه أن يقول من بين النصارى) أسماء وشخصيات معروفة : ١ ــ عبد الله بن جحش (ابن عمّة النبي) بدأ حنيفياً. ثم نصرانيّاً، ثم أسلم، ثم عاد إلى النصرانية في الحبشة، ومات عليها. ٢ و٣ ــ عدي بن زياد العبادي وأرباب ابن رئاب الأسدي، ماتا على النصرانية (والسيد هاشم يقول في مطلع كلامه بأنّ هؤلاء « من بين الأحناف »). ٤ و٥ ــ الحميري الأبرصي وزهير بن أبي سلمى. مشكوك بأمرهما. (ويريد أن يقول: هما إما على النصرانية وإما على الحنيفية). ٦ ــ قس بن ساعدة الأيادي، اختُلف فيه، فمنهم من جعله نصرانيّاً... ومنهم من أماته على الحنيفية. ٧ ــ زيد بن عمرو بن نفيل، بدأ حنيفياً متشدّداً، ومات لا على النصرانية ولا على اليهودية. ٨ ــ عثمان بن الحويرث،

مات نصرانيّاً على مذهب الروم (فيما هو « من بين الأحناف » بحسب كلام السيد هاشم) (٤٨ ــ ٥٠).

أمّا ورقة بن نوفل، الشخصيّة التي تهمّ الحريري. فالسيد هاشم لا يقطع بديانته، أهي نصرانية أم حنيفية ؟ فبالنسبة إليه، وبحسب قوله : « إن ورقة لم يكن شخصية مؤثّرة ...، إنّ ورقة كان شخصية انطوائية هامشية ...، إنّ ورقة لم يذكره أحد من أهل الأخبار والمستشرقين إلا بكلمات قليلة عابرة ... فيما كتبوا عن رفاقه الأحناف، مثل قس بن ساعدة، وزيد بن نفيل، وأمية بن الصلت، صفحات وصفحات، وفي أدق التفاصيل » (٥٤).

منطق غريب حقّاً. بل هو منطق ردّة فعل يتجنّى به على التاريخ. وليس على السيد هاشم إلاّ أن يعود إلى سيرة ابن هشام، وكتب التاريخ، وما فيها من أخبار عن تنقّل السيدة خديجة بين زوجها والقس ورقة لتهدّئ روع النبيّ بما كانت تستجديه من نصائح من القسّ ابن عمّها. ولكن ما يهمّ السيد هاشم هنا هو إبعاد القس ورقة عن حياة محمّد، وإخفاؤه نائياً عن الأنظار لكي تسهل عليه عمليّة إبراز النبي واستقلاليته.

ومع جهل السيد هاشم للقس ورقة، واعتباره « شخصية انطوائية هامشية، غير مؤثّرة » ، نراه يعرف، ويؤكّد، تلك التقلّبات النفسانيّة والروحانيّة عند القس ورقة. فهو يقول عنه : « بدأ ورقة بن نوفل حنيفيّاً وانتهى نصرانيّاً » (٥٥). ومن هذا التأكيد، ينتقل السيد هاشم إلى تأكيد آخر أشمل، يقول : « لقد كانت الحنيفية جسراً عبر منها (القس ورقة) إلى النصرانية » (٥٥).

وللمرّة الألف نقول للسيد هاشم : وهل يريد الحريري أكثر من ذلك ؟ أو هل كان الحريري يبحث عن غير ذلك ؟ لقد وجد ضالّته في أقوال خصمه.

ومع هذا يعود السيد هاشم إلى الفصل التامّ بين الحنيفية والنصرانية، ويقول : « إنّ جميع المصادر التاريخية التي تحدّثت عن الحنيفية لم تخلط بينها وبين النصرانية، كما لم تعتبر أنّ المؤمنين بالحنيفية يمكن اعتبارهم نصارى » (٧٨).

ويكمّل : « وهذا واقع في أحاديث أهل الأخبار، وفي القرآن الكريم، وفي المصادر الشـــعرية الجاهلية والإسلامية، وفي آراء معظم المستشرقين » (٧٨).

هذا « الخلط » أو « المزج » ، بحسب تعبير السيد هاشم، قد أكده السيد هاشم مراراً. فلن نعود لنضيع معه بين مثبت ومنكر، في معرض الردّ وردّة الفعل ومنطق الردّ هذا. لكنّنـــا سنبيّن أيضاً وأيضاً مزجاً من نوع آخر، هو الآن مزج بين الحنيفية والإسلام. يقول :

« إنّ أكثر الذين عُرفوا بهذه الخلفية من الزهد، والانقطاع عـــن النـــاس، والتأمـــل، وسواها، هم الحنفاء. وممارسة النبي لهذه المسلكية كانت، على الأغلب، بتأثير الحنيفية عليه، التي كانت تشغل أفكاره، وتثير إعجابه » (١٤٢).

وقبل هذا الكلام، كان السيد هاشم يقول : « قد يكون لأهل الأخبار المسلمين حقهم في الدفاع عن الحنيفية لتلاقيها والإسلام في أمور دينية كثيرة... وإن الإسلام اعتبر نفســـه ديـــن ابراهيم الحنيف ... » (٤٧).

ونردّد القول : إن الحريري لا يريد أكثر من ذلك أو غير ذلك. لقد تجمّعت الآن عنده، ومن أقوال خصمه نفسه، كل ما هو به إليه حاجة. لقد وصل الحريري إلى تأكيـــد نظريتـــه، وإلى ما كتب تحت عنوان « الحنيفية والنصرانية والإسلام » . وكان قد خلص فيه إلى هـــذه النتيجة : « الحنيف إذاً هو المسلم كما هو النصراني، والنصرانية والحنيفية والإسلام ثلاثـــة أسماء لمسمّى واحد » (قس ونبي، ص ١٠٩).

وقبل أن نختم يلاحظ القارئ رضى السيد هاشم على المستشرقين في عدم خلطهم بين الحنيفية والنصرانية، لكأنّه نسي، على ما يبدو، ما قال ســـابقاً : « قـــد يكـــون للمستشـــرق المتعصّب أسبابه ودوافعه في محاولته ربط الحنيفية بالنصرانيّة» (٤٧).

* * *

وأخيراً ما عسانا نقول، بعد هذه المعركة من الأخذ والردّ، والخلط والفصل، والتـــردد والتناقض، والإنكار والإثبات ... نقول شيئاً واحداً لا غير : لم نجد في ما قاله الســـيد هاشـــم برهاناً على شيء، ولم يستند إلى أي مصدر، ولم يُحِلْنا إلى مرجع، ولم يكن مستقيم المنطـــق والرأي ... لقد أفادنا، مقابل ذلك، كثيراً ممّا قال. ولكن، والحق يقال، لا يمكننا، مع إفادته لنا، الاعتماد على ما قال.

ثالثاً ــ إبيونيّة مكّة

عندما يريد الباحث الكلام على قضايا دينية أو فكرية أو عقائدية، طُمِسَتْ في خفايا التاريخ. فإنّه يستنجد، عوضاً عن الأدلّة الحسيّة والمنطقيّة الدامغة، بأدلّة قد يستنبطها من أحداث تشير من قريب أو بعيد إلى صحّة ما يبحث عنه. ولكن، تبقى هذه الإشارات في مستوى الاستدلال والتخمين، أكثر منه في مستوى الحجّة والبرهان.

يطبّق هذا الكلام على هويّة نصارى مكّة : على أيّ معتقد كانوا ؟ إلى أيّة شيعة نصرانيّة انتموا ؟ من أين أتوا ؟ من يمثّلهم ؟ ما هي عشائرهم وقبائلهم ؟ مع من كان لهم صلات وعلاقات ؟ أين نرى آثارهم ؟ كيف انقرضوا ؟ ... وغير ذلك من أسئلة يجب أن نطرحها لمعرفة شيء عن نصارى مكّة وهويّتهم الدينية.

وإن لم يكن أحد من المؤرّخين المسلمين الأوائل تناول هذا الموضوع المهمّ جدّاً، أو لم يكن أحد منهم يهمّه هذا الأمر... وذلك لألف سبب وسبب... فإنّنا نحن اليوم، لا نستطيع جهل ذلك أو تجاهله. فطرح السؤال واجب. والجواب عليه واجب. وليتفضّل كل باحث ويخوض هذا الغمر العظيم. والحق يقال، يوم تتأكّد لنا مصادر القرآن والإسلام وعلاقتها بالنصرانيّة الإبيونيّة، نكون حصلنا على نتيجة علمية مثيرة قد تقلب وجه التاريخ الإسلامي والديني.

الحريري، مع قلّة من الباحثين، طرح السؤال، وحاول الإجابة عليه، بأدلّة، ليست هي عنده إلاّ استدلالات وإشارات. وقد توصّل إلى القول : بأنّ في مجتمع مكّة النصراني، شيعاً عديدة، أشار إليها القرآن في أمكنة كثيرة، وأثبتها

كتاب قسّ ونبيّ... ودليل الحريري على كثرة هذه الشيع يأخذه من معتقدات وتعاليم وممارسات وشعائر نرى لها أثراً واضحاً في القرآن. ثم إنّ ذلك غير مستبعد أبداً أن تكون شيع نصرانيّة عديدة في مجتمع مكّة الكوسموبوليتي، ذي النزعة التجارية والعلائقية الواسعة... وقد وقف الحريري مطوّلاً في كتابيه : « قس ونبيّ » و « نبيّ الرحمة وقرآن المسلمين » ، على غنى مجتمع مكّة. من جهة تنوّع السكّان، كما من جهة تنوّع المعتقدات والتعاليم. وكانت الإبيونيّة، من بين ما كان من الشيع النصرانيّة، ذات التأثير الأوسع والأكبر في نشأة الإسلام. ولم ينكر الحريري، مع هذا، تأثير شيع نصرانيّة أخرى. فاقتضى التنويه.

أمّا السيد شريف محمد هاشم، المسلم الغيور، والشيعي الانتماء، فلم يعرف عن الإبيونيّة وسائر الشيع النصرانيّة شيئاً، لا اسمها ولا تعاليمها، ولا وجودها ولا أثرها ... ويبدو أنّ ما عرفه عنها أخذه عن الحريري. وفي نفس الوقت يريد أن يصحّح معلومات الحريري في ما أخذه عنه. إنّه منطق الردّ عند السيد هاشم. وإلى القارئ المزيد منه :

يقرّر السيد هاشم أنّ هذه « البدعة الإبيونيّة مطرودة من مراكز القرار النصرانيّة المحيطة بمكّة من كل جانب » (٨٠). كما يتّهم « الحريري ومن هم وراءه بتدبير بدعة كيفما كان » (٨١).

هذا الكلام، إن دلّ على شيء، فعلى جهل مطبق بالتاريخ المسيحي المشرقي السابق للإسلام. وفوق هذا الجهل يبدي السيد هاشم حكمه، ويقول بوجود « خلاف جوهري بين الإبيونيّة والإسلام » (عنوان فصل، ص ٩٢ ــ ٩٧).

أمّا جهله المطبق بالإبيونيّة فنشير إليه في كلامه التالي. يقول : « والقليل المعروف عن هذه الجماعة يؤكّد أنّها حركة طوباوية روحيّة صرفة. قالت بنظريات فيها من الحلم والخيال أكثر ممّا فيها من الواقعيّة » (٩٤).

نقول : هذا حكم إنسان لم يقرأ مقالة واحدة عن الإبيونيّة في مراجعها الخاصّة، ولم يسمع باسمها إلاّ في كتاب « قس ونبي » الذي يهاجمه. ونيّة السيدات والسادة:

هاشم في جهله المحكم تكمن في عملية إبعاد الإبيونيّة عن الإســلام. فهــو، لــذلك، يصــفها بمميّزات بعيدة كل البعد عن الإسلام، فيتّهمها بالطوباوية والروحيّة، بل يقول : إنّها « تمثّــل أشد حالات التطرّف الطوباوي الروحاني في المسيحية » (٩٤). وذلك بالمقابل مع الإســلام الذي « امتاز بواقعيته ومساواته المنصفة بين الروح والمادة » (٩٥).

ويبالغ السيد هاشم في محاربة الإبيونيّة وإبعادها عن الإسلام حتى في ما به تلتقي مع الإسلام. يعرف السيد هاشم، والحمد لله، بأنّ أهمّ صفة تتميّز بها الإبيونيّة محاربتها الغنى في سبيل الاهتمام البالغ بالفقراء ... ولكن، لكي لا يكون لهذه الشيعة أيّة صلة بالإسلام، يــروح السيد هاشم ينكر على الإسلام هذه الفضيلة الأساسية فيه، ألا وهي الاهتمام باليتامى والمساكين وأبناء السبيل وما أشبه. لكأنّ صاحبنا نسي أنّ النبي لم يقم في بدء رسالته إلا بثورة عارمــة على « الملأ الأعلى » و « الأعزّة » و « المترفين » و « التجار » من أهل مكّــة (راجــع كتاب نبيّ الرحمة وقرآن المسلمين).

* * *

هذا الفصل « خلاف جوهري بين الإبيونيّة والإسلام » (٩٢ ــ ٩٧) هــو فصــل منفعل، بل فصل يدلّ على جهل تام عند المؤلّف. اقتضى التنويه والاعتذار.

الفصل الرابع

منهج المسلمين في مواجهة المسيحية

أولاً ــ موقف الحرب .. والدفاع عن الإسلام

ثانياً ــ قضيّتنا مع الإسلام لا مع المسيحية

ثالثاً ــ أيّ وفاق هو ؟ ومن يدعو إليه ؟

رابعاً ــ المصادر المسيحية

[Plank Page]

بمناسبة الردّ على أبو موسى الحريري، راح السيّد هاشم، مـن صـفحة ١٥٩ حتـى صفحة ٤٤٠، يستعرض المسيحية من بدايتها، ويعالج، على نور الإسلام والقرآن، عقائـدها، وكتبها، ووحيها، وسلوكها، وممارساتها.. كان له، بحسب قوله، « جولة في هيكـل الإيمـان المسيحي » (١٦١)، فأبدى رأيه وموقفه بإخلاص ووضوح بالتناقض الحاصل في الأناجيـل (٦٠١)، بألوهيّة المسيح (٢١٨)، بنظريات القديس بولس الذي، في زعمه، حرّف كل شـيء (٢٢٣). بالتثليث الذي جيء به من الوثنية (٣٤٣) ... إلى ما هنالك.

ويلوم السيد هاشم المسيحيين الذين يأخذون بهذه العقيدة أو تلك وهم « عاجزون عـن فهمها » (٢٤٥). ولومه أيضاً على « الديانة التي اختيرت فـي مـؤتمر » (٢٥٢)، أي فـي مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥م .. بل للسيد هاشم مآخذ على المسيحية في كـل شـيء، فـي الرهبنة، والزواج، والطلاق، والإرث، والمحلّلات والمحرّمات ... وهو، في مآخذه، صـدى صادق لجميع المسلمين الذين سبقوه وعالجوا أمور المسيحية وقضاياها.

وبسبب هذه المواقف الواضحة، والتي تتّفق تماماً وكمالاً مع مواقف سائر المسـلمين السابقين، نستطيع اعتبار كتاب السيد هاشم، « الإسلام والمسيحية في الميزان » ، « **حـدثاً** » في تاريخ الفكر الإسلامي، و « **موقفاً** » صريحاً للإسلام المعاصر .. فمن أجل ذلك يسـتحقّ السيّد هاشم منّا الشكر. لقد أكّد لنا، مرّة جديدة، وبطريقة حديثة، وبفكر معاصر، بأنّ ابن قـيّم الجوزيّة وابن تيميّة وسواهما من أئمّة الفكر في الإسـلام، لا يزالـون، فـي مـواقفهم مـن المسيحيّة، أحياءً يُرزقون.

أوّلاً ــ موقف الحرب ... والدفاع عن الإسلام

يبتدئ السيّد هاشم كتابه قائلاً : « من أوّل صفحة في مقدمة كتابه، أعلن الحريري حربه على الإسلام » (ص ١٥).. وفي كل صفحة تقريباً، يتّهم السيّد هاشم الحريري بأنّه يريد النيل من الإسلام، بل يريد « تقويض الإسلام » (عنوان فصل : « ما يبحث عنه حقيقة هو تقويض الإسلام ») (ص ١٤٤). ويبدو أنّ السيّد هاشم متيقّظ، متنبّه على نيّات الحريري ومقاصده الباطنية، فيفضحها، ويعلن بأنّ الحريري « يتسلّط على القرآن، ويدبّ سخطته وفجوره عليه » (ص ٤٥٥)، « كلّ ذلك بخطّة خبيثة مشبوهة مرسومة.. محشوّة بالأفكار الهدّامة والآراء المشكّكة » (ص ٨).

هذه « الخطّة » ، بحسب السيد هاشم، قام بها، قبل الحريري وبعده، اليهود، ثمّ المبشّرون من النصارى الأجانب، والحملات الصليبية، والأبواق المأجورة. يقول : « والذين تجنّدوا إلى هذه (الخطّة) هم اليهود، منذ النبي حتى اليوم، والمسيحيون في إرساليّاتهم الدينية، ومدارسهم التبشيرية، وبعثاتهم المأجورة للصهيونيّة، وثقافتهم المنتشرة » (ص ٨).

مثله قال سماحة الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء في مقدّمة كتابه: « إنّ أوروبّا.. أخذتْ دولُها وساستُها وقساوستُها يسلكون في ظلال السلم سبل الكيد والمكر ما أمكنهم الكيد والدّهاء لحبك المؤامرات وتأسيس الجمعيّات الهدّامة في الديار العربيّة والإسلامية باسم المدارس التعليمية والخدمات الإنسانيّة، وهي في الحقيقة مؤسسات تبشيرية في خدمة الاستعمار ... » (التوضيح، ص ١).

وإعلان الحريري « حربه » على النبيّ، بيّنه السيّد هاشم في جملة مواضع من

كتابه. فهو يشتلق على نيّات الحريري، و « من هم وراءه » ، ويظهرها بقولـــه : « هـــدفهم زرع بذرة الشك في الأذهان حول نبوّة محمّد وسماويّة القرآن وصـــدق التعـــاليم الإســـلاميّة برمّتها.. وهدفنا الدفاع عن الإسلام » (١٠ ــ ١١). والحرب التي يشنّها الحريري « فـــي محاولته المحمومة لتحطيم معجزات النبي ورفض نبوّته » (١٤٤) قد تنقلب عليه يوم يقـــرّر السيّد هاشم « جولته في هيكل الإيمان المسيحي » (١٦١).

فتجاه هذه الحرب الحريرية على النبيّ انبرى السيّد هاشم مدافعاً. وقـــد تكـــون نبـــوّة الرسول بحاجة إلى الدفاع عنها أكثر من سواها. قال : « الواضح.. إنّ نبوّة محمّـــد، كانـــت مثار أخذٍ وردٍّ وجدلٍ وتساؤلٍ ورفضٍ وقبول أكثر من أيّة دعوى أخرى. ولأنّها كذلك. فهـــي أكثر من غيرها من الدعوات حاجةً لمن يُدافِع عنها ويقف إلى جانبها » (ص ١٦١ ــ ١٦٢).

وبالنتيجة، يمكننا أن نقول بأنّ كتاب السيّد هاشم، كلّه، من أوّله حتى آخـــره، وكأنّـــه كتاب دفاع عن الإسلام والنبيّ القرآن، ولكأنّ الحريري، « ومن هم وراءه » ، يطاردون النبي ويلاحقونه في كل المجالات .. وما قيامة السيّد هاشم على المسيحية وتعاليمها إلاّ مـــن بـــاب الدفاع هذا. غير أنّ دفاعه جاء حرباً شعواء على قيم المسيحية كلّها.. وفي ظنّه أنّه منتصـــر في حربه الدفاعية، كما في حربه الشعوائيّة. وذلك لأنّه توفّق في نقل المعركة إلـــى خـــارج أرض الإسلام.

ولكن، لنا على هذا الموقف ملاحظات :

الأولى : لقد كان على السيّد هاشم أن يقول بأنّ الحريري بيّن فرقـــاً، وعـــالج بحثـــاً تاريخيّاً في الإسلام والنصرانيّة وعلاقتهما بعضهما ببعض. ولم يكن في وارد الحريـــري أن يشنَّ حرباً، أو يفتحَ معركةً، أو يسعدَ في « تقويض الإسلام » ، كما يردّد السيد المذكور. ليت القارئ يدرك مقصود الحريري في كتابه « قس ونبيّ » ! والذي يُختصر بما يلي : للقـــرآن مصدر في التاريخ، علينا أن نبحث عنه. وراء النبيّ شخصيّة فذّة أثّرت فيه، علينا أن نعطيها دورها. ووراء الإسلام شيعة « يهوديّة ــ متنصّرة » اسمها الإبيونيّة أبقت تعاليمها وتركـــت طابعها فيه .. غيرُ ذلك لم

يكن في همّ الحريري أو في نيّته أن يقوم به. وليت السيّد هاشم يساعدنا على البحث في مقصدنا العلمي هذا.

يرى السيّد هاشم « حرباً » حيث لا حرب، ويريد عن الإسلام « دفاعاً » حيث لا أحد يهجم عليه. ويسرّ في وضع الحريري، « ومن هم وراءه » ، موضع الخصام والعداوة للإسلام وتعاليمه، في الوقت الذي يتمنّى فيه الحريري أن يقوم السيّد هاشم والحريري معاً، ببحث تاريخي، لاهوتي، علمي، موضوعي، هادئ رصين؛ بحثٍ لا يؤذي مسلماً، ولا يَطعن بإنسان، ولا يَلعن نبيّاً سرَّهُ نقلُ الكلام عن جبريل.

والملاحظة الثانية : هناك أمر واضح جدّاً يسعى إليه الحريري؛ إن جُهل بات عملُ الحريري بدون فائدة، وهو أنّ الحريري معنيّ بالإسلام والقرآن ومحمد أكثر من السيّد هاشم نفسه. وسبب ذلك أنّ الحريري وَجَد ويَجد الإسلامَ والقرآن ومحمّداً يؤلّفون مرحلة مهمّة جدّاً من تراث الكنيسة النصرانيّة الحنيفيّة الإبيونيّة العربيّة المشرقيّة. وهم بالفعل كذلك، أزعجَ الأمرُ السيّد هاشم أم أرضاه. فأين هي الحرب التي يُتّهم الحريري بشنّها إذاً!؟ أليس العكس هو الصحيح ؟! أليس السيّد هاشم نفسه، « ومن هم معه وقبله وبعده ووراءه وقدّامه » ، هم الذين يشنّون الحرب بما يقولون، وبالأسلوب الذي به يكتبون، وبالمواقف التي فيها يتمترسون، وبالتهديد الذي يعلنون إستناداً إلى حديث نبويّ شريف يستنجد به السيّد هاشم في مطلع كتابه، يقول : « من رأى منكم اعوجاجاً **فليقوّمه بيده**، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه. وهذا أضعف الإيمان .. » (ص ١٠)[١] .

الملاحظة الأخيرة : لا نخال الحريري مصاباً بمصيبة الإسلام، كما يصوّره السيّد هاشم، بل ربما، بمصيبة الذين حيّدوا الإسلام عن مساره التاريخي الصحيح. ونخشى أن يبقى السيّد هاشم مصرّاً على قوله من أنّ « مصيبةَ

---

(١) في صحيح مسلم : « من رأى منكم أمراً منكراً فليغيّره بيده ... » ١ / ٦٩، ٧٨.

(الحريري) وأمثاله بوجود الإسلام في العالم اليوم. هذا الإسلام الذي ينغّص عليه، وعلى من هم وراءه، عيشهم وحياتهم » (٢٢).

قد يصحّ كلام السيّد هاشم، ربما، على غير باحث؛ أمّا الحريري فوجهته وتفكيره ورؤيته وأبحاثه تختلف تماماً وكمالاً، بالجملة والتفصيل. نكرّر ونقول ـــ وعذراً من التكرار ـــ : إن الإسلام، في مفهوم الحريري، يؤلّف جزءاً من تراث الكنيسة النصرانيّة. هذا يعني أنّ « مصيبة » الحريري هي في إصرار السيّد هاشم وأمثاله على أنّ وراء القرآن العربي « لوحاً محفوظاً » نزّله جبريل على محمد. و « مصيبتَه » أيضاً أن يبقى السيّد هاشم وأمثاله مصرّين على أن ليس وراء النبيّ إلاّ الله وجبريل .. « تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً » (سورة الإسراء ١٧ / ٤٣).

ثانياً ــ قضيّتنا مع الإسلام لا مع المسيحيّة

عند المسلمين عامة نزعة دائمة في دفاعهم عن الإسلام ضد المسيحيين تقوم على ردّ التهمة مباشرة على المسيحيّة. أي نقل المعركة ــ إذا كان ثمة مــن معركــة ــ مــن أرض الإسلام إلى أرض المسيحية. فأنت لا تستطيع أن تبدي في الإســلام رأيــاً، حتــى يفاجئــك المسلمون بآراء واتّهامات لا حدّ لها ضد المسيحية. تقول لهم : يدور حديثنا الآن حول الإسلام فقط، ولا شأن للمسيحية فيه. يردّون عليك، ويركّزون في ردّهم، لا على الدفاع عن الإســلام فحسب، بل بهجوم على المسيحية في كل قيمها ورموزها. قد تكون هذه سياسة ذكيّة يتّبعهــا المسلمون. وأذكى ما فيها أن المنطق يضيع في خضمّ من المواضيع يصعب معهــا التركيــز على أيّ واحد منها.

يقول السيد هاشم : « فما الفرق بين كون الإسلام مكمّلاً متمّماً للديانتين الســماويّتين اليهوديّة والمسيحيّة لا ناقِضاً لهما، وبين موقف عيسى عندما جعل تعاليمه ووصــاياه مكمّلــة متمّمة لليهودية لا ناقضة لها. فلمــاذا الأمر مُسْتَهْجَنٌ بالنسبة للإســلام، وطبيعــي بالنســبة للمسيحيّة ؟ » (٤٤٦).

ويسأل : أليس المسلمون « بأحسن حالاً، وأهدأ ضميراً وبالاً، ممّن لا يزالــون منــذ عشرين قرناً يتذابحون على طبيعة ربّهم، بعدما جزّأوه وجمعوه وصلبوه، ثم من بين الأموات أقاموه!؟ » (٤٦٠).

ويسأل أيضاً : « لماذا يجد الحريري في نصرة المسلمين لدينهم ونبيّهم ضد قوى الشرّ والفساد، أمراً فريداً مُسْتَهْجَناً، ولا يجدها كذلك بالنسبة للمسيحيين ؟ » (١٥٢).

ويردّد عجبه : « العجب، هو أن يكون عجيباً ومستغرباً أن يكون لنبوّة محمد دلالات وظواهر وشواهد وبراهين .. في وقت ليس مستغرباً ولا عجباً أن يكـون للمسـيح، وقبلـه موسى، الأكثر من المعجزات والظواهر .. أم أنّ الذي يجوز لنبيّ لا يجوز لنبيّ آخر ؟ ومـا هو مقبول وطبيعي لنبيّ مستغرَب ومُسْتَهْجَنٌ لنبي آخر ؟! » (١٥٥).

فوق هذا كله ينصح السيد هاشم جهابذة المسيحية بأن يعالجوا أمور ديـنهم ويتركـوا أمور الإسلام للمسلمين. وعليهم أيضاً أن يعالجوا أمورهم بطريقة مقبولـة أدبيـاً، لا « عـن طريق اختلاق عيوب يلصقونها فجوراً بالغير، فيما ينسون عوراتهم مكشوفة » (١٠٦).

ثم يطيح السيد هاشم بالرسل والتلاميذ والقديسـين جميعـاً. « بالجملـة والمفـرّق » (١٥٦)، فيخلط بطرس ببولس بحزقيال بالعهد القديم بإيليّا بالبابا غريغوريوس الكبير.. (١٥٢ ـ ١٥٨)، ممّا يدل على مدى علمه (؟) بالأمور المسيحية ...

* * *

وما كان حظّ « كاهن كنيسة » قبطية بأحسن حالاً من حظ أبو موسى الحريري. ذاك أيضاً وقع تحت قلم ابن الخطيب ومطرقته؛ بل جرّ « كاهن كنيسة » الويلَ على نفسه وعلـى مسيحه وعلى كل المعتقدات المسيحية. وهكذا يكون ابن الخطيب، كالسيد هاشم، نقل المعركة من أرض الإسلام إلى أرض المسيحية. فبعد تعظيمه، في مقدمة كتابه المذكور آنفاً، بـالنبيّ محمّد ومآتي الإسلام، ينتقل مباشرة، وفي المقدمة إيّاها، إلى تحطيم المسيح والمؤمنين به. قال ابن الخطيب :

زعم المسيحيون ألوهيّة عيسى، خزاهم الله، « سيجزون صنيعهم، ويبؤون بـذنبهم.. وعندئذ يعلم المبطلون، في أيّ زور يخوضون، وأي إثم يرتكبون.. هذا الذي يدّعون ألوهيته.. أمسكه أعداؤه، وهو الإله القادر، وأنزلوا به صنوفاً من التعذيب والتنكيل، فلم يدافع عنه أحـد من عباده، بل أسلموه لجلّاديه، فلم يكتفوا بتعذيبه، بل قتلوه شرّ قتلة. ولمّا قتل هلّـل متّبعـوه وكبّروا، واعتبروا صلبه

إحدى النعم التي اختصّوا بها .. وطاروا فرحاً بهذه العقيدة الفاسدة والنحلة الكاسدة! » (ص ٦).

ويضيف ابن الخطيب متعجّباً : « لقد عجبتُ كيف يمتطي كاهنٌ من كهّان المسيحية مثل هذا المركب الصعب الخشن ؟ فيزجّ بنفسه وبأبناء ملّته في جدل لا ينالهم منه إلاّ السوء والهوان والفضيحة! » (ص ٧). وهكذا كان، فقد قام ابن الخطيب، من بين المسلمين « تدفعه الغيرة والحميّة فيدافع عن الإسلام، ويحطّ من المسيحية، بالقدر الذي لا يستطيع أن يدفعه مسيحيّو أهل الأرض مجتمعين » (ص ١١).

ومع أن ابن الخطيب طمأننا في قوله : « لن أتعرّض بحال للعقائد التي يدين بها المسيحيون، كعقيدة الصلب ... وألوهيّة المسيح، أو بنوّته لله .. » (ص ١١)، فهو لا يوفّر، في القسم الأكبر من كتابه، عقيدة من العقائد المسيحية دون الطعن بها. مثل : اختلاف الأناجيل (٤٠). وضياع أصل التوراة والإنجيل (٤٢)، وتحريفهما (٤٣) والتناقض البيّن فيهما (٤٣)، و « أوامر الإنجيل بالفقر والعري والخصاء » (٤٥) و « أوّل ترجمة صحيحة للكتاب المقدس (٤٦) والصلب (٤٩)، والتثليث (٥١)، و « بطلان ألوهيّة المسيح عليه السلام » (٦٣)، و « أين الإنجيل » (٧٩) ... إلى ما هنالك من عناوين لكتابه تطعن مباشرة بالتعاليم المسيحية، فتنقل المعركة من أرض الإسلام إلى أرض المسيحية.

* * *

هكذا، وعلى هذه الطريقة، تدور كتب ـــ الردّ على المسيحيين الذين تحدّثهم نفسهم بمعالجة أمور الإسلام. أنّه منطق مرفوض جملةً وتفصيلاً. والحريري يربأ بأن يتحوّل الصراع إلى ما بين المسيح والقرآن، أو إلى ما بين الإنجيل ومحمد، أو أيضاً إلى ما بين المسيحية والإسلام. ليته يبقى بين الحريري والسيد هاشم، أو بين المصادر التي يعتمدها الحريري في كتابه ومفهوم السيد هاشم لها .. ففي هذا المجال نستطيع أن نعالج قضايانا بمنطق سديد، ونسير نحو الحقيقة الصعبة رويداً رويداً،

لا في مجال صراع الأديان والأنبياء. فهذا نتجنّبه لأنّه لا يؤدّي إلى الحقيقة، ولأنّنا نعجز عن الجريان في مسالكه.

وفي مثل هذا النوع من كتب ــ الردّ، يعجز الحريري ككل باحث أن يسير في حوار بنّاء بينه وبين السيّد هاشم وأمثاله. هذا الحوار، في مثل هذا الأسلوب، يتحوّل مباشــرة إلـــى صدام وصراع لا نهاية لهما. وكم احتدم النقاش في ندوات الحوار الإسلامي ــ المسيحي! وكم حضرنا منها وقد كانت « حوار طرشان » بكل ما للكلمة من معنى!

ثالثاً ــ أيّ وفاق هو ؟ ومن يدعو إليه ؟

لم يَدْعُ الحريري يوماً إلى الوفاق الديني العقائدي، بين المسيحية والإسلام. هذا الوفاق، في رأيه، لا يمكن أن يكون، احتراماً للمسيحية والإسلام معاً. والحريري يعلن موقفه هذا منذ الصفحة الأولى من كتابه، ويقول بالحرف الواحد : « لن تمرّ بالبال قط أيّة محاولة للتقارب بينهما. تلك المحاولة المستمرّة التي ضلّلت الحقيقة وعطّلت العقول. إنّها محاولة فاشلة وضالة ومضلّة، مع كونها تدعو إلى الوئام والإلفة والسلام .. » (قس ونبي، ص ٥) ... ومع هذا يصرّ السيّد هاشم على تهمة الحريري بقوله : « ولا ندري كيف يقبل المؤلّف (الحريري) أن يبحث بوفاق بين المسيحيّة والإسلام، في وقت يؤكّد فيه أنّ هذا الإسلام مزوّراً ومشوّهاً » (كذا) (ص ٢٣).

ويروح السيّد هاشم يبني نظريته على ما افترضه عند الحريري ليقول : « ثم كيف يمكن لهذا الإسلام المسكين، وهو يحمل كتاباً مزوّراً، غير معترف به، أن يقف قبالة إنجيلٍ سماوي، ليتحاورا ويتفاهما على قدم المساواة، قبل أن يسوّي هذا الإسلام أوضاعَه، ويستر عورته، ويكشف قرآنه المفقود ؟ » (ص ٢٣).

مرة جديدة نقول للسيد هاشم : إن الحريري لم يبحث، ولا يبحث، في الوفاق الديني العقائدي. هذه القيمة، بالقدر الذي يعمل لها الحريري على الصعيد الإنساني والوطني والسياسي بين المسلمين والمسيحيين، بالقدر نفسه يتجنّبها على الصعيد الديني .. همّ الحريري، الأوّل والأخير، أن يبحث في نشأة الإسلام، في مصادر القرآن، في من كان وراء الإسلام، وفي من كان قبل النبيّ. الحريري لا يريد وفاقاً ولا خلافاً، لا جدلاً ولا حواراً، لا إلفة ولا

خصاماً، لا حرباً ولا سلماً، لا صداقة ولا عداوة... يريد فقط البحث في التاريخ، يريد النظر في الإسلام على أنّه من إرث الكنيسة المشرقية...

لقد استعمل السيد هاشم أسلوب تهمة الحريري بالوفاق كثيراً وكثيراً جداً، حتى بتنا لا نعرف كيف نصحّح للقارئ ما اعوج عليه. ولا نزال نبحث ونسأل : كيف نصنع حتى لا يضيع القارئ بين التهمة وردّ التهمة، والحقيقة والتزوير وما يُتّهم بأنّه حقيقة وتزوير!!

هذه الظاهرة في عدم الوفاق بين المسيحية والإسلام، التي لم ترد ببال الحريري، لا نفياً ولا إثباتاً، قد صرّح بها السيد هاشم نفسه، لا الحريري. وقد لا يكون، بعد تصريحه هذا، لشدّة بلاغته، أيّ أمل بالعيش المشترك بين المسيحيين والمسلمين. وهاك ما صرّح : « كل شيء في المسيحية غريب وشاذ. كل أمر فيها معقّد. لا دور للوضوح فيها ولا مكان » (٣٦٧).

وليسمع القارئ هذا القول للسيد هاشم، ويحكم على إمكانيّة ذاك الوفاق الذي يدعو إليه. يقول : « كم كنّا نتمنّى لو أنّ القديس المتشدّد (بولس الرسول) يعود للحظةٍ واحدةٍ إلى الحياة الدنيا ليرى بأمّ عينيه ماذا فعل تشدّده اللامعقول بحال أتباعه، فيجدهم في مواخير الجسد والشهوات أفواجاً أفواجاً » (ص ٢٣٢).

وليسمع القارئ أيضاً قول السيّد هاشم في عقيدة الثالوث، وليحكم من أيّ باب يمكن للوفاق أن يدخل! قال : « التثليث، حيث رسى القارب المسيحي البائس بقيادة بولس.. هي أصل العقائد المحرّفة عند المسيحيين.. فلسفة التثليث عضو غريب أُدخل إلى جسد المسيحية المريض.. أوقعتِ العقل المسيحي في حيرة دائمة.. ولن يتخلّص المسيحيون من الحيرة والضياع والصراع مع ذاتهم والتخاصم مع عقولهم، إلاَّ إذا طُردت بدعة التثليث من ديانتهم » (٢٤٣ ــ ٢٥١).

* * *

هذه العيّنات الجريئة على المسيحية نجدها في كلام سماحة الشيخ حسن خالد مفتي الجمهورية اللبنانية. والمفتي، كما مرّ معنا، رصين، يعرف استعمال الأسلوب

المناسب. ومع هذا فهو لا يقلّ صراحة ووضوحاً عن السيّد هاشم. فهو يعلن بـأنّ « القـرآن الكريم يجزم بأنّ رسالة كلّ منهما (أي موسى وعيسى) قد انتهتْ برسـالة محمّـد » (ص ٧٢٢). ويقول أيضاً : « يسترسل القرآن الكريم في تتبّع أخطـاء النصـارى وضـلالاتهم العقدية، ويتصدّى لدعواتهم بنوّة عيسى لله وينفيها نفياً قاطعاً » (ص ٦٦٥).

ويكمّل المفتي بتعبير يتكرّر عنده كثيراً : « أجل يتصدّى الفـكر الإسـلامي لهـذه الدعوى » (٦٩٠). كمـا يتصدّى لعقيدة الثـالوث التي يحـاول المسيحيون تقريبهـا للعقل، « ولكنّهم، مع كل ما يبذلون، تبقى محاولاتهم مستعصية على العقل كل الاستعصاء، لأنها، في الحقيقة، شبيهة بمحاولة الجمع بين النقيضين » (٦٩٧). ويتصدّى الإسلام أيضاً للغطاس (أي المعمودية)، « ويرى أنّه من العجب أن يكون التغطيس في الماء كفـيلاً بـدخول الإنسـان النصرانية.. ويرفض الإسلام أن تكون هذه الممارسة.. مدخلاً أساسياً للإيمان بالله » (٧١٧). وكذلك « الاعتراف.. فانّه أيضاً غير مقبول في الإسلام » (٧١٧). و « الرهبانية أيضـاً لا يرضى بها الإسلام » (٧٢٥)، وكذلك الكهنوت والرتب الدينية « لا تأتلف مع النهج الإسلامي ولا مع فلسفته الاجتماعية » (٧٣٠) ...

* * *

ولنتذكّر أخيراً عناوين فصول كتاب سماحة الإمام العلامة محمد الحسين آل كاشـف الغطاء، وقد وردت في مقدمة هذا البحث... وكذلك نتذكّر ما كتبه ابن قيّم الجوزيّـة، وشـيخ الإسلام ابن تيمية، وابن الخطيب، والبلاغي، وسيّد قطب.. وغيرهم... فنعرف مدى جـدوى الدعوة إلى الوفاق والحوار...

إنّ كلاماً، مثل : الإسلام يتصدّى، الإسلام لا يرضى، ولا يقبل، والإسـلام يـرفض وينكر.. كلاماً كهذا كيف يكون معه حوار ووفاق! كيف يدعو السيد هاشم إلى الوفاق في مثل هذه المواقف وهذا المناخ! وكذلك المفتي خالد، كيف يدعو إلى الحوار ولم يبق في المسـيحية عقيدة واحدة إلاّ وأسقطها من غرباله.

أيكون الحريري إذن هو الداعي إلى التفرقة وشنّ الحروب والدّعوة إلى المعـــارك! أم الداعي إليها هو غير الحريري! على القارئ، هذه المرة أيضاً، أن يحمل عــبء الأحكـــام... ونخشى في ما نخشى أن يقوم السيّد هاشم من جديد ليتّهم الحريري، بعد هذا التوضيح، بإعلان الحرب والتفرقة بين المسيحيين والمسلمين. وإن صحّ ما نخشى منه، وسيصحّ حتماً، فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله!.

رابعاً ــ المصادر المسيحيّة

من الطبيعي أن يعتمد الحريري في كتابه على المصادر المسيحية الأساسيّة، التي تؤلّف تراث الكنيسة الفكري واللاهوتي. منها ما يتعلّق بتاريخ الكنيسة، ومقرّرات مجامعها، ومنها ما يتعلّق بالأناجيل القانونيّة والمحرّفة سواء بسواء، وبأباء الكنيسة ومؤلفاتهم العظيمة، وما يتعلّق أيضاً بالتقليد والتراث وتعدد الفرق والشيع... معظم هذا التراث يوجد في لغات أوروبيّة. والقليل القليل جداً يوجد في اللغة العربيّة.

وبسبب ندرة وجودها في اللغة العربيّة أنكرها السيّد هاشم، فكانت، كما الحريري، ضحيّة « علمه » . يقول عنها بأنّها « كتب بائدة » (٤٥٣). « كتب وهمية » (٤٥٣) « مصادر يتيمة » (٨٨). هذه « الكتب البائدة.. وهي كتب مفقودة، لا وجود لها بين يدي الناس ليُجرى التدقيق بها والتثبت من مضامينها » (٥٥٩).

وأيضاً، إنّ قِدَمَ هذه الكتب يجعلها، في رأي السيد هاشم، غير ذي فاعلية أو تأثير. هذا، مع العلم أنّ الحريري اعتمد عليها لكي يعالج بحثه، ولولاها لما تجرّأ على البحث، ولا على النتائج التي توصّل إليها. عنها يقول السيّد هاشم : والمعروف أنّ هذه الكتب قد ألّفها أصحابها منذ أكثر من سبعة عشر قرناً تقريباً. وهي من الكتب المفقودة منذ زمن بعيد، على الأقل في المكتبة اللبنانيّة، إنْ لم نقلْ العربيّة أيضاً (٨٨).

ببساطة نسأل السيّد هاشم : وهل على ما في المكتبة اللبنانية، أو العربيّة، يعتمد الحريري ليعالج موضوعاً هو من نشأة الإسلام، ومن تراث الكنيسة

النصرانيّة! أين كانت المكتبة اللبنانية، والمكتبة العربيّة، عندما بدأ الإسلام ؟ ونذهب إلى أبعد لنقول : وهل الكتب الإسلاميّة نفسها، بما فيها المصحف والحديث النبوي والتفاسير والسير.. بما فيها الأدب الجاهلي ومعلّقاته، وأدب صدر الإسلام، والأدب الأموي.. هل هذه كلّهــا، أو هل دوّن منها شيء قبل بداية العصر العباسي!؟

الحريري يعتمد على كتب سابقة للإسلام ليعالج نشأة الإسلام.

* * *

وتطبيقــاً لموقفه يروح السيّد هاشم يبدي رأيه في بعض مصـــادر الحريــري، مثــل « الإنجيل العبراني » ، وبعض آباء الكنيسة، ومار أفرام السرياني بنوع خاص.

يقول عن « الإنجيل العبراني » الذي كان بحوزة القس ورقة بن نوفل، والذي يعتبره الحريري مدخلاً إلى معرفة القرآن وفهمه، يقــول : هــذا الإنجيل « مفقــود » (٤٥٠)، أنّه « الضائع المغيّب » (٩، ٨٧، ٦٣٤)، « الضائع المزعوم » (٤٥٥)، « غير موجــود، ولا أثر له ولا أساس » (٦١٣)، « الإنجيل البائد » (٤٥٥)، « لم يبق منـــه ســوى الغــلاف » (٤٥٣، ٤٦٢). وفي عنوان لفصل كامل يقول : « وجــود الإنجيل العبراني ليس إلاّ وهمــاً زائفاً » (٤٥٠).

إن كان للحريري من جواب فهو في العودة إلى كتابه « قس ونبي » حيث يستعرض المراجع التاريخية حول هذا الإنجيل، والأبحاث العلمية. القديمة والحديثة، التي بيّنتْ بعض ما تبقّى من نصوصه، وبعض تعاليمه التي نرى لها في القرآن العربي أثراً.

* * *

أما عن بعض آباء الكنيسة الذين كانوا للحريري مصدراً مهمّاً في معرفة المناخ الديني الذي نشأ فيه الإسلام، أمثال اكليمنضوس الروماني، وايريناوس، وجيــروم، واوريجـــانوس، وأوسابيوس القيصري، وابّيفانوس، وافرام السرياني،

وغيرهم.. عنهم يقول السيد هاشم بأنّهم غير جديرين بتصديقهم، وبعضهم مهرطق، وبعضهم الآخر غير موجود، وآخرون مزيّفون.

يقول مثلاً عن أوريجانوس : « وحصيلة الأمر إنّ المهرطق أوريجانوس، في معرض ردّه على المهرطق سِلْسْ، تحدّث بشكل ما عن هرطقة، هي الإبيونيّة. فكيف لنا، والأمر يدور بين هرطقات ومهرطقين، أن نعتبر مصادر الحريري موضعَ ثقة واحترام ؟ » (٩٠). وفي الفصل إيّاه، يخلص السيّد هاشم إلى القول : « وهكذا أجاز المؤلّف لنفسه، أي الحريري، أن ينسب الدين الإسلامي إلى هرطقة، ذَكَرَ أحدُهم اسمَها في كتابٍ ما، وتحدّثَ عنها مهرطقٌ ما، بكلماتٍ عابرة منذ أكثر من ١٨ قرناً من الزمن » (٩٠).

نتصوّر الحريري عاجزاً عن الردّ والدفاع عن نفسه. ونأمل من القارئ أن لا يعجزه الردّ أيضاً. نقول : إن العجز ليس متأتٍ من عدم اللحاق بمنطق السيّد هاشم، بل من استعمال أسلوبٍ لا يؤذي السيّد هاشم حتى يبقى معنا في رحلتنا الممتعة. ومع هذا نقول : إن ما يعني الحريري من مؤلّفات أوريجانوس وغيره من آباء الكنيسة، لا صحة الحكم على هذه الهرطقة أو تلك، بل المعلومات التي نجدها عند هذا أو ذاك من آباء الكنيسة، عن هذه أو تلك من الهرطقات. يهمّ الحريري معلومات تقول بوجود « الإنجيل العبراني » ، و « الشيعة الأبيونيّة » ، وتعاليمها، مهرطقةً كانت أم لا؛ وبها نستدلّ على أنّها واردة في القرآن، بهذه الصورة أو بغيرها. وغير ذلك من صوابية الأحكام أو خطأها لا يعني الحريري، ولا أميال الحريري ورغباته.

ويأخذ السيّد هاشم على الحريري أيضاً بـ« أنّ المؤلّف (أي الحريري) لم يستعن في دعم مزاعمه بأيّة مصادر من أهل الأخبار المعروفين، عرباً أم مستشرقين، فاكتفى بما زعم وجوده في كتب لا وجود لها في زماننا الحالي؛ ممّا يدلّ أن الحديث عن هذه البدعة (الإبيونيّة) لم يرد في أيّة مصادر تاريخية معاصرة، وإلاّ لكان الحريري المزيّف قد نقبها واستشهد بها » (٨٨).

ويعود، بعد خمسمائة صفحة، إلى رأيه ويقول : « والملفت للنظر أنّه

(أي الحريري) لم يوردْ رأياً واحداً لأي باحث، أو مؤرّخ، أو ناقد، من حقبة التاريخ الجلي، أو المعاصر. ويتساءل الإنسان بدهشة، لماذا سكت جهابذة المسيحية طيلة ١٥ قرناً من الزمن، وبين أيديهم معلومات يملكونها لطعن الإسلام وفضحه، وهم المتلهفون دائماً وأبداً لمثـل هـذا الأمر مذ كان الإسلام، فانتظروا حتى جاد الزمان عليهم بحريري ليقوم بما قصّروا به وقعدوا عنه » (٥٦٠).

ماذا يقول الحريري للسيد هاشم حول هذا الكلام ؟ أحقاً هو مقتنع بما يقول حتى نـردّ عليه ؟ أحقاً يطلب من الحريري أن يستشهد بكتب حديثة الصـنع ؟ ثـم نسـأله : أيظـنّ أنّ الحريري يريد الطعن في الإسلام وفضحه ؟ وهل هو متلهّف لمثل هذا الأمر ؟!. العجـب أن يكون مثل هذا المنطق هو الذي نقرأه في كتاب السيد هاشم من أوله حتى آخره. ولنا أن نقول: إذا كان هذا هو اقتناع السيّد هاشم، فإنّه انتصر، لأنّ الحريري لا يريد أن يزحـزح إنسـاناً، كرهاً واغتصاباً، عن اقتناعاته، الأمل الكبير بالقارئ العزيز أن يحكم.

[Plank Page]

الفصل الخامس

العقيدة المسيحيّة في فهم المسلمين

أوّلاً ــ إنجيل عيسى

ثانياً ــ المسيح عيسى

ثالثاً ــ عقيدة التثليث

رابعاً ــ الروح القدس

خامساً ــ مريم أم عيسى

[Plank Page]

مرّة أخرى نسأل السيد شريف محمّد هاشم : ما شأن المسيحية في معالجة العلوم الإسلامية، وفي مناقشة كتاب الحريري ؟! ما دخل المسيحية هنا حتى تُفتح عليها نيران الحرب، وتتطاير شظاياها من عهد النبي حتى يومنا هذا ؟ وتمرّ، في المعارك المستعرة، العقائد المسيحية كلّها، من كبريات الحقائق اللاهوتيّة إلى صغريات الممارسات اليوميّة !!

وليت الصراع مرّ بدون ضحايا وحرائق ونبش قبور!! لقد طاب للسيد هاشم أن يستعرض أحداث البشريّة، ويتوقّف على صراعات الدول الأوروبيّة والأميركيّة وحروبها، ويقف على مسبّبات العنف والإرهاب والحروب الساخنة والباردة، ويتناول خلفيات الثورات والانقلابات في مختلف أنحاء العالم... فإذا هي، في رأيه، صراعات مسيحية، وقعت باسم المسيحية، وتستمرّ من أجل المسيحية.

يقول : « كل المجامع المسكونية فشلت... حتى بالترقيع » (عنوان فصل ٣٢٥)، « وانتهت بتجريد السيف، وقطع الأعناق، ودحرجة الرؤوس » ، وذلك « خدمة لله والمسيحيّة والمسيح » (٣٢٦) ... و « إلى جانب تلك المجامع المسكونيّة المتتالية، جرّدت الكنيسة مدعومةً من ملوكها سلاحاً آخراً (كذا) ... ذلك هو سلاح الحرمان من الدين. وهو أفظع أنواع الإرهاب الفكري » (٣٣٤).

ولم تكتف الكنيسة، في رأي السيد هاشم، بهذين السيفين المسلّطين، في تعاملها مع أبنائها، بل جرّدتْ سيفاً آخر أشدّ فتكاً؛ عبّر عنه السيد هاشم قائلاً :

الكنيسة « وفي جيدها سيف سحبته مرّة من غمده ولم يعد إليه. لقد جرّدتِ المسيحية في حربها مع ذاتها ومع الآخرين، سلاحاً أكثر رهبة، وأشدّ مضاء، وأفظع بطشاً، سلاحاً... بــه رؤوس تدحرجَتْ، وأرواحٌ زُهِقَتْ، وضحايا سقطتْ، إنّه سلاحُ محاكم التفتيش الرهيبة. وما أدراك ما محاكم التفتيش! ... إنّها حكاية السيف الثالث، حكاية الدم المهــراق، والضــحايا المتنــاثرة، والرؤوس المقطوعة... » (٣٤٢ ــ ٢٤٣).

وعزاء السيد هاشم، إنّ المسيحيين لم يستعملوا الذبح في رقاب المسلمين وحسب، بــل وفي رقاب بعضهم بعضاً. يقول : « وإذا كانت الصورة قاتمة بالنسبة للمسلمين الذين أصابهم من « العــدل المسيحي » بعض أحكامه « العــادلة » فأبيدوا عن بكرة أبيهــم، فعزاؤنــا أنّ « العدل » نفسه جرت « أحكامه العادلة » على بعض حملَة الصليب أنفسهم، فأبادوا بعضــهم بعضاً بصورة وحشية، لا تصدّق، ولا تعقل » (٣٥١).

وخلاصة ما يقول السيد هاشم : « هذا هو حال المسيحية وواقعها في القرن العشرين: استمرار في التفسخ، والتشرذم، والضياع. عشرون قرناً مرّت على ظهورها، والخلافــات لا زالت هي هي، والمشكلة المزمنة المستعصية، لا تتغيّر، ولا تتبدّل ... عشرون قرنــاً مــرّت والخلافات مستمرة، فنراهم وقد أصابهم اليأس، ودبّ فيهم القنوط، استسلموا إلــى واقعهــم، وكأنّه قدر محتوم، وقبلوا بتشرذمهم، وكأنّه المكتوب المفروض، فتوزّعوا كنائس وجماعات » (٣٨٠ ــ ٣٨١).

هذه كانت « مسيرة الدم المسيحية... فعذراً من القارئ الكريم إن كنّا قد أطلنا عليــه، يقول السيد هاشم، فما كان بودّنا، ولكن... لا أظننا إلاّ كنّا منصفين » (٤٢٧ و٤٢٩). « ولنا، بعد هذه المكاشفة الموضوعيّة،.. أن نسأل الحريري المزعوم : هل لا يزال عنــد قولــه ؟ » (٤٣٠).

* * *

هذا هو الجوّ الفكري الذي يضعنا فيه السيد هاشم، وهو يعالج العقائد المسيحية كلّها، بدءاً من معنى الوحي، وحقيقة الإنجيل، مروراً بألوهيّة المسيح، وعقيدة الثالوث، والروح القدس، ومريم العذراء، وحقائق الصليب والفداء... على أنّنا نترك للفصل التالي معالجة الممارسات المسيحية.

ولا يتمتّع السيد هاشم وحده « بكشف » أسرار المسيحية و « تدميرها » عن بكرة أبيها، فسماحة مفتي الجمهورية اللبنانية، والإمام الأكبر آل كاشف الغطاء، والعلاّمة الشيخ البلاغي، والأستاذ ابن الخطيب، والشيخ الإمام محمد أبو زهرة، والإمام العلاّمة ابن قيم الجوزية، وشيخ الإسلام ابن تيمية ... كلّهم تميّزوا، في عرضهم للعقيدة المسيحية، بتحطيمها وتكفيرها واتّخاذ الموقف الصريح منها.

وليتنبّه القارئ بأنّنا سنعرض، بدون أيّ تدخّل منّا، العقيدة المسيحية، كما يفهمها المسلمون أنفسهم، وبأسلوبهم إيّاه. وقد يكون لنا بعض الإشارات وذلك من أجل التوضيح فقط. كما قد نلجأ إلى نقل نصوصٍ طويلة، تسهيلاً للإحاطة بالموضوع، ولئلا يرجع القارئ إلى كتبها التي قد يتعذّر عليه الوصول إليها.

أوّلاً ــ إنجيل عيسى

في رأي المسلمين عامّة، بعد القرآن الكريم، أنّ لعيسى إنجيلاً واحداً، هـو الإنجيـل الحقيقي. أخفاه المسيحيون، أو ضيّعوه. واستعاضوا عنه بأناجيل أخرى كثيرة، كتب بعضَهـا بعضُ الذين عاشوا مع المسيح، وبعضَها الآخر كتبه الذين عاشوا مع رسل المسيح وتلاميذه. هذه الأناجيل هي، بنظر المسلمين، غيرُ موحاة، ولا تمتّ على عيسى بصـلة، ولا تصـحّ أن تكون مرجعاً لدين. وعلى المسيحية أن تتبرّأ منها، إن هي أرادت الانتماء إلى عيسى.

فإنجيل عيسى إذاً واحد لا غير. « فليت الحريري، على ما يقول السيد هاشم، تـذكّر لعرف أنّ من الطبيعي، بل من المفروض أن يقول القرآن بآحاديّـة الإنجيـل، لأنّ القـرآن والمسلمين والمؤمنين به لا يعترفون إلاّ بإنجيل واحدٍ، هو إنجيل النبي عيسى بن مريم، وهـو الإنجيل الذي كان يخاطبه القرآن ويعنيه.

« وليس ذنب القرآن والمسلمين إذا كان هذا الإنجيل قد ضاع في زحمـة الأناجيـل المتعددة المتضاربة المتناقضة التي ظلّت تتكاثر وتتزايد قرناً بعد قرن ... » (١٠٥).

وما بين أيدي المسيحيين اليوم، في رأي السيد هاشم، من توراةٍ وأناجيلَ وكتبٍ هـي أسفارٌ مشوّهة محرّفة متناقضة. وليس فيها إلاّ « بعض تعاليم التوراة والإنجيل، أو ما تبقّـى منهما، بعد مجزرة التشويه والتبديل التي حصلت بهما » (٥١٩).

مرجع السيد هاشم في ذلك بعض الكتبة المسلمين، أمثال عبد الكريم

الخطيب الذي قال : « إن الواقع والعرف لا يسمحان بأن يكون لعيسى أكثر من كتاب هو دستور رسالته » (١٠٥). ومحمّد الغزالي القائل : « بأي وجه من المنطق يؤخذ دين عيسى من ألسنة أعدائه بعد ضياع الصحائف الأولى التي أنزلت عليه » (١٠٦).

ثم يعلن السيد هاشم إيمانه : « إنّ المسلمين يؤمنون بأنّ النبي عيسى قد ترك للبشرية إنجيلاً سماويّاً، وأنّ أتباعه أضاعوه في زحمة أناجيلهم المتعددة، وأنّ أنصار التثليث قضوا قضاءً مبرماً على كل أثرٍ لهذا الإنجيل، بعدما أحلّوا محلّه نظرياتِ بولس. وعليه، فإنّنا نرى أنّ من العبث التفتيش عن إنجيل المسيحيّة الحقيقي، بعدما غاب إلى الأبد بغياب صاحبه.

« هذه حقيقة، لا جدال فيها ولا مواربة » (١٦٨)، يقول السيد هاشم.

والذي حصل من « ضياع الإنجيل الحقيقي » كثرةُ البدع والشيع في المسيحية، بل الاقتتالُ بين الكنائس التي تدعو إلى كتابها. فـ« إنّ البدع والمسيحية توأمان... وما كانت تلك البدع في المسيحية لتكون لو أنّ إنجيل عيسى الحقيقي كان موجوداً، فتسير المسيحية على هدية، وتستنير بنوره، فيصونها من الضياع، ويحفظها من التمزّق، ويصوّب نظرتها إلى أمور الكون والحياة » (٣٠٩).

وإذا كان « الإنجيل الحقيقي » قد ضاع، فذاك يعني أنّ الأناجيل المتّبعة اليوم لا تتمتّع لا بالوحي ولا بالعصمة. فكثير من « الكتب والأبحاث... أجمعتْ بأنّه. بات معها لا يجوز الادّعاء بعصمةِ هذه الأناجيل، أو ردِّها إلى الله كلاماً منزلاً، لا شكّ فيه ولا ريب... » .

« ومن أراد أن يستزيد معرفة لها، فما عليه إلاّ دخول النفق باحثاً مفتّشاً مدقّقاً، ليعود بعدها إمّا هارباً إلى أحضان الإسلام. كما فعل الكثير من المسيحيين، وإمّا ليقضي بقيّة عمره، في دوّامة الشك والحيرة والبلبال؛ وهو حال الكثرة منهم اليوم » (٢٠٦ ــ ٢١٧).

* * *

وموقف سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد كموقف القرآن والسيد هاشم. يقول بإنجيل واحد حقيقي، لا غير، هو إنجيل عيسى. ولا يمكن أن يكون أكثر من واحد، إذ لو كان أكثر لما كان وحياً معصوماً من الله : « هذا الإنجيل لا يمكن أن يكون أناجيل، ولا يمكن أن يكون أناجيل مختلفة اختلافاً عرضيّاً أحياناً وجوهريّاً أخرى... ولو كان كذلك لما صحّ أن يكون كتاباً واحداً، بل كتباً... ولما صحّ أن يكون من عند الله، لأنّ ما يكون من عند الله يستحيل أن يقع فيه الاختلاف والتضاد، وأن يأتيه الباطل... » (موقف... ص ٧١٣ ــ ٧١٤).

هذا ما يشهد له واقع النصارى مع أناجيلهم العديدة واختلافاتهم المتناقضة، علماً بأنّ « سيّدنا عيسى عليه السلام جاء، منذ ألفي سنة تقريباً، حاملاً معه كتابه الإنجيل » (٥٩٥). وعلى المسيحيين أن يجلّوا موقف القرآن الكريم الذي يعترف بإنجيلهم ويحترمه، وهو موقف عظيم، لا يسع النصارى المنصفين إلاّ أن يحترموه ويقدّروه وينتبهوا إلى ما فيه من الصدق والتجرّد في إداء الشهادة وبراءة الحكم » (٧١٣).

ولكن، وأسف المفتي الكبير، أنّ النصارى ضيّعوا إنجيلَ عيسى لغايةٍ في نفس يعقوب. والغاية هي إخفاء كلام عيسى على النبي العتيد محمد. يبدو ذلك إذ « يؤكد علماء المسلمين الأجلاّء أنّ وصف الرسول قد ورد في التوراة بصورة قاطعة لا تحمل الشك » (٦٣٢). وقد تأكّد أنّ الرسول ذُكِر أكثر من مرة أنّ وصفه واردٌ في كتب أهل الكتاب. والقرآن الكريم ثبّت ذلك في أكثر من موضع. فلو لم يكن واثقاً من صحة ذلك لما قاله على مسمع من أهل الكتاب الذين يرصدون أقواله وأفعاله ... » (٦٣٣ ــ ٦٣٤).

ومع هذا، بقي في الإنجيل ما بقي من إشارات هي « بشارات » بالنبي محمّد، ومن جملة هذه البشارات التي يعتمد عليها سماحة المفتي تعبير « ملكوت الله » الوارد في الأناجيل عشرات المرّات. هذا الملكوت الموعود هو محمّد نفسه. يقول : « والذي يؤكّده ويرجّح صحّته، قولُ عيسى والحواريين والسبعين معهم : « إنّ

ملكوت السماوات قد اقترب » ، وتعليم عيسى عليه السلام لأتباعه، بأن يقولوا في صلاتهم : « وليأتِ ملكوتك... » ، وهم لا يزالون يقولونه حتى هذا اليوم، الذي يدلّ بصراحةٍ وجزم على أنّ المدعو به كان مطلوباً في أيام عيسى رغم وجود عيسى وقيام دعوته به » .

« وبالفعل لقد جاء ملكوت الله بعد عيسى بظهورِ محمّد ودعوتِه وسلطانِه الذي حكم به الأرض... علماً بأنّ صيغة الدعاء أتت تحمل لفظ « ملكوت السماوات » ، ويستحيل أن يكون هذا الملكوت بصورة الضعف والمسكنة والخذلان (كما هو حال النصارى). بل يكون بصورة السلطنة والعلاء. وقد تحقّق ذلك على أيدي شريعة محمّد ورسالته » .

« ويزيد في إثبات هذا المفهوم وتعزيزه ما جاء على لسان عيسى في إنجيل متى أيضاً بعد أن ساق لهم مثلاً طويلاً : « لذلك أقول لكم : إنّ ملكوتَ الله يُنزع منكم ويُعطى لأمّةٍ تعمل ثماره... وهذا الذي كان على يدِ محمّد تكميلاً لرسالةِ مَن سبقه وإتماماً لها » (٦٣٦ ــ ٦٣٨).

ومن « البشارات » أيضاً ما ورد عند متى في مثل عمّال الكرم (٢٠ / ١ ــ ١٦) حيث « توجّه النظر إلى رسالة النبي محمّد وإلى شخصه بالذات، وانّهما المعنيّان » (٦٣٨ ــ ٦٣٩).

وأيضاً ممّا يؤكّد البشارات بالرسول محمّد ما جاء في إنجيل متى في مثل الكرّامين القتلة (٢١ / ٣٣ ــ ٤٦)، حيث يتبنّى سماحة المفتي تفسير الإمام محمّد رشيد رضا القائل بأنّ « الحجر الذي رفضه البنّاؤون » (متى ٢١ / ٤٤) كنايةً عن محمّد. و « الأمّة التي تعمل أثماره » (متى ٢١ / ٤٣) كنايةً عن أمّته (أي أمّة محمد). وهذا هو « الحجر الذي كل مَن سقط عليه ترضض، وكل من سقط هو عليه سحقه » ... ولا يصدق هذا الوصف في عيسى... وصدقه على محمّد غير محتاج إلى بيان، لأنّه كان مأموراً بتنبيه الفجّار والأشرار، فإن سقطوا عليه ترضضوا وإن سقط هو عليهم سحقهم » (٦٣٩ ــ ٦٤١).

و « البشارة » الأخيرة التي نأخذها من سماحة المفتي هي ما ورد في إنجيل يوحنّا عن « الفارقليط » (يوحنا ١٤ / ١٥). يقول سماحته : « يكاد يلتقي أكابر العلماء على أنّ معنى كلمة فارقليط النبي المبشَّر به. وهو محمّد وليس سواه... » (٦٤١ ــ ٦٤٣).

هذه الدلالات من الإنجيل على النبي محمّد لم يتفرّد بها سماحته وحده. بل أكثر المسلمين يرون في الإنجيل أكثر ممّا رأى سماحته. ولن نعود إلى نقل هذه الإشارات عن أحد، لأنّ ما نجده عند سماحته يجعلنا نستغني به عن غيره، نظراً لمكانته ومسؤوليّاته.

ولكن لنا على سماحته توضيح. فهو، مع تأكيده وجود إنجيل لعيسى جاء به معه من السماء، يقول : « ولقد مضى القرن الأول تقريباً على المسيحيّة وتعاليمهم، وهي تنقل مشافهةً وروايةً » (٥٩٥ ــ ٥٩٦)... يبدو لنا من هذا الكلام بأنّ عيسى لم يعطِ المسيحيين الأوّلين إنجيلاً! وقد يبدو أيضاً أنّه، ربّما، نسي عيسى إنجيله في السماء العليا، أو منعه عنه جبريل!! وإلاّ كيف يكون لعيسى إنجيلٌ من جهة، ومن جهةٍ ثانية لم يكن للمسيحيين كتابٌ غير المشافهة ؟!

ولو أنّ المسيحيين احتفظوا بالإنجيل الحقيقي، بحسب مقولة صاحب السماحة، لكان الإنجيل، كما يؤكّد القرآن، « أحد الكتب التي أنزلها الله على أحد رسله لهداية الناس... فالإنجيل، كالتوراة وكالقرآن، سواء بسواء، من حيث أنّه في الأصل كتاب الله ويحوي كلام الله، ولا يفترق عنهما إلاّ بأنّه أُنزل على عيسى... » (٧١١).

ويبدو، أخيراً، أنّ سماحة الشيخ يتبنّى نظريّة « الأستاذ عبد الأحد داوود، وهو كاتب مسيحي أسلم » (٧٠٨)، واسمه في الأصل، كما جاء عند السيد هاشم. (البروفسور دافيد، صاحب كتاب « محمد في الكتاب المقدس » ، دولة قطر. ط١. سنة ١٩٨٥). وتقوم نظريّته على أنّ « ما يزيد على ألفَي مبعوث روحاني، ومعهم عشرات الأناجيل ومئات الرسائل، إلى نيقية لأجل التدقيق. وهناك تمّ انتخابُ الرسائل الإحدى والعشرين من رسائل لا تُعَدّ، ولا تُحصى.

وصودق عليها. وكانت الهيأة التي اختارت العهدَ الجديد هي تلك الهيأة التي قالت بألوهيّة المسيح. وكان اختيار كتب العهد الجديد على أساس رفض الكتب المسيحية المشتملة على تعاليم غير موافقة لعقيدة نيقية وإحراقها كلها » (٧٠٨).

وكذلك أيضاً اعتمد سماحة الشيخ على الدكتور موريس بوكاي (وهو طبيب مسيحي فرنسي أسلم، له كتاب : « التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث » ، ترجمة المفتي). فبوكاي، على رأي المفتي، جدير بأن « يَضع بين يدي القارئ صورةً واضحة عمّا يُطلَق عليه اسم الإنجيل اليوم » (٧١٠) ... لهذا ينقل سماحته عن الدكتور صفحات وصفحات، على أنّ الدكتور، في نظر المفتي، عالم ديني « روحانيّ » مسيحي فذّ.

* * *

وللشيخ الإمام محمّد أبو زهرة، أرصن المعالجين، رأيه، يبديه لنا بإيجاز. يقول: « وإذا كانت هذه الكتب (الأناجيل والرسائل) متناقضة متضاربة يلحق الكذبُ كلَّها، في جملتها وأجزائها، عند مناقشتها. فهي إذن ليست بإلهام. ويكفي هذا بطلاناً لمدعاهم في الإلهام... » (٨٩).

ثم يختم شيخ الأزهر كلامه على مصادر النصرانيّة وكتبها فيقول : « إن كتاب كل دين هو الأصل والدعامة والأساس. فإذا كان غيرَ صحيحِ السند، أو غيرَ مقبولٍ لدى العقول، كان ثبوتُ الدين فيه نظر، بل إنّه انهار، وفَقَدَ أصلَه، ولم يعدْ شيئاً في الأديان مذكوراً » (٩٨). والحال، إنّ كتب النصارى غير مسنَدة، ومتضاربة، فهي إذن لا تصلح لأن تكون مرجعاً حقيقيّاً، كما أنّ النصرانيّة التي ضيّعت كتابها الحقيقي ليست هي اليوم بمستوى أي دين.

* * *

وابن الخطيب أيضاً، في ردّه العنيف على « كاهن كنيسة » ، يروح يسخر من هذا الكاهن الذي قال بأنّ « الإنجيل كلمة يونانية، وهي بمعنى أخبار سارّة » . يجيبه ابن الخطيب: « يا سيّدي القمّص (القسّ في القبطيّة)! إن كنت تفخر

علينا بأربعةِ كتب، أو خَمسة، تسمّونها إنجيلاً لما تحمله من الأخبار السارّة، فإنّ لدينا ما يبلغ زهاء الخمسة ملايين، كلّها تحمل الأخبار السارّة... » (هذا هو الحقّ!..، ص ٤٢).

ثمّ يبدي رأيه في ما هي الأناجيل عليه، بعدما نزلت على عيسى، فإذا هي، بين أيدي الرسل، خاضعة لنزواتهم وأهوائهم ومقدراتهم العقلية. « هذه الكتب تلقّفها من أُنزِلَتْ إليهم بالزيادة والنقصان، والتبديل والكتمان؛ وأنشأ كلُّ زعيمٍ لهم، ومترئّسٍ عليهم كتاباً على هواه، زاعماً أنّه هو بعينه؛ حتى تباينتْ تلكم الكتب، وتعدّدتْ أسماء منشئيها ومخترعيها؛ فزال عن هذه الكتب رونقُها، وخبا ضوؤها، لنسبتها إلى الأرض، بعد أن كانت منيرة عند نزولها من السماء! » (٤٨).

ويتساءل ابن الخطيب أخيراً عن الإنجيل الحقيقي، أين هو ؟ : « ... ولكن أين الإنجيل الذي عناه القرآن، وأَمَرَكم بالحكم بما فيه ؟ ــ فيجيب ــ : لقد تفرّق أيدي سبا، وصار شذر مذر » (٧٩).

* * *

أمّا سماحة الإمام الأكبر محمد الحسين آل كاشف الغطاء فقد انبرى، وهو المجتهد النجفي المرموق، يحلّل ما في كلام زعيمَي الرسل، بطرس وبولس، من تلاعبٍ في آيات الوحي والأناجيل. ويعطى مثلاً عن هذا التلاعب : هناك آيات نزّلها بطرس في صحّة العمل بالختان، وآيات نزّلها بولس في صحّة العمل بالمعموديّة، « فهل هذا إلاّ الرياء والمداهنة في نواميس الدين ؟ نعم. قد استنزلوا لهم آيةً من السماء، وأثبتوها بزعم الوحي في الأناجيل، وتلك الآية هي التي فتحتْ لهم بابَ التلاعب بالأديان والتلوّن بأحكام الشريعة وتحويرِها كيف شاؤوا... » (التوضيح.. ، ١٠٤).

ويتناول سماحة الإمام الأكبر الإنجيليين بالتفصيل، فيقول بأنّ **متى** لم يتّفق عليه النصارى الأوّلون. فهناك « الاختلاف في لغته الأصلية... والاختلاف في زمن

تأليفه... واختلفوا في المترجم... هذا مع ما فيه من التناقضات والمنافيات بينه وبين نفسه، وبينه وبين غيره » . ويقولون في **مرقس** أنّه ليس من تلاميذ المسيح، بل تتلمذ على يد بولس، ثم على يد بطرس، ولكن بعد مشاجرة قويّة مع بولس. وهو مجهول لا يُعرف شيء حقيقي عن حياته (١٠٥ ــ ١٠٦). **ولوقا** كان وثنيّاً تنصّر على يد بولس، وليس من الاثني عشر، ولا من السبعين. وكفى بذلك موهناً (١٠٦ ــ ١٠٧). أمّا **يوحنّا** فيشتمل على غرائب عجائب ممّا يوهن الثقة به، « ولذا أنكر جماعةٌ قانونيّة هذا الإنجيل وجعلوه كتاباً قَصصيّاً لا دينيّاً. وقد سبق لهم تشاجر طويل إلى أن قرّرته الكنيسة » (١٠٧).

وبالنتيجة، يقول الإمام الأكبر : « وأنت ترى... أنّ هذه الأناجيل محفوفة، من حيث الصحة والاعتبار، بشبهات متراكمات كظلمات بعضها فوق بعض. فمن أين يأتي الاعتقاد والاعتماد بأنّ كل ما فيها وحي من الله منزل على نبي مرسل ؟ كلاّ ثم كلاّ! فإنّ تناول نجوم السماء أهون من إثبات هذه الدعوى » (١٠٧).

ويختم الإمام الأكبر : « هذه مصادر النصرانيّة ومواردها وأصولها وأسانيدها. ولعلّ حبال الشمس وخيوط الهباء أقوى منها إحكاماً، وأشدّ إبراماً » (١٠٩).

* * *

وثمّة علاّمة شيعي آخر، هو « العلاّمة الشيخ محمد جواد البلاغي، فقيد الشرق الإمام الحجّة، نصير الإسلام » ، خصّص الصفحات الطوال في كتابه « الرحلة المدرسية » ، لإظهار، ما سمّاه، تناقضاً واختلافاً وتزويراً وتحريفاً وتبديلاً وزيادة ونقصاناً وخللاً وغلطاً ونقصاً وتصرّفاً وانتهاباً.. في الأناجيل (انظر ص ١٢٤ ــ ١٨٩)... ثمّ خلص إلى القول: « عجباً! كيف يكون الدين الواحد متناقض الأحكام!... يا أسفاه على الدين إذا كان رسلُه مرائين! » (١٨٥).

* * *

وقبل هذا الرعيل من الرجال كان « الإمام العلاّمة شمس الدين محمد ابن أبي بكر ابن قيّم الجوزيّة » ، يلاحق المسيحيين وكتبهم، ويؤكّد بأنّ « نسخَ الإنجيل

يخالف بعضها بعضاً ويناقضه » (هداية الحيارى، ٤٨ ـــ ٤٩). ويقول أيضاً : « وأمّا الأناجيل فهي أربعة أناجيل أخذت عن أربعة نفر... وكلّ منهم يزيد وينقص ويخالف إنجيلُه إنجيلَ أصحابه في أشياء. وفيها ذكرُ القول ونقيضُه... » (١١٢).

هذا التناقض وهذا الاضطراب في كتب الأناجيل علامة على تحريف وقع فيها. وبالتالي علامة على أنّها ليست من عند الله. يقول : « والمقصود أنّ هذا الاضطراب في الإنجيل يشهد بأنّ التغيير وقع فيه قطعاً. ولا يمكن أن يكون ذلك من عند الله، بل الاختلاف الكثير الذي فيه يدلّ على أنّ ذلك الاختلاف من عند غير الله » (١١٤).

* * *

ونصل أخيراً إلى موقف شيخ الإسلام ابن تيميّة الذي كان موجّهاً وقائداً لجميع المواقف التي مررنا بها. ففي رأيه أنّ بعض النصارى غيّروا بعض الألفاظ والتعابير من بعض نسخ الأناجيل، « وكتبَ الناسُ من تلك النسخ المغيَّرة نسخاً كثيرةً انتشرتْ فصار أكثرُ ما يوجد عند كثيرٍ من أهل الكتاب هو من تلك النسخِ المغيَّرة.

« وفي العالَمِ نسخٌ أخرى لم تُغيّر، فذكَرَ كثيرٌ من الناس أنّه رآها وقرأها...

« ومعلوم أنّه لا يمكن أهلُ الكتاب إقامةَ حجّةٍ على أنّ جميعَ النسخ، بجميعِ اللغات، في زوايا الأرض، متّفقةٌ على لفظ واحد، في جميع ما هو موجود من جميع النبوّات.

« والحجة التي احتجّوا بها على تعذّر تغييرها كلّها تدلّ على تعذّر العلم بتساويها كلّها » (الجواب الصحيح، ٢٠ ـــ ٢١).

ثمّ يعيّن شيخ الإسلام فصلين كاملين من الجزء الثاني لإظهار التحريف والتبديل في الإنجيل، هما : فصل فيما حدث في الإنجيل من تبديل (٢٠ ـــ ٢٥)، وفصل في كيفية التغيير الذي حدث في الإنجيل (٢٦ ـــ ٢٧)... فيهما يؤكّد بأنّ

« التبديل أمر لا ريب فيه... فإنّا نعلم قطعاً أنّ ذِكرَ محمّد كان موجوداً في زمنه في التوراة والإنجيل، استناداً إلى قوله تعالى : ﴿ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ (سورة ٧ / ١٥٧)...

* * *

وختاماً نقول : إنّ موقف المسلمين عامّة، من التوراة والإنجيل، هو واحد. يعلنون فيه تحريفاً في الإنجيل وتبديلاً. هذا الموقف هو نفسه منذ القديم حتى اليوم. وسندهم هو القرآن الذي يقول بوضوح تامّ :

﴿ ومن الذين قالوا : إنّا نصارى. أخذنا مِيثاقهم فنسَوا حظّاً ممّا ذُكِّروا به ﴾ (في الإنجيل والإيمان) (سورة المائدة ٥ / ١٤). وقال أيضاً : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تُخفون من الكتاب، ويعفو عن كثير ﴾ (فلا يبيّنه خشية افتضاحكم) (٥ / ١٥).

فمحمّد، بحسب تفسير سيّد قطب، « في ظلال القرآن » ، هو « رسول الله إليكم (إلى أهل الكتاب) ودوره معكم أن يبيّن لكم ويوضح ويكشف ما تواطأتم على إخفائه من حقائق كتاب الله الذي معكم... سواء في ذلك اليهود والنصارى... وقد أخفى النصارى الأساسَ الأوّل للدين... التوحيد... وأخفى اليهود كثيراً من أحكام الشريعة، كرجم الزاني، وتحريم الربا كافةً، كما أخفوا جميعاً خبرَ بعثةِ النبي الأمّي « الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » (سيّد قطب، في ظلال القرآن، ٢ / ٦٨٢).

ثانياً ــ المسيح عيسى

لنبدأ بالبداية : مسيح الإنجيل، كمسيح المسيحيين، هو غير مسيح القرآن والمسلمين.

مسيح الإنجيل والمسيحيين، يحدّده قانون الإيمان، بأنّــه : ربّ واحــد، ابــن الله الآب وحيد. تجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء، صار إنساناً من أجلنا نحن البشر، وعــاش مثلنا في كل شيء، ما عدا الخطيئة؛ في سنيّه الأخيرة، علّم وبشّر وصنع المعجزات الكثيــرة، واختار له رسلاً وتلاميذ. اضطهده رؤساء الكهنة والفرّيسيون وأركان الدين اليهودي، بســبب مواقفه، على ما ادّعوا، من الناموس، وبسبب قوله بإلوهيّته. فصلبوه، وعذّبوه، وقتلوه، فمات. وبعد ثلاثة أيّام قام بقوّته الإلهيّة من الموت، وصعد إلى أبيه الأزلي القدوس. ثم أرسل الروح القدس على رسله المجتمعين، فراحوا، بقوّة النعمة هذه، يكرزون باسم المعلّم في العالم كلّــه. وأسّسوا له في كل مدينة قَبِلَتْهم، وفي كل شعبٍ انصاعَ إليهم، كنيسةً، هي، في الحق، « جسد المسيح السرّي » ، المستمرّة أبداً، إلى دهر الدهور؛ وقوّات الجحيم لن تقوى عليها...

وفي العصور التالية، راحت الكنيسة توضح سرّ المسيح، وتُقدِّمُــه للعــالم، بلغــتِهِم، وأسلوبهم، ومنطقهم. وكلّما كان العالم يتقدّم ويتطوّر، بتقدّم العلم والمعرفة وتطوّرهما، كانــت الكنيسة حاضرةً، مهيّأةً، مستعدّة، لأن تقدّم المسيح ــ المتجسّد باستمرار على مســتوى كــلّ تطوّر وتقدّم. ومن أجل ذلك، عقدَتِ الكنيسة مجامعها، واستنارتْ بتعاليم لاهوتيّيها، لأن تكون دائماً في رَكب كل تقدّم وتطوّر. فهي، هنا وهناك، في كل زمان ومكان، لكي تقدّم المسيح

بصورة بهيّة يقبلهـا المتطوّرون والمتقدّمون في هذا الكـون. فالكنيسة، والحـق يقـال، هي « المسيح ــ المتجسّد » أبداً، التي تعمل في خلاص العالم وترفيعه نحو الآب الأزلي.

* * *

أمّا مسيح الإسلام، كمسيح القرآن، فهو نبيّ كسائر الأنبياء السـابقين، ولـد بطريقـة معجزة، من مريم التي حملت به بعد أن أرسل الله إليها جبريل، الذي « تمثّل لها بشراً سويّاً » (١٩ / ١٧)، وقال لها : « إنّما أنا رسول ربّك لأهب لك غلامـاً زكيّـاً » (١٩ / ١٩). فكانت، هي وابنها « آية للعالمين » (٢١ / ٩١).

وآية عيسى أنّه نزل بإنجيل من السماء، أضاعه تلاميذه، لغايةٍ ما. فهو ليس إلهاً، ولا ابناً لله. وليس هو ثالث ثلاثة، ولا هو وأمّه إلهان. توفّاه الله كغيره؛ فهو، إذاً، لم يقتـل، ولـم يصلب... ومع هذا، فهو « كلمة الله » . و « روح منه » وعبده، ونبيٌّ يصدِّق ما جـاء فـي التوراة. أجرى الله على يده معجزات، منها : إنّه تكلّم في المهد، وخلَقَ مـن الطـين طيـراً، وشفى الأبرص والأكمه. وأقام الموتى، وأنزل من السماء مائدة، وبشّر بمجيء نبيّ بعده اسمه أحمد (أي محمد)...

هذه صورة عيسى القرآن. تجد الكلام عليها وعلى مصادرها مفصّلاً من كتاب « قسّ ونبيّ » (ص ١٢٣ ــ ١٢٥). أمّا صورة عيسى المسلمين. مع أنّها تعتمد على القرآن، فهي تذهب بعيداً في التوضيح والتفسير والاجتراء. فلنبدأ بأحدث المصوّرين.

* * *

لم يعالج السيد شريف محمد هاشم نظرية القرآن كلّها في المسيح، من البشارة بالحبل به، إلى ولاته، ومعجزاته، وتعاليمه، وموته، ورفعه... همّه كان فقط في التركيـز علـى أنّ عيسى كان نبيّاً لا غير، وكان نبيّ اليهود فقط، وكان متردّداً في رسالته، قلقاً غير واثق مـن أهليّته، وكان يخاف من مصيرٍ أسود يكون له على

يدِ اليهود، وكان يعاني من تفوّق المعمدان عليه... فلنسمع السيد هاشم يقول بأسلوبه وتعابيره:

هناك حقيقة « لا بدّ من الاعتراف بها، وهي أنّه لم يكن في ذهن عيسى ذاك الوقت، أن يكون نبيّاً خارج الديانة اليهوديّة... وكما أنّه لم يفكّر بهداية غير اليهود، فهو أيضاً لم يتصوّر أن تتخطّى مبادؤه ووصاياه عتبة الديانة اليهودية والشعب اليهودي » (١٦٩).

« أكثر من ذلك... أنّ عيسى، طيلة فترة وجوده القصيرة بين أتباعه، كان متهيّباً، متردّداً في الإعلان عن نفسه : المسيح المنتظر. فنراه يتدرّج للكشف عن حقيقته بتردّدٍ ووجل. وكأنّه غير واثق من أهليته، لهذا المنصب الخطير الذي يتّجه إليه، كمن يسير في حقلِ ألغام » (١٧٠).

ثم « ظلّت شخصية يسوع الحقيقة مبهمة قلقة غامضة على الجميع... والغريب أنّ يسوع نفسه كان يساعد في عملية هذا التجهيل أو التعتيم، ويطلبها. وإن حدث « وحزر » بعضُ تلاميذه حقيقة موقعه، نجده ينهاهم أن لا يخبروا أحداً » (١٧١).

ثم يسأل السيد هاشم ويطرح احتمالات عديدة. يقول : « كيف، وعلى أيّ أساس آمن به تلاميذه والناس، وجميعهم يجهلون حقيقته وموقعه وشأنه ودعوته ؟... ونسأل: هل كان خوف يسوع من مصيره الأسود على يد اليهود، سبباً لإخفاء حقيقته ؟ »... أم لعلّ يسوع « كان يعاني من شعوره بفوقيّة المعمدان عليه ؟ » ، أو لعلّ خوفه من أذى اليهود بسبب أنّه يريد أن يكون « خليفة ليوحنا المعمدان. وهو أقصى ما كان يطمح للوصول إليه ؟ » (١٧٣ ــ ١٧٧).

« والسؤال : ماذا لو لم يُسجن يوحَنّا ولم يُقتل! هل كان عيسى سيتقدّم من الناس ليُعلن، لا ألوهيّته المزعومة، بل نبوّته ودينَه الجديد ؟ » (١٧٧).

وبالنتيجة، يرفض السيد هاشم، كغيره من المسلمين، ألوهيّةَ المسيح، وبنوّته لله. ويعتبر هذه البنوّة لله « هديّةً » من القديس بولس الذي أراد أن يكفّر عن أعماله المشينة بحقّ المسيحيين قبل ارتداده. يقول : « أمّا كيف أهدى بولس لله

ابناً ؟ وكيف اكتشف لعيسى أباً في السماء غير يوسف النجّار الذي تؤمن به المسيحيّة أباً للمسيح ؟ فهذا أمر لا يزال الجدل قائم (كذا) حوله » (٢٢٤).

ومع هذا يكتشف السيد هاشم أنّ بولس إيّاه هو الذي « كشف بصراحة ووضوح عن نظريته القائلة بأنّ عيسى هو ابن الله » (٢٢٨). وهو الذي « أدخل أبوّة الله للمسيح، أو بنوّة المسيح لله. على خطّ الإيمان المسيحي، ولأوّل مرّة » (٢٢٩).

* * *

أمّا سماحة مفتي الجمهورية فقد تناول موقف القرآن والمسلمين من عيسى بأكثر دقة وتوسّع. لقد عالج قصّة المسيح من البداية حتى النهاية، في الأناجيل كما في مجامع الكنيسة المسكونيّة وتقاليدها. فكأنّ له رأي وموقف، نستطيع اعتبارهما، رأيَ المسلمين وموقفَهم، من بدء الإسلام حتى اليوم الذي نكون فيه. ولهذا، نودّ الوقوف، ولو مطوّلاً، على روايات الشيخ الوقور ومعارفه المسيحية، انطلاقاً من مفهوم قرآني إسلامي خالص.

١ ــ ولادة عيسى : في رأي الشيخ الجليل، إنّ صورة عيسى، في رواية الأناجيل غامضة، « لا يزال يشوبها الكثير من الظلال المعتمة، بحيث بقيت مهزوزة الرؤية، غامضها » . فولادته متنازَع عليها : أهي بواسطة الروح (متى) ؟ أَم بطريقةٍ معجزة (مرقس) ؟ أَم أنّ عيسى ولد ليوسف ومريم (يوحنّا) ؟... ثمّ أين ولد عيسى الأناجيل ؟ أفي الناصرة ؟ أم في بيتَ لحم ؟ وأين سَكن ؟ وما هو نسبُه ؟ فهذا أيضاً على اختلاف فيما بين متى ولوقا ؟!...

أمّا في القرآن « فإنّ الله يجزم بأنّ ولادة عيسى كانت خارقة العادة » ، وأنّ أمّه مريم، حملت به، بعد أن أرسل الله إليها الروح، وهو جبريل عليه السلام، « فتمثّل لها بشراً سويّاً » ..، وأنّ القرآن الكريم يجزم بأنّ عيسى هو ابن لمريم بمعجزة النفخ الربّانيّة والكلمة الإلهيّة... » (موقف الإسلام..، ص ٥٨٣ ــ ٥٨٥).

٢ ــ **ألوهيّة عيسى ؟** يعتقد الشيخ، استناداً إلى قول القرآن، بـبطلان هـذه العقيـدة وتكفيرها. « تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً » (٥٩٦). يقول القرآن : « لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم » (٥ / ٧٢)، ويعلّق الشيخ : « لقد جحد القائلون بألوهيّة عيسـى الحقيقةَ... ولو كان المسيح إلهاً، أفما كان بمقدوره أن يدفعَ عن نفسه قهرَ الله! » . فقد ثبت أنّ الأسفار القديمة قد أطلقتْ لفظةَ الله على المسيح وأطلقتها أيضاً على الملك وعلـى القاضـي، وعلى الشريف والقويّ، وعلى النبيّ... يضاف إلى ما تقدّم أمران هامّان همـا : إنّ المسـيح وصفَ نفسَه أكثر من مرّة في الأناجيل الأربعة بأنّه « ابن الإنسان » ... وإنّه أبـدى عـدمَ رضاه لوصفه بالصلاح من قبل بعض الناس... » (٦٦١ ــ ٦٦٣).

ثمّ يعتبر سماحة الشيخ أنّ نظرية تأليه البشر شيء عادي في التاريخ.

٣ ــ **بنوّة عيسى لله ؟** في رأي الشيخ أنّ بنوّة عيسى لله هي « من أوائل العقائد فـي النصرانية، وأبرزها » (٥٩٦). ويقول : « يسترسل القرآن الكريم في تتبّع أخطاء النصارى وضلالاتهم العقدية، ويتصدّى لدعواهم بنوّة عيسى لله، وينفيها نفياً قاطعاً، ويقول : « ما كان لله أن يتّخذ من وَلَدٍ سبحانه » (١٩ / ٣٥)...

ويعلّق الشيخ : « أوليس مثل هذا الاعتقاد... فيه الكثير من الكِلفة الفكريـة والمشـقّة الذهنية، فضلاً عن أنّ فيه الكثيرَ ممّا يشتّت ذهن الإنسان الذي يرغب بأن يكون مؤمناً، واضحَ الإيمان، موقِناً، صافي اليقين، ويدفعه دفعاً للوقوع في القول بتعدّدِ الآلهة!... إنّ مثل هـذا لا يقبله الإسلام في شكلٍ من الأشكال، وهو الذي يقول في كتابه الكريم : « ما اتّخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، إذاً لذهب كل إله بما خلق، ولَعَلا بعضُهم على بعض. سبحان الله عمّـا يصفون... » (سورة المؤمنون ٩١ ــ ٩٢).

هذه البنوّة لله، « كانت معروفة من قَبل لفراعنة مصـر، وكـذلك لـبعضِ قياصـرة الرومان وأكاسرة الفرس... ورُوي مثلُ هذا عن أتباع الفيلسوف

فيثاغورس إذ كانوا يعتقدون بأنّه الإله أبولون... ويمكن تتبّع هذه العقيدة عند وثنيّي اليونـان وغيرهم، بحيث نراها جليّةً واضحةً عند الأمم الخالية » (٥٩٦ ــ ٥٩٨)... ومن هذا القبيل يفهم سماحة المفتي بنوّة المسيح لله.

٤ ــ **عقيدة الصلب** : في عقيدة المسيحيين أنّ المسيح صُلب حقّاً. وفي عقيدة القـرآن والمسلمين، « إنّ اليهود ادّعوا أنّهم صلبوا المسيح وقتلوه. ولقـد صـدّقهم بـذلك متـأخّرو النصارى » (٦٧٣). هذا الموقف الإسلامي الصريح « بيّن، كما ورد في القـرآن الكـريم : وقولهم (أي اليهود) : إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله. وما قتلوه ومـا صـلبه. ولكن شُبِّه لهم... وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه » (سورة النساء ٤ / ١٥٥ ــ ١٥٨).

أمّا حججُ سماحة المفتي في تأكيده كلامَ القرآن فيستلُها من تفاسيره الإسلامية لنصوص الأناجيل. فهو، إذن، يعتمد على المصادر المسيحية نفسها، ليعطـي البـراهين الحقّـة علـى نظريّته. نعطي مثلاً من تفاسير سماحة الشيخ العديدة. يقول : الأناجيل « لا توحي بمجموعها بأنّها قاطعة بأمرِ الصلب هذا. وهذا موقفُ يهوذ مع المسيح، وهو مَـن هـو، قربـاً وصـلةً بالمسيح!! ثم كيف يدلُّ على المسيح ؟! وكيف يقول له المسيح : يا صديق! يا صـاحب! لِـمَ أقبلت ؟ وهو الذي دلّ عليه ؟! وهو المفسِد الآثِم إثماً كبيراً! وكيف يشـهد المسـيح لتلاميـذه الاثني عشر بالسعادة (انظر متى ١٩ / ٢٨)، وقد وقع من بعضهم هذا الذي وقع ؟! ألـيس يحمل هذا على الظنّ بإمكانيّةِ أن يكونَ المسيح قد ذهب من الجماعة الذين أطلقهم الأعوان ؟! (٦٧٩، انظر ٥٩٩ ــ ٦٠١، و٦٧٣ ــ ٦٨٥).

٥ ــ **عيسى والرفع** : في عقيدة المسيحيين أنّ المسيح قام من الموت بقدرته الإلهيـة الذاتيّة. وفي عقيدة المسلمين أنّ « الله تعالى قد رفع عيسى بروحه وجسده حيّاً إلى السماء من غير وفاة ولا نوم، كما قاله القرطبي، واختاره الطبري. والكثيرون من العارفين يقولون بأنّـه رُفع إلى السماء الرابعة... » (٦٨٧). إلاّ أنّ بعض المفسّرين قالوا بأنّ « مفهوم الرفـع هـو رفع المكانة لا رفع الجسد. وهو ما

ذهب إليه عددٌ كبير من العلماء » (٦٨٨). أمّا عودة المسيح في آخر الدنيا فهي غير واردة في مفهوم الرفع هذا (راجع ٦٨٥ ــ ٦٨٩).

٦ ــ **دعوى الفداء** : الإسلام، في عقيدة الشيخ، « يتصدّى لمفهوم الفداء في النصرانية... هذا المفهوم الذي يرتضي فيه النصارى الاعتقاد بأنّ الله تعالى أرسل ولده الوحيد ــ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ــ ليُهان على أيدي الناس، وليُعذّب، ويُبصَق عليه، ويُضرب بالقصبة، ويُوضع على رأسه إكليل من الشوك، ويُنشر على الصليب، وتُسمّر يداه، ويَسيل دمه، ويموت وهو على الخشبة، ليفدي الناس ويخلّصهم من عذاب جهنم بسبب خطيئة والدهم آدم... أجل يتصدّى الفكر الإسلامي لهذه الدعوة ويتساءل :

« لو صدقت (هذه الدعوى)، فما هو مصير موسى بن عمران ؟ هل أدخله الله تعالى الجحيم وخلّده فيها بعد أن كلّمه واصطفاه وأكرمه وأرسله رسولاً إلى بني إسرائيل ؟ وما هو مصيرُ إبراهيم عليه السلام من قَبل، وهو الذي اتّخذه الله خليلاً، وهو جَدّ الأنبياء والرسل من بني إسرائيل ؟ ثمّ ما هو مصير كل الأنبياء الذين سبقوا ظهور عيسى، كيحيى، وزكريا، ويوشع، وهارون، وداوود، وسليمان، ويونس، واليشع، وذي الكفل، ويونس، ويعقوب، واسحق، واسماعيل، ونوح، وادريس... هل سقط كل هؤلاء في جهنّم ؟!

« ولماذا لم تنبّه التوراة إلى أنّ ذنب آدم ظلّ معلّقاً في أعناق بنيه، وسيظل حتى يأتيهم في آخر الزمان مَن يفديهم منه بدمه وعذابه وموته على الصليب ؟ ولِمَ لم يصرّح بذلك الأنبياء والرسل على كثرتهم ؟!

« بل التساؤل ليذهب بالفكر إلى أبعد من هذا، فيقول : عندما كان عيسى عليه السلام مصلوباً، وهو إله، كما يقول النصارى، مَن كان يدبّر الكون، ويُمسك السماء أن تقع على الأرض، ويُنبت الزرع، ويُرسل السحاب، ويُنزل المطر، ويَخلق البشر، ويُميتهم، ويُرزقهم، ويُشرق لهم الشمس، ويُغربها، ويُحرّك الكواكب كلّها في مسارها المنتظم ؟؟

ثمّ « أَلَم يرد في التوراة... بأنّ المعلَّق على خشبةٍ ملعونٌ من الله! فهل يجوز أن يقع هذا الحكم على عيسى بوصفه كرسول، فضلاً عنه بوصفه ابناً لله، تعالى الله عن ذلك ؟!

وبالنتيجة، وبالنظر إلى هذه المفاهيم المحكَمة عند الشيخ حسن، نسمعه يقول : « نؤكّد بأنّ الإسلام يرفض دعوى الفداء أصلاً، ويعتبرها غيرَ متكافئة مع عظيمِ خيرِ الله ومَنِّه على عباده، وبخاصة بعد أن تحققت توبةُ الله على آدم قبل أن يُهبطَه إلى الأرض من الجنّة التي كان فيها » .

« يضاف إلى ما تقدّم أن آدم هو الذي عصى وأثِم، وليس أولادُه من بعده... ثم ما ذنب ادريس ونوح وابراهيم واسحاق ويعقوب ويوسف وموسى والأنبياء كلّهم ومحمّد... ما ذنب هؤلاء جميعاً وهم لم يأكلوا من الشجرة ؟! (انظر ٦٨٩ ــ ٦٩٦).

هذه بعض مفاهيم سماحة الشيخ حسن خالد، بأسلوبه ومنطقه، وقد عبّر عنها بصراحة قلّما نعرفها عند سائر المسلمين الذين عالجوا أو يعالجون قضايا مسيحية دقيقة. فسماحته، انطلاقاً من مكانته ومقامه الرسمي، ينطق باسم معظم المسلمين. وكان من حقّه علينا أن نبقى معه وننقل عنه أكثر ممّا فعلنا، لولا عناء التطويل.

* * *

أمّا سماحة الأمام الأكبر محمد الحسين آل كاشف الغطاء فقد نقلنا عنه، في الفصل الأول من هذا البحث، عناوين فصوله، فيما يخصّ نظرته وموقفه من المسيح. فإذا المسيح، تحت قلمه، إنسانٌ محتالٌ مبدّلٌ لأحكام الناموس، عاقٌّ لوالديه، ملعونٌ، سكّيرٌ، مسرفٌ، لا كرامةَ فيه ولا أمانة، يغازلُ النسوان ويجلس الغلمان في حضنه، إلى ما هنالك من رذائل ألصقها الإمام الأكبر بالمسيح.

وفي ودّنا أن ننقل فصلاً من فصول الإمام الاثني عشر حيث نجد نموذجاً لتفسيره نصوصَ الإنجيل. الفصل الرابع بعنوان : « مسيح الأناجيل معطِّل لحدود

الناموس ومبطِل لها من غير سبب ولا علة. وهو من أكبر الخطايا » (التوضـيح... ٦٠ ـ ٦١). ونجد هذا الفصل أيضاً على الغلاف الأخير للكتاب، وعنه ننقل :

« ففي أوّل الإصحاح الثامن من يوحنّا قصّة حاصلها أنّ جميع الشعب جـاءوا إليـه وقالوا : يا معلّم، هذه المرأة أُمسكت بالزنا، وهي تزني في ذات الفعل، وموسى في النـاموس أوصانا أنّ مثل هذه تُرجم، فماذا تقول ؟ فقال : مَن كان بلا خطيّة فليرمِها بحجر. فما رماها أحد. ثمّ رفع يسوع رأسه فقال : يا امرأة، أما دانَكِ أحدٌ ؟ فقالت : لا أحد يا سيّد. فقـال لهـا يسوع : ولا أنا أُدينك. اذهبي ولا تخطأي أيضاً...

ويعلّق الإمام الأكبر : « وأنا لا أدري كيف نسيَ قولَـه : إلـى أن تـزول السـماء والأرض لا يزول حرف واحد، أو نقطة واحدة من الناموس. وقد أكّدتِ. التوراة، وشدّدتْ في إقامة الحدّ على الزانية بما لا مزيد عليه. وقد عطّل سيدنا المسيح حدّاً من حدود الله من غير سبب ولا توبة ولا كفّارة.

« ثمّ في قوله : وأنا لا أُدينك أيضاً بعد قوله : مَن كان بلا خطيئة فليرمها، صـراحة بكونه من أهل الخطايا أيضاً، وإلاّ لدانها. فالواقع لا يخلو، منطقيّاً، من أحدِ أمرين : إمّـا أن يكون ذا خطيئة، فيكون عذراً في عدم إقامته للحدِّ عليها؛ أو يكون منزَّهاً عن الخطيئة، فيكون قد عطّل الحدّ وأبطل الناموس. وهذا من أكبر الخطايا!! » .

أمّا مغازلة النسوان فيعتمد الإمام الأكبر على لوقا ٧ / ٣٧ حيث يقول : « وإذا امرأة في المدينة كانت خاطئة، إذ علمت أنّه متّكي في بيت الفرّيسي، جاءت بقارورة طيب، ووقفت من ورائه باكية، وابتدأت تبلّ قدميه بالدموع، وكانت تمسحها بشعر رأسها، وتُقبّـل قدميـه، وتدهنهما بالطيب. وقال الفريسي : لو كان نبيّاً لعلمَ مَن هذه المرأة التي تلمسه. إنّها خاطئة.

يعلّق الإمام الأكبر : « أقول : ما سمعنا في شيء من النبوّات أنّ نبيّاً تُقبّـل رجليـه المومسات، وتسكب على قدميه قارورةُ طيب ناردين خالصٍ كثيرِ الثمن...

نعم ربُّهم اليسوع... وكان يومئذ شابّاً وسيماً ابنَ ثلاثين سنة أو دونها، فلعلّه صبا إلـــى تلــك الخاطئة كما صبتْ هي إليه، فمرغتْ وجهَها وشعرَها على قدميه... إنّه كان يشتهي أن يُقبِّلَها وتُقَبِّلَه، ولكن الظروف ما سمحتْ بذلك لرقابةِ الفرّيسي ويهوذا الاســخريوطي... » (٦٦ ــ ٦٧).

« وأمّا جلوس الصبيان في حضنه، بحسب ما يرى الشيخ الإمام، ففي يوحنا (١٣ / ٢٣) وكان متّكئاً في حضن يسوع واحد من تلاميذه كان يسوع يحبّه » (التوضيح... ٦٨).

ويختم الإمام الأكبر كتابه قائلاً : « قد استحضرنا لك اثني عشر (كذا) خطيئة مـن خطايا المسيح بنصّ أناجيلهم. ولو شئنا أن نبلغ بها الخمسين فأكثر كان شيئاً هيّناً وأمراً ممكناً. ولكن الحرص على الاختصار عاقنا... فالحقّ أنّ يسوع، بحسب ذات أناجيلهم، كان مجموعة خطايا وجرائم وجرثومة فساد ومآثم... » (ص ٧١).

* * *

أمّا العلاّمة الشيخ البلاغي فلا تختلف صورة المسيح عنده عمّا هي عند الإمام الأكبر آل كاشف الغطاء. فهذا العلاّمة أيضاً تستهويه سيرة المسيح مع المرأة الخاطئة. يقــول عــن المرأة التي قبّلت قدمَي يسوع وغسلتهما ومسحتهما بشعر رأسها ودهنتهما بالطيب : « حتــى أنّ صاحب البيت أنكر هذا العمل من امرأة خاطئة مع شاب عمره نحو الثلاثين سنة. ولكــن المسيح ــ وحاشاه ــ صار يوبّخه ويشكر محبّتها الكثيرة. يا ولدي! هل هذا العمل من تعلــيم التوبة والقداسة والعفّة! أو كما يقال : إنّ الغرام لأهله فضّاح! » (الرحلة المدرسية، ١٣٩).

والشيخ العلاّمة أيضاً يراقب المسيح يجلس الغلمان في حضنه. يقــول بلســان أحــد المسيحيين عن اتّكاء يوحنا على صدر المسيح : « إنّي لأخجل كثيراً من وجود هذا الكلام في إنجيلنا المقدس. فإنّ المسيح الذي جاء ليعلّم الناسَ بأخلاق الأدب والعفاف، كيف يترك الشابَ يجلسُ في حضنه، ويتّكأ (كذا) على صدره، حاشا المسيح وحاشا الإنجيل الحقيقي من ذلك! » (١٢٥ ــ ١٢٦).

ويبدو، بالنسبة إلى الشيخ العلاّمة، إنّ التهمة ثابتة على المسيح، فيوحنا « يُسمّى يوحنا الحبيب، أي حبيب المسيح... فكم كان عمر يوحنا حينما كان متكّئاً في حضن المسيح. ويتّكأ (كذا) على صدره، ويتغنّج عليه. هل كان يوحنا ابن أربع سنين أو ثلاثة حتى لا يكون هذا العمل قبيحاً ؟... يؤكّد العلاّمة أنّ « يوحنّا كان، قبل الاتّكاء في حضن المسيح بثلاث سنين يعمل في السفينة ويصيد السمك ويصلح الشباك. ولا يمكن أن يكون عمره، بحسب العادة حين الاتكاء، أقل من أربعة عشر سنة » . فإذن « المسيح كان يجلس يوحنا الحبيب في حضنه ويتركه يتدلّل عليه، ويتّكأ (كذا) على صدره، إذ ذاك في غضارة الشباب ونعومة الجسد. أهكذا تكون عفّة الرسل وتأديبهم لتلاميذهم وتعليمهم للناس العفّة ؟ » (١٢٥ و ١٣٩).

* * *

ابن الخطيب، بدوره، تقوم قيامته على كاهن كنيسة ومعتقده الباطل في ألوهيّة المسيح. يقول : « أمّا إلهه المتجسّد في عيسى، الخارج من بطن مريم عليها السلام، فإنّ مثل هذا الإله لا يُشرِّف مخلوقاته، بل يجب عليهم التبرّؤ منه كخالق، والكفر به كإله. وتَعساً لهذا المنطق! وسَحقاً لهذا القول! ...

« من أين جاءت الألوهيّة لمن نزل من فرج امرأة ؟ أين جاءت الألوهيّة لمن أكل الطعام ضمن الآكلين، ودخل بيت الخلاء كسائر الداخلين ؟ » (هذا هو الحقّ! ص ٦٣).

* * *

وابن قيّم الجوزيّة، الذي يُعتبر مصدراً مهمّاً لمن جاء بعده في نظرته إلى حقيقة المسيح، يطيب له جدّاً الحديث عن كيفيّة ألوهيّة المسيح وهو في بطن أمّه يتخبّط بين البول والدم. يقول : « ألا يستحي (المسيحي) من أصل دينه الذي يدين به اعتقاده أنّ ربّ السموات والأرض، تبارك وتعالى، نزل عن كرسيّ عظمته وعرشه، ودخل في فرج امرأة تأكل وتشرب وتبول وتتغوّط وتحيض، فالتحم

ببطنها، وأقام هناك تسعة أشهر يتلبّط بين نجْوٍ وبول ودمٍ طمثٍ. ثم خرج إلى القماط والسرير. كلّما بكى ألقمتْه أمّه ثديها؛ ثم انتقل إلى المكتب بين الصبيان. ثم آل أمرُه إلى لَطم اليهودِ خدّيه، وصفْعِهم قفاه، وبصْقِهم في وجهه، ووضْعِهم تاجاً من الشوك على رأسه، والقصبة في يده؛ استخفافاً به وانتهاكاً لحرمته. ثم قرّبوه من مركب خُصّ بالبلاء راكبُه، فشدّوه عليه، وربطوه بالحبال، وسمّروا يديه ورجليه، وهو يصيح، ويبكي، ويستغيث من حرّ الحديد وألم الصلب. هذا وهو الذي خلق السموات والأرض، وقسم الأرزاق والآجال. ولكن اقتضت حكمته ورحمته أن يمكِّن أعداءه من نفسه، لينالوا منه ما نالوا، فيستحقّوا بذلك العذاب والسجن في الجحيم؛ ويَفدي أنبياءه ورسله وأولياءه بنفسه، فيُخرجهم من سجن إبليس. فإن روح آدم وابراهيم ونوح وسائر النبيين عندهم كانت في سجن إبليس في النار حتى خلّصها من سجنه بتمكينه أعداءه من صلبه!!! » (هداية الحيارى، ١٣٩).

ثمّ يتساءل الإمام العلاّمة ابن قيّم الجوزيّة عن ألوهيّة المسيح، وينتظر من « معشر المثلّثة وعبّاد الصليب وأمّة الضلال » جواباً. يقول : « فيا معشر المثلّثة وعبّاد الصليب! أخبرونا مَن كان الممسكُ للسموات والأرض حين كان ربُّها وخالقها مربوطاً على خشبة الصليب... أم تقولون : استخلف على تدبيرها غيرَه!... أم تقولون : كان هو المدبّر لها في تلك الحال!... أم تقولون : لا ندري!... ما الذي دلّكم على إلهيّة المسيح ؟ فإن كنتم استدللتم عليها بالقبض من أعدائه عليه... فما أصحّه من استدلال عند أمثالكم ممّن هم أضلّ من الأنعام؟! وهم عار على جميع الأنام!

« وإن قلتم : إنّما استدللنا على كونه إلهاً بأنّه لم يولد من البشر، ولو كان مخلوقاً لكان مولوداً من البشر. فإن كان هذا الاستدلال صحيحاً فآدم إله كالمسيح، وهو أحقّ بأن يكون إلهاً منه، لأنّه لا أم له ولا أب، والمسيح له أم؛ وحوّاء أيضاً، اجعلوها إلهاً خامساً، لأنها لا أم لها وهي أعجب من خلق المسيح ؟!!!

« وإن قلتم : استدللنا على كونه إلهاً بأنّه أحيا الموتى، ولا يحييهم إلا الله.

فاجعلوا موسى إلهاً آخر، فإنّه أتى من ذلك بشيء لم يأتِ المسيح بنظيره، وهو جعل الخشبة حيواناً عظيماً ثعباناً، فهذا أبلغ وأعجب من إعادة الحياة إلى جسمٍ كانت فيه أولاً. فإن قلتم هذا غير إحياء الموتى! فهذا أليشع النبي أتى بإحياء الموتى وهم يقرّون بذلك؛ وكذلك إيليّا النبي أيضاً أحيا صبيّاً بإذن الله؛ وهذا موسى قد أحيا بإذن الله السبعين الذين ماتوا من قومه. وفي كتبكم من ذلك كثير عن الأنبياء والحواريين! فهل صار أحد منهم إلهاً بذلك ؟!!!

« وإن قلتم : جعلناه إلهاً للعجائب التي ظهرت على يديه! فعجائب موسى أعجب وأعجب؛ وهذا إيليا النبي بارك على دقيق العجوز ودهنها فلم ينفد ما في جرابها من الدقيق وما في قارورتها من الدهن سبع سنين!! وإن جعلتموه إلهاً لكونه أطعم من الأرغفة اليسيرة آلافاً من الناس! فهذا موسى قد أطعم أمته أربعين سنة من المنّ والسلوى!! وهذا محمد بن عبد الله قد أطعم العسكر كله من زادٍ يسيرٍ جداً حتى شبعوا وملئوا أوعيتهم، وسقاهم كلهم من ماء يسير ؟!!

« وإن قلتم : جعلناه إلهاً لأنه صاح بالبحر فسكنتْ أمواجه! فقد ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق اثني عشر طريقاً وقام الماء بين الطرق كالحيطان، وفجّر من الحجر الصلد اثني عشر عيناً سارحة!!

« وإن جعلتموه إلهاً لأنه أبرأ الأكمه والأبرص فإحياء الموتى أعجب من ذلك، وآيات موسى ومحمد أعجب من ذلك ...

« وإن قلتم : إنّما جعلناه إلهاً لأنّه أخبر بما يكون بعده من الأمور، فكذلك عامّة الأنبياء، وكثير من الناس يخبر عن حوادث في المستقبل جزئية ويكون ذلك كما أخبر به، ويقع من ذلك كثير للكهّان والمنجّمين والسحرة!!

« وإن قلتم : إنّما جعلناه إلهاً لأنه سمّى نفسه ابن الله في غير موضع من الإنجيل كقوله : « إني ذاهب إلى أبي » ، و « إنّي سائل أبي » ، ونحو ذلك، وابن الإله إله. قيل : فاجعلوا أنفسكم كلَّكم آلهة. في غير موضع أنّه سمّاه « أباه وأباهم » ، كقوله « اذهب إلى أبي وأبيكم » ، وفيه « لا تسبّوا أباكم على الأرض فإنّ أباكم

الذي في السماء وحده » . وهذا كثير في الإنجيل وهو يدل على أنّ الأب عندهم الربّ!!

« وإن قلتم : إنّما جعلناه إلهاً لأنّه صعد إلى السماء. فهذا أخنوخ والياس قد صعدا إلى السماء، وهما حيّان مكرَّمان، لم تشكّهما شوكةٌ، ولا طمع فيهما طامع. والمسلمون مجمعون على أنّ محمّداً صعد إلى السماء وهو عبدٌ محض؛ وهذه الملائكة تصعد إلى السماء؛ وهذه أرواح المؤمنين تصعد إلى السماء بعد مفارقتها الأبدان، ولا تخرج بذلك عن العبودية. وهل كان الصعود إلى السماء مُخرِجاً عن العبودية!!!

« وإن جعلتموه إلهاً لأنّه صنع من الطين صورةَ طائرٍ ثم نفخَ فيها فصارتْ لحماً ودماً وطائراً حقيقةً، ولا يَفعل هذا إلاّ الله. قيل : فاجعلوا موسى بن عمران إلهَ الآلهة، فإنّه ألقى عصاً فصارتْ ثعباناً عظيماً، ثم أمسكها بيده فصارتْ عصا كما كانت!!

« وإن قلتم : جعلناه إلهاً لشهادة الأنبياء والرسل له بذلك... قيل لكم : فاجعلوا جميع الرسل آلهة فإنّهم خَلّصوا الأمم من الكفر والشرك، وخلّصوهم من النار بإذن الله وحده. ولا شكّ أنّ المسيح خلّص مَن آمن به واتّبعه من ذلّ الدنيا وعذاب الآخرة، كما خلّص موسى بني إسرائيل من فرعون وقومه، وخلّصهم بالإيمان بالله واليوم الآخر من عذاب الآخرة، وخلّص الله سبحانه بمحمّد بن عبد الله عبدِه ورسولِه من الأمم والشعوب ما لم يخلّصه نبيّ سواه. فإن وجبت بذلك الألوهيّة لعيسى فموسى ومحمد أحقّ بها منه ...

« وجماع الأمر، انّ النبوّات المتقدّمة والكتب الإلهيّة لم تنطق بحرف واحد بمقتضى أن يكون ابن البشر إلهاً تامّاً، إله حق من إله حق، وإنه غير مصنوع ولا مربوب، بل لم يخصّه إلاّ بما خُصّ به أخوه، وأولى الناس به، محمدٌ بن عبد الله، في قوله : « إنّه عبدُ الله ورسولُه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » . وكتبُ الأنبياء المتقدمة وسائر النبوات موافقة لما أَخبرَ به محمد. وذلك كلّه يصدق بعضه بعضاً » (هداية الحيارى، ١٤٨ ــ ١٥٣).

وأخيراً يعجب الإمام العلاّمة ابن قيّم الجوزيّة من « أمّة أطبقت على صلب معبودها وإلهها، ثم عمدت إلى الصليب فعبدته وعظّمته. وكان ينبغي لها أن تحرق كلَّ صليب تقدر على إحراقه، وأن تهينه غايةَ الإهانة إذ صُلب عليه إلهُها الذي يقولون تارة أنّه الله، وتارة يقولون أنّه ابنه، وتارة يقولون ثالث ثلاثة... » (٢٠).

وخلاصة الكلام، إنّ المسيحيين، في رأي ابن قيّم الجوزيّة، هم أضلّ من الحمير في إيمانهم وعقائدهم. يقول : « وأمّا أمّة الضلال وعبّاد الصليب والصور المزوّقة في الحيطان، وإخوان الخنازير، وشاتمو خالقهم ورازقهم أقبحَ شتم، وجاعلوه مصفعةً لليهود، وتواطؤهم على ذلك وعلى ضروب المستحيلات وأنواع الأباطيل، فلا إله إلا الله الذي أبرز للوجود مثلَ هذه الأمّة التي هي أضلّ من الحمير ومن جميع الأنعام السائمة... » (١١٥).

* * *

أما شيخ الإسلام ابن تيميّة، رأس كل باحث في العقائد المسيحية فقد أعطى النهج ورسم الطريق التي عليها سار الجميع من بعده. وهو، في موقفه من ألوهيّة المسيح وبنوّته لله وصَلبه وفدائه... واضحٌ صريح. وله على المسيح وعلى المسيحيين حكمه الذي أمسى حكم المسلمين عامّة. قال :

« النصارى قد نَسبوا إلى الله من الظلم العظيم ما لم ينسبْه إليه أحدٌ من الأمم، كما سبّوه وشتموه مسبّةً ما سبّه إيّاها أحدٌ من الأمم. فهم من أبعد الأمم عن توحيده وتمجيده وحمده والثناء عليه. وذلك إنّهم يزعمون أنّ آدم، لمّا أكل من الشجرة، غضب الربّ عليه وعاقبه، وأنّ تلك العقوبة بقيت في ذريّته إلى أن جاء المسيح وصُلب، وأنّه كانت الذرّيّة في حبسٍ إبليس. فمَن مات منهم ذهبت روحه إلى جهنم في حبس إبليس، حتى قالوا ذلك في الأنبياء نوح وابراهيم وموسى وداود وسليمان وغيرهم...

« ثمّ يزعمون أنّ الصلب الذي هو من أعظم الذنوب والخطايا، بــه خلّــص الله آدم وذريّته من عذاب الجحيم، وبه عاقب إبليس... » .

« والنصارى يقولون : إنّ المسيح الذي هو عندهم اللاهوت والناسوت جميعــاً إنّمــا مكّن الكفّار من صلبه ليحتال بذلك على عقوبة إبليس...

ثم يسأل شيخ الإسلام :

« إنّ إبليس عاقب بني آدم وأدخلهم جهنم بإذنِ الله أو بغيرِ إذنه ؟ إن قالوا بإذنه، فــلا ذنب له ولا يستحقّ أن يُحتال عليه ليُعاقَب ويمتنع. وإن كان بغير إذنه، فهل جاز في عدل الله أن يمكّنه من ذلك أم لم يجز ؟ فإن جاز ذلك في زمان، جاز في جميع الأزمنة؛ وإن لم يجــز في زمان لم يجز في جميع الأزمنة. فلا فرق بين ما قبل المسيح ومــا بعــده » (الجــواب الصحيح.. ، ١ / ٢٢١ ــ ٢٢٤).

والنتيجة، على ما يرى شيخ الإسلام، أنّ « المسلمين أشدّ تعظيماً للمسيح عليه السلام، واتّباعاً له بالحقّ ممّن بدّل دينه وخالفَه من النصارى. فإنّ المسلمين يصدّقونه في كل ما أَخبرَ به عن نفسه، ولا يحرّفون ما قاله عن مواضعه، ولا يفسّرون كلامه بغير مراده... كما فعلت النصارى » (٢ / ٦٨).

* * *

هذا هو معتقد المسلمين جميعهم في المسيح، في حياته ورسالته وتعاليمه وهويّته. وهذا هو معتقدهم الواضح الصريح من ولادة المسيح، وعجائبه، وصلبه، وفدائه، وألوهيّته، وبنوّته لله... لا خلاف فيما بينهم، ولا مهادنة. الأسلوب نفسه، والمنطق نفسه، والنهج، منــذ آيــات القرآن، حتى شيخ الإسلام ابن تيميّة، حتى سماحة مفتي الجمهوريّة، ســنّةً وشــيعةً، كبــاراً وصغاراً، علماءً وأئمّة، فقهاءً وعلماءَ كلام... النهج نفسه والنمط إيّاه.

قد لا يُرضي المسيحيين هذا الموقفُ الجذري من المسيح وهويّته الإلهيّة؛ ولكن، على المسيحيين أن يعرفوا ذلك، وأن يتعاملوا مع المسلمين انطلاقاً من

مواقعهم الإيمانيّة. ويجب ألاّ تطغى شؤون السياسة والوحدة الوطنية وهموم العيش المشـــترك على مثل تلك الحقائق الإيمانيّة الأساسية والجذريّة. وهذا لا يعني دعوة إلى التصادم، بقدر ما هي دعوة للانفتاح ومعالجة الأمور كلّها بحسب خلفيّاتها اللاهوتيّة العميقة.

وبعض الزيادة في المعرفة يؤدّي إلى كثير من المحبّة. فإلى معارف أخرى إذن.

ثالثاً ــ عقيدة التثليث

قمّة الخلاف بين المسيحية والإسلام تكمن في عقيدة الثالوث، أو التثليث. القديس بولس هو السبب في نظر المسلمين؛ وفي نظر المسيحيين السبب هو القرآن. أمّا ما يعود إلى القديس بولس فسنراه بعد حين؛ ولكن ما يعود إلى القرآن فنجده في هاتين الآيتين :

جاء في سورة النساء ٤ / ١٧١ :

« يا أهلَ الكتاب! لا تَغْلوا في دينكم. ولا تقولوا على الله إلاّ الحقَّ :
إنّما المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسولُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه.
فآمِنوا باللهِ ورسلِه.
ولا تقولوا ثلاثةً.
انتهوا خيراً لكم.
إنّما الله إلهٌ واحدٌ.
سبحانَه أن يكونَ له وَلَدٌ.
له ما في السموات وما في الأرض.
وكفى بالله وكيلاً »

وجاء في سورة المائدة ٥ / ٧٣ و٧٥ :

« لقد كفر الذين قالوا : إنّ اللهَ ثالثُ ثلاثة.
وما من إلهٍ إلاّ إلهٌ واحد.
وإن لم يَنْتهوا عمّا يقولون لَيَمَسَّنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم...
ما المسيح ابنُ مريمَ إلاّ رسولٌ... وأمّه صدّيقة. كانا يأكلان الطعام ... »

وبسبب هذا القول القرآني، نال المسيحيون ما نالوا من الاتّهام والطعن

واللعن. فهم مغالون بسبب ما يعتقدون. وهم مشرِكون أيضاً للسبب عينه. وهم كفرة أيضاً وأيضاً يستحقّون الهلاك الأبدي، إذ « إنّ الله لا يغفر أن يُشرَكَ به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (٤ / ٤٨ و١١٦). وللسبب نفسه، نال المسلمون على المسيحيين المشركين حظوةَ الجهادِ المقدّسِ وقتالِهم أينما كانوا. جاء في القرآن : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » (٩ / ٥)، « وقاتلوا المشركين كافّة » (٩ / ٣٦). فلا هدنة ولا معاهدة، لا صلح ولا سلام، بين المسلمين الموحِّدين والمسيحيين الذين يعتقدون بالثالوث على أنّه جوهر الله.

وفي اعتقاد المسلمين أيضاً أن عقيدة التثليث هذه لم تكن من تعاليم المسيح الحقيقة، ولا هي في إنجيله الحقيقي؛ إنّما هي من اختراع المسيحيين المتأخّرين، من تعاليم بولس الرسول، ومن مخلّفات مجمع نيقية وسائر المجامع اللاحقة... أمّا بولس فقد كان رأس الكفر. هو الذي نزع عن المسيحية صفتها التوحيديّة، وأبعدها عن صفائها الأوّلي.

وفي اعتقادهم أيضاً أنّ طائفة من أهل الكتاب آمنت بمحمّد واعتقدت بالتوحيد؛ وطائفةً أخرى لم تؤمن بمحمّد ولم تعتقد المعتقد الصحيح بالله ، « فأيّدنا الذين آمنوا على عدوّهم » (٦ / ١٤). فالذين آمنوا هؤلاء هم النصارى، أي اليهود ــ المتنصّرون؛ والذين لم يؤمنوا هؤلاء هم الذين « غلوا في دينهم »، واعتبروا الله ثالث ثلاثة، وهم أتباع بولس و « مؤتمر نيقية ».

فانطلاقاً من هذا المفهوم الإسلامي الواضح والصريح لعقيدة الثالوث، يقف المسلمون، منذ نشأتهم، حتى السيد شريف هاشم، مروراً بشيخ الإسلام والذين اتّبعوا نهجه، موقف العداء من المسيحيين. والألفاظ التي تُستعمل في إعلان العداوة تُنبئ بشرّ.

فالسيّد هاشم، آخِر المجاهدين الموحِّدين زمناً، له أسلوبه ومنطقه في عقيدة الثالوث. المسيحية، في رأيه، « قالت بالتوحيد المركّب لله. وهي نظريّةٌ عجيبةٌ، معقَّدةٌ، مركَّبةٌ، حاكتها المسيحية حول نفسِها فباتت أسيرةَ خيوطها وحبيسةَ

أليافها » (١٦٥). فيما الإسلام « فالتوحيد فيه هو المنطلق، وهو الأساس، وهو البداية والنهاية، ولولاّه لما كان إسلام ولا مسلمون » (١٦٤).

عقيدة التثليث المسيحية، في رأي السيد هاشم، هي « أصل العقائد المحرّفة عند المسيحيين » (٢٤٣). وهي تسرّبت إليهم من الوثنيين، من الفراعنة والهنود والأشوريين والإغريق (٢٤٣ ــ ٢٤٤). « فلسفة التثليث (هذه) عضو غريب في جسد المسيحية المريض... أوقعَتِ العقلَ المسيحي في حيرة دائمة » (٢٤٥).

وفي دهشة السيد هاشم من العقل المسيحي المتخلّف يسأل : « ألسنا نرى هنا ثلاثة آلهة ؟ الأب وحده هو الله. والابن وحده هو الله. والروح القدس وحده هو الله. والثلاثة معاً هم الله. الله يتفرّق فيكون ثلاثة. ويجتمع فيكون واحداً! فأين العقل الذي يَقبل هذا! أو يحتمل هذا ؟! أو يحتمل هذا ؟! » (٢٤٩). يحكم السيد هاشم بأنّ « أصحاب عقيدة التثليث عاجزون عن فهمها » (عنوان فصل ٢٤٥).

والنتيجة، « لن يتخلّص المسيحيون من الحيرة والضياع، والصراع مع ذاتهم، والتخاصم مع عقولهم، إلاّ إذا طُرِدَتْ بدعةُ التثليث من ديانتهم، وعادتْ وحدانيّة الله إليها، لتكون أساس إيمانهم، وركيزته، وعماده؛ وبدون ذلك، فلا دواء ينفع، ولا شفاء يرتجى » (٢٥١).

بولس هو المسؤول عن إدخال هذه العقيدة الفاسدة في المسيحية : « بركان رهيب فجرّته في المسيحية عقيدة بولس التثليثية، ولا أحد يعلم إلاّ الله متى يخمد، ويهدأ، ويستكين » (٢٦٤).

طالما يؤمن المسيحيون بالتثليث فهم إلى الأبد مشركون : « عوامل الشرك في المسيحية قائمة واضحة، طالما أنّ عقيدة التثليث فيها قائمة معتمدة » (٢٧١ ــ ٢٧٢). هذا يعني أنّ المسيحيين والمشركين سواء بسواء. ويجب أن تجرى عليهم، إذن حدود القرآن وأحكامه، من تقتيل وتكفير وجهاد ضدهم واعتبارهم أنجاساً ظالمين ...

* * *

أمّا مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد فيعترف بـأنّ « مـن أبـرز العقائـد النصرانية الأساسية اعتقادهم بالتثليث » (٦٠١). ويعترف أيضاً بأنّها عقيدة عامة شاملة جميع الكنائس والمسيحيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم : « يبدو أنّ جميع الكنائس متّفقة علـى القول بالتثليث هذا... » . ومع اتّفاقها جميعها تبقى معاناة المسيحيين حيال فهمهـا وإدراكهـا مستعصية على العقل. ومع هذا فهم يبذلون جهدهم ليقرّبوها إلى عقول الناس.

يقول سماحة الشيخ : « ولكي يخرج النصارى من عقدة الاختلاف مع نزعة التوحيد الجليّة في التوراة، وهي كتاب مقدّس لديهم، فهم يبذلون كل وسعهم للتوفيق بين ما يقولون به من التثليث، وما جاءت به التوراة من التوحيد. ولكنّهم، مع كل ما يبذلون، تبقـى محـاولاتهم مستعصية على العقل كل الاستعصاء، لأنّها في الحقيقة شبيهةٌ بمحاولة الجمع بين النقيضين أو التوفيق بين المتضادين » (٦٩٧).

ويصرّح المفتي، بعد اكتشافه عجزَ العقل المسيحي عن تفسير ما اخترع على الله من مثلّثات، بأنّ المسيح عيسى، بحسب تأكيد القرآن، هو عبد لله، مثله مثل سائر الأنبيـاء : « إنّ عيسى ليس ابناً لله، وليس إلهاً. وهو أيضاً ليس أحد آلهة ثلاثة. وإذا كان القول ببنوّة عيسى لله أو بألوهيّته كفراً، فإنّ القول بتعدّد الآلهة وأنّه أحدُها لا يقلّ عن ذلك جنوحاً في الكفر وإغراقاً في البعد عن الحق والصواب » (٧٠٢).

وحجّة المفتي في نفي التثليث هي أنّ القول بآلهة يفرض « أنّ كلّ واحد من الآلهـة سينفرد بخلقه وملكه وسلطانه، ويحجب عن الآخرين القدرة على التدخّل فيهما (كذا). وهـو عجز في حق المحجوب والممنوع. والعجز والألوهيّة لا يلتقيان، أو سـيقع بينهمـا التحـدّي وسيتقاتلان... » (٧٠٣).

يبدو أنّ سماحة المفتي، في كلامه على عقيدة التثليث، وفي نفيه لها، ينطلق من شفقته على المسيحيين الذين يحاولون دائماً فهم عقيدتهم، ولكن دون جدوى.

ومع شفقته يريد تبسيط الأمور لهم ليدركوا هذا المثلَ الشائعَ بإثباتِ وجوبِ فرديّــةِ الرئاســةِ والقيادةِ، هو : « رئيسان في المركب يغرّقانه » . وهو مَثَلٌ لا يُنسى أبداً. وينبغي الاســتفادة منه » (٧٠٣).

* * *

وللشيخ الإمام محمد أبو زهرة أيضاً رأيه وموقفه وأسلوبه في التعبيــر. ولا يختلــف كثيراً عمّن سبقه ولا عمّن لحقه. وسرد بعض أقواله قد يكون من قبل التأكيد على إجماعٍ عند المسلمين كافّة. غير أنّه يركّز، أكثر من سواه، على أنّ العقل المسيحي، في عقيدة التثليــث، يجمع بين المتناقضات، ويوفّق بين الأضداد، بتعابير يحمّلها أكثر ممّا تحمل.

قال : إنّ النصارى « لم يعتمدوا، في إثبات تلك العقيدة، على أي دليل عقلي، بل كل اعتمادهم على ما عندهم من نقل يحمّلونه من أثقال المعاني ما تنوء به العبارات، ولا تحتملــه أبعد الإشارات... لم يحاولوا أن يتّجهوا إلى العقل لإثبات قضيّتهم من بدهيّاته. فإنّ ذلك لــيس في قدرة أحد، إذ ليس في قدرة أحد من البشر جمع النقيضين في قرن، والتوفيق بين الأضداد. وقضيّتهم والبدهيّات العقليّة نقيضان لا يجتمعان.

« ونرى أنّ اعتمادهم على النقل لا يُغني من الحقّ شيئاً، لأنّ شــروط الإنتــاج فــي استدلالهم غير مستوفاة، إذ ترى أنّ تلك العبارات التي عثروا عليها في كتبها لا تفيد على وجه القطع ما يريدون... هذا وانّ الاستدلال بكتبهم يفيد من يصدّقها، وهي ذاتهــا يعروهــا النقــد العلمي في سندها » (محاضرات في النصرانيّة، ص ١٠٦).

نحن نرى إذن في كلام الشيخ الإمام طعنه في عقيدة الثالوث المسيحية في خلال طعنه في العقل، وطعنه في الكتب التي يعتمد عليها العقل، وفي البراهين الضعيفة التي يقدّمها، وفي الأسلوب الذي به يعالجها، وفي التعابير التي يحمّلها

أكثر ممّا تحتمل، وَفي الاستنتاجات المنطقية التي لا تستوفي شروطها... كل ذلك يدلّ على وهن هذه العقيدة المسيحية إذا ما خضعت للعقل البشري العادي.

* * *

والشيخ العلاّمة محمد جواد البلاغي، هو الآخر، يتعامل مع جدول الحساب، من جمعٍ وطرحٍ، فلا يتوصّل إلى حلٍّ لغزِ الثالوث الإله الواحد. فهو يجمع ثلاثةَ بعضَها مع بعض فإذا هي ثلاثة. والواحد هو جزء من ثلاثة. ولا يعقل كيف يكون ثلاثة كواحد وواحد كثلاثة. الواحد وحده كالثلاثة مجتمعة. والثلاثة مجتمعة لا تزيد عن الواحد بشيء. والواحد لا ينقص عنه، منفرداً كان أم مجتمعاً مع الثلاثة، شيء البتة. إنّها، في رأي الشيخ العلاّمة، « تلوّث » في العقل، و « عمى » في البصيرة والإيمان. ويتصوّر حواراً بين رجلين مسيحيين على ما يلي :

عمّانوئيل : « ... نعم. ينتقد القرآن على النصارى عقيدةَ التثليث البرهمي البوذي الروماني ويبرّء (كذا) المسيح من التلوّث بهذا التثليث.

أليعازر : « ... وأمّا عقيدة التثليث فإنّ وجدانيّ لا يقبلها منذ حداثتي. ولكن ساداتنا القسوس يعلّموننا بأن نؤمن بها إيماناً أعمى، ولا يرضون لنا أن نراجع وجداننا فيها، ونزنها بالمعقول، فآمنّا بها إيماناً بسيطاً. العفو يا سيّدي القسّ! فإنّي لا أتعقّل أن يكون الله واحداً ذا ثلاث (كذا) أقانيم : الأب في السماء، والابن الإله المتجسّد في الأرض يجوع ويعطش ويحزن ويكتئب ويقتل، والروح القدس يصعد وينزل وينقسم على التلاميذ. وإنّ هذه الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة. العفو يا سيدي! أنا تاجر أعرف أبواب الحساب : فكيف أذعن بأنّ الواحدَ الحقيقي ثلاثةٌ، والثلاثةَ المختلفةَ في الصفاتِ والآثار تكون واحداً حقيقيّاً ؟! » (الرحلة المدرسية، ص ٨٢).

* * *

أمّا العلاّمة ابن قيّم الجوزية فلا نجد عنده معالجة للثالوث، بل يهزأ باستمرار من « المثلّثة عبّاد الصليب » ، ومن « المثلّثة أمّة الضلال وعبّاد الصلبان الذين سبّوا الله الخالق مسبّة ما سبّه إيّاها أحد من البشر » (٨). ومن « معاشر المثلّثة وعبّاد الصلبان وأمّة اللعنة والغضب » (١٢٩)... هذه التعابير نجدها في كل صفحة من كتابه « هداية الحيارى » . فليراجع الكتاب.

* * *

أمّا ابن تيمية شيخ الإسلام، ورأس مَن وقف شارحاً ومفسّراً مقولات النصارى، فانّ له من عقيدة التثليث تفصيلاً وتوسيعاً، وانتقاداً لا حدّ له. فهو يستعرض تعاليم النصارى في معظمها، ابتداءً من نصوص العهد القديم، مروراً بالأناجيل والرسائل، حتى « الأمانة » أي « قانون الإيمان » ، ويأخذ منها، بعد تفنيدها، موقفاً رافضاً عدائيّاً. ولنا أن نأخذ من كتابه عيّنات من موقفه الواضح.

يقول : « الأب والابن والروح القدس، فإنّ هذه الألفاظ... ممّا ابتدعوه (النصارى) لم يدلّ عليه شرع ولا عقل. وهم زعموا أنّ الكتب الإلهية نطقت بذلك... ثمّ تكلّفوا لما ظنّوه ففسّروه تفسيراً ظنّوه جائزاُ في العقل... ومن المعلوم أنّه ليس في الكتب الإلهيّة ما يدلّ على ذلك، بل فيها ما يدلّ على نقيضه. وإنّ النصارى لا يميّزون بين ما يمتنع في العقل وبين ما يعجز عنه العقل » (الجواب الصحيح، ٢ / ٩٢ ــ ٩٣).

ثمّ إنّ النصارى « ليس معهم بالتثليث لا حجة سمعية ولا عقلية، بل هو باطل شرعاً وعقلاً » (٢ / ١٠٢). وقولهم بالأقانيم باطل من أساسه « مع بطلانه في العقل والشرع لم ينطق به عندهم كتاب، ولم يوجد هذا اللفظ في شيء من كتب الأنبياء التي بأيديهم، ولا في كلام الحواريين، بل هي لفظة ابتدعوها، ويقال إنّها رومية، وقد قيل: الأقنوم في لغتهم معناه: الأصل، ولهذا يضطربون في تفسير الأقانيم، تارةً يقولون أشخاص، وتارة خواص، وتارة صفات، وتارة جواهر، وتارة يجعلون الأقنوم اسماً للذات والصفة معاً، وهذا تفسير حذّاقهم » (٢ / ١٠٢).

وفي فصل بعنوان « في بطلان كون الثلاثـة إلـه واحـد » (٢ / ١١٤ ــ ١٢٣) يعرض شيخ الإسلام قول النصارى بأنّ « الثلاثة أسماء فهي إله واحد، وربّ واحد، وخـالق واحد، ومسمّى واحد لم يزل ولا يزال شيئاً حيّاً ناطقاً، أي الذات، والنطق، والحياة، فالـذات : الأب الذي هو ابتداء الاثنين، والنطق : الابن الذي هو مولود منه كولادة النطق مـن العقـل، والحياة : هي الروح القدس » .

والجواب عند ابن تيمية على هذا المعتقد من وجوه :

١ً ــ إنّ أسماء الله تعالى متعددة كثيرة، أكثر من ثلاثة : « إنّ لله تسـعة وتسـعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة » (الصحيحان)... وإذا كانت أسماء الله كثيرة... فالاقتصـار على ثلاثة أسماء دون غيرها باطل.

٢ً ــ إنّ القول بأنّ الأب هو ابتداء الاثنين، والابن هو النطق، والروح هـو الحيـاة، يعني أنّه اقتضى ذلك أن يكون الأب قبْلَ النطق والحياة. وهذا في حقِّ الله باطل. والقول بـأنّ الابنَ نطقُ العقلِ يعني أنّ الابنَ متأخّر عن العقل كتأخرِ النطق عن العقـل وتدرّجـه نحـو الكمال. وكذلك القول بأنّ الروح حياة، يعني أنَّ الروح متأخّرة عن الله مبدئِها. وهـذا باطـل أيضاً.

٣ً ــ إنّ القول بأنّ الابن مولود من الله، والولادة صفة لازمة لله، كذلك الحياة صـفة لازمة لله، فيكون الروح القدس أيضاً ابناً ثانياً لله. وهذا ما ترفضه النصارى. وكان عليهم أن لا يرفضوه، لأنّه من منطق عقيدتهم.

٤ً ــ إنّ تسمية حياة الله روح القدس أمر لم تنطق به الكتب. فهو تبديل وتحريف من النصارى.

وبالنتيجة، إنّ النصارى « يثبتون ثلاثة آلهة، ويقولون : إنّما نثبت إلهاً واحداً، وهـو تناقض ظاهر، وجمع بين النقيضين : بين الإثبات والنفي. ولهذا قال طائفة من العقـلاء : إنّ عامة مقالات الناس يمكن تصوّرها إلاّ مقالة النصارى، وذلك أنّ الذين وضعوها لم يتصوّروا ما قالوا، بل تكلّموا بجهلٍ، وجمعوا في كلامهم

بين النقيضين، ولهذا قال بعضهم : لو اجتمع عشر نصارى لتفرّقوا عن أحد عشر قولاً. وقال آخر : لو سألت بعضَ النصارى وامرأَتَه وابنَه عن توحيدهم لقال الرجل قولاً، وامرأتُه قــولاً آخر، وابنُه قولاً ثالثاً » (٢ / ١٥٨).

* * *

هذا باختصار ما يجول في خاطر المسلمين وكتبهم من نقض لعقيدة مسيحية أساسية. ولولا هذه العقيدة لما كانت مسيحية، ولولاها أيضاً لما اختلف الإسلام عــن المســيحية، بــل نستطيع القول: لولاها لما كان إسلام. أو لكان الإسلام والمسيحية دينــاً واحــداً مــع بعــض الفروقات الشكلية... ولهذا السبب كان أبو موسى الحريري يقرّب بين الإســلام والنصــرانيّة على أنّهما دين واحدٌ، إذ إن النصرانية، كالإسلام، لا ثالوث فيها، وبالتالي لا مسيح هو عندها أكثر من نبيّ.

رابعاً ــ الرّوح القدس

« روح القدس » تعبير استعمله القرآن أربع مرّات (٢/ ٨٧، ٢٥٣؛ ٥/ ١١٠؛ ١٦/ ١٠٢). ويستعمله المسلمون على مختلف نزعاتهم وشيعهم، ويعنون به إمّا الملاك جبريل، وإمّا الوحي والتأييد الربّاني. إلاّ أنّه يعني عند المسيحيين ذاتاً إلهيّاً هو الأقنوم الثالث من الثالوث الإلهي. هو، بحسب قانون الإيمان : « الروح القدس، الربّ المحيي، المنبثق من الآب والابن، الذي هو مع الآب والابن، يُسجَد له ويمجّد، الناطق بالأنبياء والرسل » .

فالخلاف، إذاً، بين الإسلام والمسيحية، فيما يخصّ روح القدس، جوهري. والمسلمون جميعهم، على تعدد معتقداتهم، متّفقون على تكفير المسيحيين في عقيدتهم في الروح القدس. ولنبدأ بآخرهم زماناً : السيّد شريف محمد هاشم، صاحب كتاب « الإسلام والمسيحية في الميزان » . يقول في مجال ردّه على الحريري :

« لا نظنّ أنّ القارئ، بعد هذه الدّوّيخة (في الكلام على هويّة الروح القدس)، التي مرجحه المؤلّف (الحريري) فيها، بات قادراً أن يفهم ممّا قاله شيئاً. صفحتين بالكامل من لقيطه (أي كتابه قس ونبيّ) ملأهما، وهو عالق بين الروح القدس أمِّ المسيح، وجنسيّةِ الروح القدس مؤنّث أم مذكّر... ثرثرة يخجل بمثلها طفلٌ في الصفوف الابتدائيّة » (٥٦٥).

لا بدّ من بعض التوضيح، بعد أن نال الحريري من السيّد هاشم في هذا الفصل ما ناله من سهام وشظايا. ولكن ليس الذنب ذنب الحريري، بل هو

ذنب النصوص القرآنية التي تخلط وتتمرجح في تعبير الروح القدس. هذا الروح، تارة هو الله، وطوراً هو الملاك جبريل، وثالثة هو الوحي والتأييد، ورابعة هو مذكّر، وخامسة هو مؤنّث، وسادسة هو روح المسيح، وسابعة هو أمّ المسيح.

والاستشهادات على هذه « الدويخة » كثيرة جدّاً في الكتاب « اللقيط » ، بحسب ما يحلو للسيد هاشم تسميته. ولأهميّة هذا الموضوع اقتضى على الحريري الكثير من التوضيح والشرح والاستشهادات والمراجع ممّا جعل السيّد هاشم يتعب و « يدوخ » ويتململ ويتعقّد من كثرة « الثرثرة » .

أمّا أن يصل السيّد هاشم، بعد هذه « الدويخة » ، إلى هذه النتيجة السريعة والبسيطة حتى السذاجة، فهذا ما نحذّر منه القارئ العزيز. قال السيد هاشم : « آيات القرآن واضحة، والروح القدس فيها تعني جبرائيل. فأين الخلط فيها بين الروح القدس وجبرائيل، وهما في القرآن واحد ؟! » (٥٦٥).

نبادر سريعاً إلى هذه الآيات. يقول القرآن : « وآتينا عيسى بنَ مريمَ البيّنات، وأيّدناه بروح القدس » (٢ / ٨٧، ٢٥٣). ويقول : « اذكر نعمتي عليكَ وعلى والدتك إذ أيّدتُك بروح القدس » (٥ / ١١٠). ونحن نريد أن نذهب مع السيد هاشم ومع معظم المفسّرين المسلمين، ونقول معهم بأنّ الروح القدس هو جبريل، مع أنّ الآيات المذكورة توحي غير ذلك.

ونسأل : من أين جاء القرآن بتعبير « روح القدس » ؟ ألم يسمعها من النصارى ؟ ولماذا يستعمل هذا التعبير عينه، وهو عند النصارى، منذ بدء المسيحية، يعني شخصيّة إلهيّة مميّزة ؟ وأقنوماً إلهيّاً مع أقنومَي الآب والابن... المهمّ عندنا أنّ للقرآن في الروح القدس مصادر يجب أن نعيرها ما تستحق. ولسنا نبغي من السيد هاشم أكثر من ذلك.

يضاف إلى هذه « الدويخة » التي اعترت السيد هاشم « سخريته » التي نتلمّسها في كلامه هذا. يقول : « كان موضوع الروح القدس من أفضَل الحلول المطروحة لتلك المشكلة العويصة (أيّ مشكلة تبرير حمل مريم العجيب وتفسيره لخطيبها

يوسف). ولكن الملفت للنظر أنّ الروح القدس لم ينته دوره عند هـذا الحـدّ (فـي حلـول المشاكل) بل رأينا رسل المسيحية الأوائل يحتفظون به للأزمات والملمّات الصـعبة. فكـان ملجأهم في شتّى مآزقهم... وحلُّ أية معضلة نجده في جعبة الروح القدس، ورهن إشـارته » (٢٨٣).

هذا موقف مَرِحٌ من مواقف السيد هاشم وارتياحِهِ التام لما يعتقـد. هـو، ببسـاطة لا يخالجها شكّ أو اضطراب، يُبيد عصوراً مسيحيّةً وأجيالاً برمّتها. ولو أنّ السيد هاشم تسـاءل قليلاً، أو حاول أن يفهم سرّ إيمان المسيحيين، أو توقّف عن الأحكام المبرمة..، لهان الأمـر علينا وعليه في المناقشة والتحاور. إلاّ أنّه كان في رأيه قاطعاً. لا مجال لأيّ حوار. وحكمـه على الروح القدس قاطع أيضاً، كحكمه على كل شيء. وممّا يعزّيه أنّـه لـيس وحـده فـي المعركة، بل جميع المسلمين في ذلك سواء.

* * *

سماحة الشيخ مفتي الجمهورية حسن خالد، في مسألة الروح القدس، واضح صـريح. وقد نستطيع أخذ الموقف الإسلامي المعاصر والصريح من فم سماحته. عنده، الروح القـدس هو جبريل، لا شكّ في ذلك. بل هكذا اتّفق جميع مفسّري الآيات. يقول : « والمقصود بالروح القدس جبريل عليه السلام. والعبارة مؤلّفة من كلمتين : الروح وهو جبريل، والقدس وهو الله تعالى. وقد أضاف الله جبريل إلى نفسه تعظيماً له » . قال النحّاس : سمّي جبريـل روحـاً، وأضيف إلى القدس، وهو الله، لأنّه كان بتكوين الله له روحاً من غيرِ ولادةِ والدٍ وَلَدَهُ. وكذلك سمّي عيسى روحاً لهذا » (موقف الإسلام...، ٧٠٣ ــ ٧٠٤)، أي لأنه من غير والدٍ وَلَدَه.

ويوضح سماحة المفتي كلامه قائلاً : « إنّ روح القدس لم يك مختصّاً بعيسى وحـدَه، ولا برسولٍ آخر سواه قبله أو بعده. وليس روح القدس إلهاً، وإنّما هـو جبريـل، خلقـه الله وأضافه إلى ذاته تعظيماً له. وهو يرسله ليؤيّد له من يشاء من عباده الصالحين » (٧٠٦).

* * *

كلام المفتي ككلام المسلمين جاء طبق الأصل عن كلام شيخ الإسلام ابن تيمية. يقول ابن تيمية : « روح القدس الذي نزل بالقرآن من الله هو الروح الأمين وهو جبريل، والتأييد بروح القدس ليس من خصائص المسيح » (الجواب الصحيح، ١ / ٢٦٤ ــ ٢٦٥).

« ثمّ إنّ روح القدس لا تختص بالمسيح... روح القدس حلّت في غير المسيح، في داود، في الحواريين، وفي غيرهم... فإن كان روح القدس هو حياة الله، ومَن حلّتْ فيه يكون لاهوتاً، لزم أن يكون إلهاً، لزم أن يكون كلُّ هؤلاء فيهم لاهوت وناسوت كالمسيح. وهذا خلاف إجماع المسلمين والنصارى واليهود. ويلزم من ذلك أيضاً أن يكون المسيح فه لاهوتان: الكلمة، وروح القدس. فيكون المسيح مع الناسوت أقنومين : أقنوم الكلمة، وأقنوم روح القدس... » (٢ / ١٢٧).

وفي مكان آخر، يقول شيخ الإسلام : « وروح القدس : قد يراد به المَلَك المقدّس كجبريل، ويُراد بها الوحي والهدى والتأييد الذي نزّله الله بواسطة المَلَك، أو بغيرِ واسطته. وقد يكونان متلازمين، فإنّ المَلَك ينزل بالوحي، والوحي ينزل به المَلَك، والله يؤيّد رسلَه بالملائكة وبالهدى » (٢ / ٩٩ ــ ١٠٠). ويتأرجح شيخ الإسلام في معنى روح القدس. فيقول ولهذا قال كثير من المفسرين : إنّه جبريل، وقال بعضهم : إنه الوحي » (١ / ٢٦٥).

* * *

ويبقى التأرجح طالما لا يسلّم المسلمون بأنّ « روح القدس » لفظة أخذوها عن المسيحية، ولكن أخذوها دون معانيها اللاهوتية أو أبعادها المسيحية الوافرة غنىً ونعمةً.

خامساً ــ مريم أمّ عيسى

صورة مريم في الإسلام صورة جميلة محبّبة. لها في القرآن ما تستحقّ مـن تكـريم وتبجيل. فمريم، فيه، تُنسب إلى سلالة هارون، ومن ذرّيته، اصطفاها الله على نساء العالمين (٣ / ٤٢)، كما اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران، وهي آية للعالمين (٣ / ٣٣). حبلت بها أمّها، بعد أن نذرتها لله، فقبل الله نذرها (٣ / ٣٥). ولمّا ولدتها سـمّتها مـريم، فتقبّلها الله بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً (٣ / ٣٦ ــ ٣٧).

ولمّا كبرت مريم دخلت الهيكل، واتّخذت لها فيه مكاناً بعيداً عن الأنظـار، وتكفّلهـا زكريا، رئيس الكهنة آنذاك، ورزقها الله من عنده رزقاً عجائبياً هو من ثمار الجنّة، واستمرّت في خلوتها في الصوم والسجود والركوع (٣ / ٤٣)، إلى أن حان وقت زواجها (١٩ / ١٦ ــ ١٧، ٣ / ٣٧، ٤٤).

وفيما هي غارقة في العبادة والصلاة، جاءها جبريل، وتمثّل لها رجلاً (١٩ / ١٧)، فارتعبت منه واستعاذت بالله (١٩ / ١٩)، فطمأنها وبشّرها بولد يولد منها، لا من زرع بشر (١٩ / ٢٠، ٣ / ٤٧)، هو وإيّاها يكونان آية للعالمين. هو كلمة الله، وروح منه، ورحمـة، ووجيه في الدنيا وفي الآخرة، من المقرّبين والصالحين (١٩ / ٢١، ٣ / ٤٥ ــ ٤٦).

ولمّا حان وقت ولادة ابنها « انتبذت به مكاناً قصيّاً » (١٩ / ٢٢)، في البريّة، عند نخلة جلست تحتها تنتظر مولودها، وتندب تعاستها، لما ستتعرّض إليه من تهم ولوم. وتمنّـت لو أنّها ماتت. فقالت : « يا ليتني متّ قبل هذا. وكنتُ نسيّاً منسـيّاً » (١٩ / ٢٣). ولكنّهـا تصبّرت وجاءت أهلها. فلما رأوها قابلوها

بالعتاب وسوء الظنّ : « فقالوا : يا مريم! لقد جئتِ شيئاً فريّاً. يا أخت هارون! ما كان أبوك أمراً سوء، وما كانت أمّك بغيّاً » (١٩ / ٢٧ ـــ ٢٨).

ولم يبقَ عند مريم حيلة سوى الإشارة إلى طفلها ليرفع عنها التهم؛ وإلاّ جرت عليها أحكام شريعة موسى في الزنى، من رجمٍ وقتلٍ وما يتبعهما من عار وشنار. وللحال قام الطفل يتكلّم ويُعلن نبوّته وعلاقتَه بالله. ويُعلن براءَةَ أمّه. قال القرآن : « فأشارت إليه. قالوا : كيف نكلّم مَن كان في المهدِ صبيّاً ؟ قال : إنّي عبدُ الله. آتاني الكتاب. وجعلني نبيّاً. وجعلني مباركاً أين ما كنت. وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً. و (جعلني) بَرّاً بوالدتي. ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً. والسلام عليّ يوم وُلدتُ، ويوم أموت، ويوم أبعث حيّاً » (١٩ / ٢٩ ـــ ٣٣).

* * *

صورة مريم القرآنية رائعة، لها في المصادر النصرانية شَبَه وقرابة. من هذه المصادر : مقدّمة إنجيل يعقوب، إنجيل الطفولة، كتاب ميلاد مريم، إنجيل متى، إنجيل لوقا، والإنجيل العبراني... فالتقليد المريمي الواسع الانتشار، منذ بدء المسيحية، جعل موقف القرآن من مريم موقفاً قريباً جدّاً من مواقف النصرانيّة وتعاليم آباء الكنيسة والكتب المنحولة والرسمية سواء.

والمسلمون، بعد القرآن، لا يزالون يكرّمون مريم ويعظّمونها ويقدّسونها ويُعلون شأنها. فهي المرأة الوحيدة التي يذكرها القرآن باسمها (٣٤ مرّة). وهي اختارها الله وميّزها وطهّرها وأعلاها فوق نساء العالمين... لكأنّه سبق وأعلن عصمتها من الخطيئة، وأعلن حبلها من غير دنس. وللنبي في قداستها حديث : « ما من مولود يولد إلاّ والشيطان يمسّه حين يولد، فيستهل صارخاً مِن مسِّه إلاّ مريم وابنها » (تفسير البيضاوي على ٣ / ٣٦)[1] .

* * *

(١) انظر مقالة « مريم في القرآن والإسلام » ، في مجلّة شربل، العدد ٢٦٠، السنة ٢٣، ت ١ ـ ك ١. ١٩٨٧، صفحة ٤٣ ـ ٥٢.

لا بدّ من كلمة توضيح ونقول : حتى الآن، وبعد ٥٦٠ صفحة من الكتاب، لم يُدرك السيد هاشم أنّ الحريري لا يُحرج القرآن، ولا النبيّ، ولا الإسلام، ولا المسلمين، ولا ربّ الكعبة، ولا الجبال الرواسي، ولا البحار المسجورة، ولا سابحات الفلك، ولا العاصفات، ولا الناشرات، ولا الفارقات، ولا المُلقِيات، ولا النازعات، ولا الناشطات، ولا السابقات، ولا المدبّرات(٢)... الحريري، مقصدُه وغايتُه، من البداية حتى النهاية، إظهارُ حقيقة المقارنةِ والمقابلةِ بين القرآن والمصادر النصرانيّة.

يضاف إلى ذلك أنّ الحريري لا يُصدِرُ أحكاماً، ولا يُقرّر، ولا يَشترع... بل هو يستنتج استنتاجاً من نصوصٍ بين يديه، يقابلها، يقارن بينها، ليطلع بنتيجة واحدة، وهي القول بأنّ للقرآن مصادر في التاريخ، منها استقى علومه، وعنها نقل عقيدته. ولا يهمّ الحريري مطلقاً أن يحكم بأنّ المسيحية على حقّ، والقرآن على ضلال، أو العكس.

والعجيب كل العجب أن لا ينزعج السيد هاشم من كلام الحريري في مريم أم عيسى! ألعلّه لم يدرك مقصد الحريري القائل، في هذا الموضوع كما في غيره، بأنّ القرآن، في نظرته إلى مريم أمّ عيسى. أخذ معلوماته عن الكتب النصرانيّة المحرّفة ؟! أرضي الآن بهذا القول الحريري عن القرآن! أم أنّه تعب من الطعن واللعن وتوزيع التهم والألقاب!

* * *

وسماحة الشيخ حسن خالد هو أيضاً يظهر رضاه على مريم أمّ عيسى وعقيدة المسيحيين فيها. فهو لا يرى عندهم بالنسبة إليها شيئاً يؤخذون عليه. إنّه يتتبّع القرآن ليدلّ على « منبت مريم عليها السلام وأصلها ونشأتها وسلوكها وسبب حملها وكيفيته ثم بولادتها المعجزة وظروفها » (٦٤٩). وفي رأيه أنّ القرآن جاء

---

(٢) ألفاظ قرآنية مأخوذة من سورتي المرسلات رقم ٧٧، والنازعات رقم ٧٩.

بالقول الفصل. إنّه « الموقف المنبثق عن العلم، والصادر عن الإيمان، والمؤيد للحقيقة وواقع الأمر، بعيداً عن مزالق الهوى، وتيّاراته الشاردة الضالة » (٦٥٥).

مريم القرآن قد حظيت بنعم الله و « فازت برعايته، وحفظه، وعنايته... وهيّأ لها الإحاطة والرعاية الفاضلة... وقد زادها الله من هذه الرعاية واللطف... فأكرمها كل الإكرام، حيث أرسل إليها الملائكة، يقدّمهم جبريل عليه السلام. وهذا في منتهى الحفاوة والإعزاز، لأنّه، باتّفاق العلماء، لم يتّفق أن وقع مثله لأنثى غيرها. وقد طهّرها وعصمها من الكفر والعصيان، وأغناها عن مسيس الرجال، ونقّاها من الحيض والنفاس، وخلاّها من الأفعال الذميمة، والتصرّفات القبيحة، والعادات البشعة، وأكّد لها ولكل الناس، الذين كانوا يلقونها ويهتمّون بأخبارها، أنّها طاهرة، ومبرّأة ممّا ينسبه إليها اليهود... » (٦٥٥ ــ ٦٥٦).

وهناك أيضاً « موقف آخر للإسلام، في رأي سماحة المفتي، بالنسبة إلى السيّدة مريم، يكشف به الحقيقة، ويزيل عنها كل لبس وغموض، ويؤكّد أنّ حملها كان ظاهرة خارقة للعادة، وهي التي سبق وأكرمها الله، ورعاها، واصطفاها، وطهّرها، وأحاط نشأتها بالخوارق لطبائع الأشياء والسلوك والعيش » (٦٥٨).

ثمّ يتابع سماحة الشيخ شرحه المستفيض عن قداسة مريم فيقول : « والسيدة مريم المبرّأة من كل عيب، والمطهّرة من كل دنس، والمصطفاة، شاء الله لها أن تحمل بعيسى حملاً من غير مسيس رجل، وبكلمته التي لا مردّ لها، فأرسل إليها الروح الذي أرسله من قبل إلى الأنبياء ومن بعد ونفذ أمره، وحمل لها كلمة التكوين، وبلّغها إيّاها، وكان ما شاء الله تعالى له أن يكون... » (٦٦٠).

ويختم الشيخ مقاله المريمي قائلاً : إنّ الله باختياره مريم، وتبرئته لها من افتراءات اليهود عليها، « رفعها إلى المستوى البشري الذي لا ترتفع إلى مثله أنثى من العالمين » (٦٥٧).

* * *

مع الإمام العلاّمة ابن قيّم الجوزية يختلف الأمر، فهو يأخذ على المسيحيين إيمـــانهم بأمومة مريم لله. ويستعرض مقولات النصارى في مريم بشيء من السخرية. ولا يتورّع من وصفهم بــ« الأوقاح والأرجاس » . يقول :

« وأمّا قولهم في مريم، فإنهم يقولون إنّها أمّ المسيح ابنِ الله في الحقيقة، ووالدتُه فـــي الحقيقة؛ لا أمّ لابن الله إلاّ هي؛ ولا والدة له غيرها، ولا أب لابنها إلاّ الله، ولا ولد له ســـواه؛ وإنّ الله اختارها لنفسه، ولولادة ولده وابنه من بين سائر النساء، ولو كانت كسائر النساء لمـــا ولدت إلاّ عن وطء الرجال لها، ولكن اختصت عن النساء بأنّها حبلت بابن الله، وولدت ابنـــه الذي لا ابن له في الحقيقة غيره، ولا والد له سواه، وإنّها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها، وابنها عن يمينه.

« والنصارى يدعونها ويسألونها سعة الرزق، وصحة البدن، وطول العمر، ومغفـــرة الذنوب، وأن تكون لهم عند ابنها ووالده ــ الذي يعتقد عامّتهم أنّه زوجها ولا ينكـــرون ذلـــك عليهم ــ سوراً وسنداً وذخراً وشفيعاً وركناً. ويقولون في دعائهم : يا والدة الإله اشفعي لنـــا. وهم يعظّمونها ويرفعونها على الملائكة وعلى جميع النبيين والمرسلين. ويسألونها ما يســـأل الإله من العافية والرزق والمغفرة...

« هذا، والأوقاح الأرجاس من هذه الأمّة تعتقد أنّ الله سبحانه اختـــار مـــريم لنفســـه ولولده، وتخطاها كما يتخطّى الرجل المرأة » (هداية الحيارى، ١٣٩ ــ ١٤٠).

ابن قيّم الجوزية يأخذ إذاً، على المسيحيين، عقيدتهم في مريم. تلك العقيدة التي حدّدتها الكنيسة، عبر العصور، وعلّمتها، وآمنت بها. ويأخذ عليهم أيضاً بأنّهم يطلبون منهـــا مـــا لا يُطلب إلاّ من الله. ويزعجه إيمانهم بها على أنّها « أمّ الله » ، أو « والدة الإلـــه » ... وهـــذه المآخذ ليست، في الواقع، خاصّة بابن قيّم الجوزية. إنّها مآخذ المسلمين جميعهم. ولكنّ قلـــيلاً منهم من يهمّه ذلك، بقدر ما يهمّهم التوقّف على تعظيم القرآن وتكريمه لمريم. والمآخذ قـــد لا تذكر أمام قداسة مريم ونقائها اللذين أعلنهما القرآن والمسلمون من بعده.

الفصل السادس

السلوك المسيحي في فهم المسلمين

أولاً ــ دور بولس الرسول

ثانياً ــ مجمع نيقية (٣٢٥)

ثالثاً ــ الممارسات المسيحية

رابعاً ــ المرأة وأحكام الزواج والطلاق

خامساً ــ الحياة الرهبانية

[Plank Page]

أصبح همّ السيّد هاشم، بعد ٥٦٦ صفحة، ليس في المقارنة بين المصادر النصـــرانيّة والقرآن، بل إظهار أيّة ديانة من الديانتين هي على صراط مستقيم لقد صرّح قـــائلاً : « لـــن نهتمَّ بدفع تهمة الترابط المزعوم بين الإسلام والإبيونيّة » ، بل « أن نبيّن أيّة ديانةٍ خرجـــت عن القاعدة حتى صارت شواذاً، وأيّتها حافظت على الخط مســـتقيماً دونمـــا اعوجـــاج ؟ » (٥٦٦).

لقد تغيّرت غاية السيّد هاشم، وتغيّر هدف الكتاب، وتبدّلت أساليب البحـــث ومنطقـــه، وصارت الأبحاث تدور في اتّخاذ مواقف، وفي مشادّة بين الحريري وبين السيد هاشم. وأصبح همّ السيّد هاشم الطعن في المسيحية وممارسات المسيحيين وتبرير الإسلام والمسلمين في كل المواضيع التي سنقف عليها في هذا الفصل.

وقبل الخوض في المواقف الإسلامية من الممارسات المسيحية، نرى من الضرورة أن نقف على رأي المسلمين في نقطتين بارزتين جداً، هما : دور القديس بـــولس فـــي العقيـــدة والتعاليم المسيحية، ودور مجمع نيقية (٣٢٥ م) في تحديد العقائد، وخاصة عقيدة « التثليث الإلهي... » . ومن هاتين النقطتين ننتقل إلى معالجة رأي المسلمين في الســـلوك المســـيحي عامّة.

أوّلاً ــ دور بولس الرسول

قد يكون لرسول بولس، بالنسبة إلى المسلمين وإلى اليهود على السواء، أزعج شخصيّة على الإطلاق. فهو، في رأيهم قضى على ناموس موسى بالتمام، وأقام على أنقاضه مسيحية غريبة بمعتقدها وتأليهها للمسيح.

ولنبدأ بالسيد هاشم الذي يقول بأنّ المسيحيين تركوا المسيح ليلتحقوا ببولس وبتعاليمه دون وعي منهم. بل هم « كالمخدّرين » سكروا بدعوته وشخصيّته ورسائله، على حساب عيسى وتعاليمه وانجيله الحقيقي.

ففي موضوع الختان مثلاً، كانت المسيحية، في عهد عيسى تمارسه وتحافظ عليه، « حتى جاء بولس، فرفضه رفضاً قاطعاً، دون أن يعلّل أسباب هذا الموقف، وإن كان معروفاً، أنّ وراء هذا الموقف المتشنّج من الختان، رغبة بولس برفض كل ما يذكّره بيهوديّته، وبتاريخه الشخصي الأسود، الملطّخ بدماء المسيحيين.

وموقف بولس هذا، وتقيّد المسيحيين به، أظهرا في الحقيقة هامشية موقع المسيح في المسيحية أكثر فأكثر، وأكّدا بالتالي أنّ المسيحية في الواقع، ليست تعاليم المسيح، وإنّما مبادئ بولس.

« فرسائل بولس الشهيرة لم تُبق أمراً واحداً في تعاليم المسيح لم تعبث به، لتجعلها هباءً منثوراً، وأفكاره المسيطرة في المسيحية لم تُبق للمسيح في ديانته إلا اسمه.

« فناهيك عن موضوع الختان، ماذا ترك بولس في المسيحية أمراً لم يبدّله ؟

« استبدل وحدانيّة الله، الذي آمن وقال بها عيسى، بنظرية التثليث المعقّدة المشركة.

« واستبدل البساطة، التي كان المسيح يدعو إليها في تقرّبه وصلاته لربّه، بطقوس القربان، وأصنام الهيكل، وتماثيل الكنيسة الغريبة الشاذّة.

« واستورد للإيمان المسيحي من طقوس الديانات الأخرى، كل شاذ وغريب، حتى صارت الشعائر المسيحية فسيفساء يونانية، فينيقيّة، هنديّة. مصريّة، رومانيّة، يهوديّة، وثنيّة.

« والغريب العجيب، أنّ المسيحيين، رغم معرفتهم هذه الحقائق، نراهم كالمخدّرين، قد هجروا المسيح إلى بولس.

« ثمّ هل سنّة الختان وحدها، التي عارضت بها مسيحية بولس كل الأديان، وسنن الشعوب وعادات الأمم، النافع منها والضار ؟

« ولا نستبعد أنّ بولس كان سيقول بالختان ويفرضه، لو وجد بين الأمم من كان يرفضه أو يحرمه » (٥٦٧ ــ ٥٦٨).

ثم يدلّ السيّد هاشم على أنّ بولس هو المسؤول عن انحراف المسيحية عن مسارها، بل هو سبب كل مرض فيها. « وأتعس » ما جاء به بولس أنّه استمرّ أثره، عبر كل العصور والأجيال، يعمل في المسيحية، وهي لا تستطيع الخلاص منه بأيّ نوع من الأنواع. يقول :

« رسائل بولس .. كانت المسؤول الحقيقي عن هذا الدفع الخطير بالفكر المسيحي نحو الضياع والبلبلة والانحراف.

« وهي اليد التي سقت المسيحية الكأس المرة، التي لا زالت تترنّح في دوخانها من آثاره. رسائل بولس، هي التي أوقعت الإيمان المسيحي في شباك الشرك من جديد.

« ولا يزال هذا الإيمان من يومها، يناضل ويكافح عبثاً للخروج من مأزقه

دون جدوى، مما جعله مضطراً أن يكيّف وضعه بشتى الوسائل والأساليب، على أساس بقائه حبيس هذا الوضع البائس الشاذّ، ليبدو، رغم تعاسته، وكأنّه في عيشته راضياً مرضياً » (٢٢١ ــ ٢٢٢).

« في تلك الرسائل يكمن سرّ المرض المسيحي العضال. وإليها تعود مشاكل المسيحية المستعصية المتراكمة على مدى عشرين قرن ونيّف » (٢٢٣).

وفي الختام، حشر السيدُ هاشم بولسَ الرسول بسؤال عن أهميّة فداء المسيح في حين أنّ الخطيئة ما زالت مستحكمة برقاب البشر. يقول : « والسؤال نوجّههُ للقديس بولس بات مفروضاً : هل انتهى تورّط الناس بالخطيئة، بعد مجيء المسيح ؟ وهل تطهّر العالم من ذنوبه وخطاياه، بعد عمليّة الصلب المدروسة ؟ » (٢٣٠).

ويبدو أنّ أفكار بولس هي التي سيطرت وشاعت في نيقية، بل « أنّ اسم المسيحية والمسيحيين قد شاع بعدما صارت أفكار بولس في نيقية أساس الديانة المسيحية » (٢٤٠)

* * *

أمّا سماحة الشيخ حسن خالد فهو أيضاً يعطي لبولس الدور الأهمّ في تغيير مسار المسيحية، وفي تطوّرها من ديانة خاصة ببني إسرائيل، كما جاء بها المسيح، إلى جعلها ديانة مسكونية شاملة جميع البشر. بولس، في نظر سماحته، هو المسؤول عن هذا « التغيير » .

يقول الشيخ : كان عيسى « يتوجّه في دعوته ورسالته إلى بني إسرائيل وحدهم. ولم يعرف عنه، فترة وجوده وقيامه بأعباء رسالته، أنّه توجّه إلى غير بني إسرائيل، وإن كان الأمر قد تغيّر في عهد بولس، فتطوّرت الديانة النصرانيّة تطوّراً خطيراً واتّسع مدى توجّهها، ورحب أفقها رحابة ملفتة للنظر » (٥٠٧).

ويوضح سماحة الشيخ مردّداً ومؤكّداً فيقول : « المسيح لم يدّع يوماً أنّه رسول الله إلى العالمين، بل الذي نقل عنه أنّه لم يبعث إلاّ ليرعى خراف بني إسرائيل

الضالّة (متى ١٥ / ٢٤). وحين لفت البعض نظره إلى بعض المرضى الذين لم تكن لهم صلة رحم ونسب ببني إسرائيل ليعالجهم اعتذر.. وقد ثبت قطعاً بأن كل مخاطباته كانت موجّهة إلى بني إسرائيل.. ولكنّها (النصرانيّة)، رغم هذه الحقيقة، تحوّلت، لأمر أراده بعض قادتها، وعلى رأسهم بولس، من رسالة خاصّة إلى بني إسرائيل، إلى رسالة عامّة موجّهة إلى جميع البشر » (٥٠٨).

* * *

فالقديس بولس، إذاً، وفي رأي المسلمين، هو أساس فصل النصرانية عن اليهودية، وأساس شموليّة رسالة المسيح، فيما كان عيسى، في أيامه وفي وعيه « رسولاً إلى بني إسرائيل » ، كما يصرّح بذلك القرآن (٣ / ٤٩). واستمرّ تأثير بولس في النصرانيّة على مدى تاريخها، في مجامعها كافّة، كما في تعاليم باباواتها. وكان مجمع نيقية، في رأي المسلمين جميعاً، أوّل من اعتمد هذا التوجّه البولسي وفرضه على الكنائس كافّة.

ثانياً ــ مجمع نيقية (٣٢٥ م)

هناك إجماع في الإسلام على القول بأنّ مسيحية عيسى تختلف جوهريّاً عن مسيحية القديس بولس، وبأنّ مسيحية مجمع نيقية قرّرت وثبّتت ما جاء به بولس على حساب ما جاء به عيسى. بولس علّم وجاهد ووضع المبادئ لمسيحيةٍ تثليثيّة، فدائيّة، تعتمد على الصليب كأداة للخلاص والنجاة من الخطيئة؛ ومجمع نيقيّة ثبّت وأكّد ونشر تعاليم بولس في المسكونة كلّها.

هذا التوجّه واضح صريح في ما ذهب إليه السيد هاشم في قوله :

« أيمكننا بعد أن نعتقد أنّ المسيحية الحاضرة بتعاليمها وأناجيلها، شرائع من الله، وتعاليم من السماء، وهي من صنع البشر ؟

« وهل يمكن أن تكون سماوية، إلهية، مقدّسة، معصومة، تلبس أثواب الكمال المطلق، ديانة اتُّفق عليها اتّفاقاً، واختيرت أفكارها اختياراً، من بين مجموعات عديدة من العقائد سواها، كانت مرشّحة للفوز بالمنصب نفسه.. لولا..

« نستطيع القول بثقة، أنّ مسيحية اليوم بدأت فعلياً، لا من المسيح، وما نسب إليه من أقوال ووصايا، بل من مجمع نيقية بالذات.

« ولعمري، فما هو دور المسيح الباقي، بالنسبة لهذه الديانة ؟ بعدما بدا بعد نيقية وكأنّه رئيس « فخري » لنادي المسيحيين في العالم، الذي يحمل اسمه فقط » (٢٥٦).

أنّ تبتدئ المسيحية الحديثة من مجمع نيقية، فهذا ما يجمع عليه أهل الإسلام. وأن يكون مجمع نيقية وقراراته نهائية حاسمة في ترتيب العقيدة المسيحية

المستحدثة، فهذا، أيضاً، ما يؤكّده المسلمون. وأن تتعلّق المسيحية، بكل ما فيها من عقيدة وممارسات، بإرادة البشر الذين وضعوا الإرادة الإلهية جانباً، فهذا أيضاً وأيضاً ما يؤكّده المسلمون، قديماً وحديثاً. والسؤال : ماذا يبقى من المسيحية إذاً ؟ هل هي اليوم دين له صلة بالسماء ؟ أم مجموعة شرائع ووصايا وضعها أناس لا علاقة لهم بكتاب منزل ؟ هذا هو، في الحقيقة، منطق المسلمين الذين لهم عن المسيحية فكرة سماوية سامية. فإذا بهذه المسيحية تفشّلهم.

لنستمع أيضاً إلى السيد هاشم الذي يعطي الدور الحاسم لمجمع نيقية :

« لقد كان مجمع نيقية مفصلاً رئيسياً في تاريخ المسيحية. لا بل هو المفصل الأهم في تاريخها، ان لم نقل انّ هذه الديانة بدأت به، ومنه يبتدئ تاريخها » (٢٥٥).

ويستنتج متسائلاً : « ألا تجعلنا قرارات مجمع نيقية نعتقد أنّ الإيمان المسيحي برمّته ما هو إلاّ تدبير بشري، لا علاقة للإرادة الإلهية به، لا من بعيد أو قريب ؟ » (٢٥٥).

ويختم قائلاً : « .. ما نستطيع قوله بثقة : إنّ ما انتهى إليه مجمع نيقية كان بحقّ بمثابة توقيع معاملات الطلاق النهائي بين المسيحية والإيمان بوحدانيّة الله » (٢٥٨).

* * *

لا يتحمّل السيّد هاشم هذه الأحكام المبرمة وحده، بل سماحة الشيخ حسن خالد هو الآخر، لا يختلف في أحكامه وصراحته عمّا توصّل إليه السيّد. قال :

« .. لمّا أعلن قسطنطين الملك اعتناق النصرانيّة، وعقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م، وأعلن ٣١٨ من أصل ٢٠٤٨ من المجتمعين، ألوهيّة المسيح، مال بالمسيحية عن معناها وعن مسارها الحقيقيين. فانعقدت من بعد ذلك مجامع اتّخذت من القرارات ما أضاف إلى النصرانيّة ما لم يكن منها، فأضاف إلى منصب الألوهيّة، منصب الروح القدس » (٥٢٦).

ويلجأ سماحة المفتي، ليدعم رأيه ويحمّل غيره مسؤولية ما يقول، إلــى المــؤرّخين. يقول : « يقول المؤرّخ هــ . ج. ويلز : « إنّ الأصول التي تتكوّن منها العقيدة النصرانيّة لا تجد لها مسنداً حتى في الإنجيل نفسه. وهكذا أيضاً تقول دائرة المعارف البريطانيّة » (٥٢٦).

* * *

موقف السيّد والشيخ يستند إلى موقف أئمّة مسلمين أمثال : الإمام العلاّمة ابــن قــيّم الجوزيّة وشيخ الإسلام ابن تيميّة. هذان أبدعا في تصوير مفهوم الإسلام للتعاليم النصرانيّة.

في رأي ابن قيم الجوزية أنّ المسيحيين، في أيّامه، كما في كل زمان، في معــالجتهم لأمورهم الدينيّة استندوا « إلى أصحاب المجامع الذين كفّر بعضهم بعضاً وتلقّيهم أصول دينهم عنهم » (هداية الحيارى ١٦٧). والمسيحيون، عبر مجامعهم كلّها، راحوا يلعنون بعضــهم بعضاً : فبعد المجمع الثالث « لعنوا فيه كثيراً من أساقفتهم وأشياعهم » (١٧٨). وفي المجمع الرابع « تقاتلوا وتلاعنوا وجرى بينهم شرّ فتفاقم أمرهم » (١٧٨ ــ ١٧٩). وافترقوا بعــد المجمع الخامس « وكل فريق يلعن الآخر ويحرمه ويبرأ من مقالته » (١٨٠). وكذلك جــرى اللعن والطعن والتكفير والحرمــات المتبادلــة بعد المجمع السادس (١٨٠). والمجمع السابع « انفضّ هذا المجمع وقد تلاعنت فيه هذه الجموع » (١٨١). وكذلك جرى اللعن بعد المجمع الثامن (١٨٢)، والتاسع أيضاً (١٨٢ ــ ١٨٣)؛ وفي العاشر « لعنوا من لعنوا وانصرفوا » (١٨٣).

هذه المجامع العشرة المشهورة « اشتملت على زهاء أربعة عشر ألفاً مــن الأســاقفة والبتاركة والرهبان. وكلّهم يكفّر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً. فدينهم إنّما قــام علــى اللعنة، بشهادة بعضهم على بعض، وكل منهم لاعن ملعون » (١٨٣).

« فإذا كانت هذه حال المتقدمين مع قرب زمنهم من أيام المسيح.. ثم هم مــع ذلــك تائهون حائرون بين لاعن وملعون، لا يثبت لهم قدم، ولا يتحصّل لهم قول

في معرفة معبودهم، بل كل منهم قد اتّخذ إلهه هواه، وباح باللعن والبراءة ممّن اتّبع سواه، فما الظنّ بحثالة الماضين، ونفاية العابرين، وزبالة الحائرين، وذريّة الضالين، وقد طال عليهم الأمد، وبعُد العهد، وصار دينهم ما يتلقّونه عن الرهبان!.. » (١٨٤).

يخلص الإمام العلاّمة إلى القول بأنّ النصارى، بعد مجامعهم هذه، بدّلوا وغيّروا في دين عيسى، واتّبعوا في جميع فروع دينهم، ما سنّه لهم أساقفتهم ورهبانهم. لذلك فهم « مخالفون للمسيح في جميع فروع دينهم.. فإنّ المسيح ـ مثلاً ـ كان يتديّن بالطهارة، ويغتسل من الجنابة، ويوجب غسل الحائض؛ وطوائف النصارى عندهم إن ذلك كله غير واجب، وإن الإنسان يقوم من على بطن المرأة ويبول ويتغوّط، ولا يمسّ ماء ولا يستجمر، والبول والنجو ينحدر على ساقه وفخذه ويصلّي كذلك، وصلاته صحيحة تامّة، ولو تغوّط وبال وهو يصلّي لم يضرّه فضلاً عن أن يفسو أو يضطر. ويقولون : إنّ الصلاة بالجنابة والبول والغائط أفضل من الصلاة بالطهارة،.. » (١٤١).

هذا قليل من كثير من مآخذ العلامة ابن قيّم الجوزية على النصارى الذين ابتدعوا ديناً لم يكن هو دين عيسى. وراح أساقفتهم ورهبانهم يفرضونه عليهم فرضاً بكل أساليب العنف والإرهاب.

* * *

شيخ الإسلام ابن تيميّة كان هو البادئ في رسم طريق قد سلكه المسلمون في كل عصورهم. هو الذي بيّن لعن النصارى بعضهم لبعض، وبيّن مخالفتهم في فروع دينهم لما جاء به عيسى، وأظهر الاختلاف الجوهري بين تعاليم مسيحية عيسى وتعاليم مسيحية نيقية والمجامع اللاحقة.

فالمسيحيون في أيامه حتى هذا اليوم، في « تعظيمهم للصليب، واستحلالهم لحم الخنزير، وتعبّدهم بالرهبانيّة، وامتناعهم عن الختان، وتركهم طهارة الحدث والخبث، فلا يوجبون غسل جنابة ولا وضوء، ولا يوجبون اجتناب شيء من

الخبائث في صلاتهم، ولا عذرة ولا بولاً ولا غير لك من الخبائث إلى غير ذلك. كلّها شرائع أحدثوها وابتدعوها بعد المسيح عليه السلام، ودان بها أئمّتهم وجمهورهم، ولعنوا من خالفهم فيها، حتى صار المتمسّك فيهم بدين المسيح المحض مغلوباً مقموعاً.. وأكثر ما هم عليه من الشرائع والدين لا يوجَد منصوصاً عن المسيح عليه السلام.. » (الجواب الصحيح.. ، ١ / ١٢٦).

ويعدّد شيخ الإسلام ما به المسيحيون يختلفون في دينهم عن دين عيسى. يقول: « وأمّا النصارى فليست الصلوات التي يصلّونها منقولة عن المسيح، ولا الصوم الذي يصومونه منقولاً عن المسيح.. وكذلك حجّهم لقمامة (أي كنيسة القيامة)، وبيت لحم، وكنيسة صيدنايا.. وكذلك عامّة أعيادهم، مثل عبد القلندس (كالندر، أي رأس السنة)، وعيد الميلاد، وعيد الغطاس ــ وهو القداس ــ وعيد الخميس، وعيد الصليب، وعيد الخميس والجمعة والسبت التي في آخر صومهم.. بل هم يبنون الكنائس على اسمِ بعضٍ من يعظمونه.. أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » (١ / ١٢٨. انظر أيضاً : ٢ / ٩، ٢ / ٢٣٦ ــ ٢٣٧).

* * *

يبدو واضحاً من خلال ما تقدّم بأنّ المسلمين يميّزون بوضوح بين ما جاء به عيسى من دين وشرائع وبين ما هم عليه المسيحيون اليوم. فهؤلاء على ضلال في الدين لا بعده ضلال.

ثالثاً ــ الممارسات المسيحية

من الطبيعي أن يكون للمسلمين، اليوم كما بالأمس، موقف ورأي في شؤون المسيحية كلّها. فهم، كما يلجّون، يعتبرون المسيحية ديناً، والدين عندهم كتاب منزل وشريعة سماوية ونبيّ مرسل وتنظيم شؤون الحياة وإعداد لآخرة صالحة. أو باختصار : الدين، في نظر المسلمين، هو عقيدة وشريعة. وعلى هذا الاعتبار لهم حكمهم على المسيحية، في ممارساتها كما في عقيدتها. لقد عرضنا رأيهم وموقفهم من العقيدة المسيحية، ونحن الآن نعرض رأيهم وحكمهم على الممارسات الدينية التشريعية.

١ ــ « **موقف الإسلام من الغطاس** » (المعمودية) : يعبّر سماحة المفتي حسن خالد عن موقف الإسلام في معمودية المسيحيين ويقول بأنّ الإسلام « يرفض » أن تكون المعمودية باباً للإيمان المسيحي وللخلاص. يقول :

« يرى الإسلام أنّه من العجب أن يكون التغطيس في الماء، أو سكب شيء منه على الإنسان كفيلاً بدخول هذا الإنسان النصرانية. ذلك لأنّ النصرانية عقيدة.. وسكب شيء من الماء.. لا يعبّر عن شيء، مهما كان لذلك من تأويل لدى القائمين بذلك لتطهير النفس من أدران الخطيئة بدم يسوع المسيح..

« .. فإنّ الإسلام، وإن كان أبرز مطالبيه المسلكية الطهارة، طهارة الثوب والجسم والنفس، إلا أنّه يرفض أن تكون هذه الممارسة، في صورتها المتّبعة في النصرانية وفي غايتها، مدخلاً أساسياً للإيمان بالله » (٧١٧).

٢ ــ **موقف الإسلام من الكهنوت** : موقف جذري، عبّر عنه سماحة المفتي بالمقابلة مع النظرة الإسلامية. يقول : في الإسلام لا يمكن لأحد أن يشرّع غير

الله. في المسيحية يمكن للكنيسة وللمسؤولين عنها أن يشرّعوا. وهذا ما يرفضه الإسلام في العمق، إذ أنّ التشريع لله وحده. ورجال الكهنوت المسيحي، في رأي المفتي، اغتصبوا حقوق الله. يقول :

« .. إنّ التراتبية المسلكية الدينية، كما هي مقرّرة في النظام الكنسي، لا تأتلف مع النهج الديني الإسلامي ولا مع فلسفته الاجتماعية. وذلك لأنّها تمنح أصحاب الرتب حقوقاً دينية وامتيازات ربّانية ما أنزل الله بها من سلطان، إذ تخوّل بعضهم حقّ وضع التشريعات الدينية. أو التصرّف بها، بالنسخ أو التعديل أو الإلغاء. كما تخوّلهم سلطات دينية هي ملك لله وحده لا ينازعه إيّاها أحد من خلقه.. إنّهم بذلك يستجيزون لأنفسهم تعديل التكاليف الدينية وغفران الذنوب وادخال جنّات الله ..

« ومثل هذا خطير في نظر الإسلام الذي لا يسمح لأحد من المؤمنين بأن يرتفع إلى مرتبة التشريع، مهما كان مقامه وعلمه وصلاحه.. بل إنّ الله تعالى لينكر في كتابه الكريم على النصارى وعلى أحبارهم ورهبانهم بالذات الجرأة في هذا المقام.. الإسلام لا يعترف بوجود قديسين بين الناس يختصّون بأمور دون الناس.

« وعلى أيّ حال، فإنّه لا سلطة كهنوتية في الإسلام تخوّل الإمام الحق بأن يحوّر شرع الله تغييراً أو إلغاءً أو زيادةً أو نقصاناً، أو تخوّله إباحة المحرّم أو تحريم المباح. وليس في الإسلام أيضاً تراتبية دينية في صفوف العلماء تمنح بعضهم أو أحدهم سلطة دينيّة على الآخر أو على الناس.. » (انظر ٧٢٩ ــ ٧٣٦).

٣ ــ **موقف الإسلام من القربان** : يرفض الإسلام رفضاً قاطعاً كل تعامل مع الخمرة؛ وهو، بالتالي يرفض القربان، ويرفض أن يتحوّل المسيح إلى خبز وخمر، ويرفض أن يصنع هذا التحوّل إنسانٌ خاطئ عادي لا نبوّة فيه ولا رسالة من عند الله. يقول سماحة المفتي :

« إنّ الإسلام.. يحرّم الخمرة، ما قلّ منها أو أكثر. وهو، منطقياً، فضلاً عن أنّه ليس من نصّ ثابت عن سيدنا عيسى يثبت هذا، لا يسلّم بأنّ الخبز أو

الخمرة يتحوّل أيٍّ منهما إلى ما قيل أنّه يتحوّل إليه؛ اللهم إلا إذا تمّ ذلك على يد رسول أو نبيّ، من طريق يفيد القطع واليقين.

« وفي التناول الذي يتكرّر كلَّ مناسبة عند النصارى، لا يكون ثمَة رسول أو نبيّ، ولا يمكن أن يوجد رسول أو نبيّ ليفعل المعجزة بعد أن ختم الله النبوّة بنبوّة محمّد » (٧٢٠).

ومن الملاحظ أنّ الحريري كان قد وجد صورةً بعيدة عن « الإفخارستيا » في « سورة المائدة » ؛ وقامت عليه قيامة السيّد هاشم، واتّهمه بـ« أسلوب التزوير والتلفيق » (٥٩٩)؛ فيما الحقيقية توجب علينا أن نعيد النظر في ما جاء في السورة المذكورة، حيث « المائدة » التي طلبها عيسى من الله، ونزّلها الله عليه لطلبه، هي، كما عند النصارى « عيدٌ للأوّلين والآخرين » . والمعلوم أنّ العيد الوحيد، في المسيحية وعليه تدور جميع الأعياد، هو « عيد الأفخارستيا » ، « عيد الفصح الحقيقي » الذي هو عيد المسيح المنتصر على الموت. وفي القرآن أيضاً، لم ترد لفظة « عيد » إلاّ هنا في كلامه على معجزة « المائدة » (انظر قسّ ونبيّ، ١٤٤ ــ ١٤٥).

٤ ــ **موقف الإسلام من سرّ التوبة** : سرّ التوبة أو الاعتراف، هو الآخر مرفوض في الإسلام. ولا يمكن لأحد، غير الله، أن يغفر ذنوب أحد. وهذا « المسح للذنوب » خطيرٌ جداً، في المفهوم الإسلامي. وخطورته تأتي من أن يبيح الناسُ جنّةَ الله بعضهم لبعض. يقول سماحة المفتي :

« وأما الاعتراف، وهو سرّ التوبة في النصرانيّة، الذي يُشترط أن يكون أمام كاهن، وأن يكون كاملاً واضحاً، حتى يتحقّق منه الفوز بالغفران، فإنّه أيضاً غير مقبول في الإسلام. وذلك لأنّه لا يتّفق مع عقيدته ومنهجه الديني. ذلك لأنّ من عقيدة المسلم، أنّ الله وحده الذي يملك مغفرة الذنوب، وقبول توبة مرتكبيها، كما أنّ من عقيدته أن صلته بالله لا يحجبها عنه حاجب، ولا يمنعها عنه كائن أياً كان..

« والكاهن، أياً كانت مرتبته، فهو في نظر الإسلام، إنسان. وإن أعلى مـا يمكـن أن ينتهي إليه من الترقّي المسلكي، في حال سلامة عقيدته، أن يكون صالحاً. وصلاحه هـذا لا يملّكه مطلقاً القدرة على مسحِ ذنوب نفسه وأخطائه الشخصية، فضلاً عن مسح ذنوب النـاس المذنبين وأخطاء المخطئين منهم وبخاصّة إذا بلغ هذا الذنب أن يكون كبيـراً.. » (٧١٧ ــ ٧١٨).

* * *

وقَبْل الشيخ حسن عالج الإمام العلاّمة ابن قيّم الجوزيّة موضـوع الاعتـراف هـذا، وتناوله بشيء من السخرية والخفّة، وراح يتّهم الكاهن بما توجبه الشريعة الإسـلاميّة علـى المرأة المطلّقة التي لا تعاد إلى زوجها الأوّل إلاّ بعد زواج ثان قد يعقده الشيخ على نفسه بينه وبينها. يقول :

« وليس عند النصارى على مَن زنا، أو لاط، أو سكر، حدٌّ في الدنيا أبداً، ولا عذاب في الآخرة؛ لأنّ القس والراهب يغفره لهم. فكلّما أذنب أحدّهم ذنباً، أهـدى للقـسّ هديّـةً، أو أعطاه درهماً، أو غيره، ليغفر له به!! وإذا زنت امرأةُ أحدِهم بيّتها (زوجها) عنـد القـسّ ليطيّبها له؛ فإذا انصرفتْ من عنده، وأخبرتْ زوجَها أنّ القسّ طيّبها، قَبِلَ ذلك منهـا وتبـرّك به!! » (هداية الحيارى، ١٤٢).

٥ ــ **الخنزيــر** : تبدو قصّة تحريم لحم الخنزير من الأمور المهمّة في الإسلام، كمـا هي في اليهوديّة من قبل. ومأخذ الإسلام على المسيحية، بسبب تحليل المسـيحيّة أكـل لحـم الخنزير، كبير؛ بل ذنبها أكبر. ويخشى، في رأي السيد شريف محمد هاشم، أن تتسع دائـرة التحليلات في المسيحية فتحلّل لنفسها « كل فطيس وميت ومخنوق » و« دمَ الجيف » و« كل ما دبّ على الأرض من هوام وحشرات وزحافات وسـباع وحميـر وخنـازير » .. هـذه الحيوانات كان للإسلام منها موقف واضح، وقد نجّانا منها. لنسمع السيّد هاشم :

« لندقّق بنتائج هذا التشريع المسيحي السموح (في إلغاء الفوارق بـين الأطعمـة)، الذي جعل الإنسان المسيحي، متّكأ على المباح له من ديانته، قادر

أن يلتهم لحم حيوان أو طائر أو سلحفاة، حتى ولو كانت جيفاً أمواتاً.. ان لم يمجّها ذوقه، كما هو قادر أن يلعق دم جيفه، إذا ما فتحت شهيّته عليه. وليس من عوائق تمنعه من الضار من كل فطيس وميت ومخنوق.

« وهذا ما يدفعنا للتساؤل : أما ساوى هذا « القانون السماوي » (في تحليل الأطعمة) بين مسلك إنسان الكهوف الحجرية.. وبين المسيحيّ ؟!

« ولا بدّ من أن نفتّش عن دافع لهذا الإفراط السخي الغريب اللامعقول، بتحليل كلّ النافع والضار من المأكولات والمشروبات في المسيحية. ولن يطول جهدنا بالتفتيش والبحث لأنّ شرح الأمر العجيب الذي وجدناه في رؤيا بطرس على ظهر سفينة وفّر علينا هذا العناء..

ويعلّق السيّد هاشم على هذه الرؤيا (في سفر أعمال الرسل ١٠ / ٩ ــ ١٥) التي سمحت لبطرس تحليل ما كان محرّماً على بني إسرائيل من مأكل. ويقول : « وبهذا صار كلّ ما دبّ على الأرض من هوام وحشرات وزحّافات وسباع وحمير وخنازير وغيرها حلالاً أكله للمسيحي دونما اضطرار ولا مرض.

« ولا يقلّ جموع بولس في موضوع المحرّمات عن بطرس. وإنّ أكثر رسائله حملت رغبة جامحة بتحليل كل المأكولات دون استثناء، وربما كان ذلك بسبب رغبته الموتورة بقطع كل الجسور الموصولة بين الديانة اليهودية والمسيحية » (٥٧٣ ــ ٥٧٨).

وحتى تتوضّح الصورة أكثر بات علينا أن ننقل عن السيّد هاشم نظرة الإسلام إلى المحرّمات والمحلّلات بالعموم، وإلى لحم الخنزير بالخصوص. فهو يرى في التعاليم الإسلاميّة خلاصة الطب والعلم الحديث، وقد سبق القرآن ما توصّلا إليه من أبحاث ونتائج. والكلام للسيد هاشم :

الإسلام، في موضوع الخنزير، « لم يقدّس الأطعمة كما قدّست المسيحية كلّ ما صادفت في طريقها من صور وأيقونات وتماثيل وزخارف، خاضت حروباً وأزهقت أرواحاً لأجلها..

« ولا بدّ من أن ندقّق بالذي حرّمه الإسلام على المسلمين في المأكولات لنرى ونتأكّد هل أصاب بتحريمه لها كبد الحقيقة أم أخفق ؟

« وليكن الطبّ والعلم والاختبار روّاد بحثنا وتبصّرنا وتدقيقنا.

« حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله » (٢ / ١٧٣).

« فالميتة والدم، بحسب شرح السيّد هاشم، تأباهما أوّلاً النفس السليمة، فضلاً على ما أثبته الطبّ بعد ١٥ قرناً من تحريم الإسلام لها، عن تجمّع الميكروبات والمواد الضارّة في الميتة والدم. فمبدأ ذبح الحيوان قبل أكله أثبت الطبّ سلامته ونفعه..

وبالنسبة إلى لحم الخنزير، بالتحديد، يقول السيّد هاشم : « يكفي أن تكون الأبحاث الطبيّة المتقدّمة في عصرنا هذا قد أثبتت مضارّ لحم هذا الحيوان على صحّة الإنسان، ونصَحَها بالامتناع عنه، ليصبح تحريمه في الإسلام له ما يبرّره. فبالإضافة إلى أنّ الخنزير بذاته منفّر للطبع النظيف القويم، فلقد كشف الطب أنّ في لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة.. وإذا كانت فوائد وضرورات تحريمه أثبتها العلم والاختبار فإنّنا لا ندري ما هي فوائد تحليله ؟ » (٥٧٨ ــ ٥٨٠).

* * *

لم يخترع السيّد هاشم ما قاله عن المسيحية في تحليل لحم الخنزير، فهو موقف إسلاميّ شامل. وهو مأخذ عام على المسيحيين في تبديل دين عيسى في ما ذهبوا إليه من تحليل الأطعمة دونما تمييز.

« المسيح، في رأي العلامة ابن قيّم الجوزيّة، حرّم الخنزير، ولعن آكله، وبالغ في ذمّه ــ والنصارى تقرّ بذلك ــ ولقى الله ولم يطعم من لحمه بوزن شعرة؛ والنصارى تتقرّب إليه بأكله » (هداية الحيارى، ١٤١).

وبسبب العداوة بين اليهود والنصارى، على رأي ابن قيّم الجوزيّة، أصبح ما هو حلال في اليهودية حراماً في النصرانية، والعكس كذلك. فالنصارى « رأوا اليهود يحرّمون الخنزير، فأباحوه وجعلوه شعار دينهم، ورأوهم يحرّمون كثيراً من الذبائح والحيوان فأباحوا ما دون الفيل إلى البعوضة، وقالوا : كُلْ ما شئتَ، ودَعْ ما شئتَ، لا حرج.. » (١٤٢).

رابعاً ــ المرأة وأحكام الزواج والطلاق

هنا أيضاً، في موضوع المرأة والزواج والطلاق وما يتبعها من مسائل، تقوم قيامة السيّد هاشم، والمسلمين عامّة، على المسيحية التي بدّلت وغيّرت في دين عيسى وخرجت عنه « خروجاً شمل الأساسيات والثانويات. وهذه، في رأي السيّد هاشم، هي المشكلة الحقيقية التي يجب أن نتأمّل بها، ونقف عندها، ونتدارسها » (٥٨٨).

ونرى لزاماً علينا أن نستعرض موقف الإسلام من المسيحية في موضوع دقيق حسّاس كموضوع مكانة المرأة وحرّيتها، وأحكام الزواج والطلاق، والأمانة الزوجيّة، والعفّة والتبتّل، والحياة الرهبانيّة، وما إلى ذلك من مواضيع، للمسلم فيها رأي وموقف. ولا يغرب عن بالنا الهدف الداعي إلى هذا البحث، فهو، بحسب السيد هاشم، لكي « ندفع عن ديننا (الإسلام) التهمة والتجنّي. ولا نخرج بنفس الوقت عن جادّة الحقّ والانصاف » (٤٧٢).

انّ بنية العيلة المسيحية، في رأي السيّد هاشم، « انعدمت منذ زمن طويل، ترسمها وحدة المصالح ليس إلاّ » (٤٧٤). فلا وحدة دم، ولا وحدة مصير، ولا القربى، ولا الحياة المشتركة، ولا العواطف المتبادلة، ولا الأحاسيس.. تكوّن رباطاً للعيلة المسيحية. فالأهل تنتهي واجباتهم نحو أولادهم عندما يبلغ هؤلاء الثامنة عشرة من العمر؛ والأبناء قد يهتمّون بوالديهم، لا بدافع عواطفهم.. بل بدافعِ ما تفرضه عليهم القوانين الاجتماعية الوضعية..

« أمّا ما بين الزوجة والزوج، فالصورة، في رأي السيّد هاشم، أكثر بشاعةً وسواداً. فلا قدسية، ولا احترام، ولا حرمة للروابط الزوجية بينهما، وكل شيء مباح أمام شهواتهما الحيوانيّة. وبإمكان الزوجة أن تخون زوجها مع من تشاء ومتى

تشاء، وعلى مسمع ومرأى من الزوج أحياناً، ولا حقّ له بالاعتراض أو التذمّر، طالما أنّ القوانين قد حفظت له نفس الحقوق، وعلى الزوجة نفس الواجبات.

« إنها حياة الحيوانات في الغابة » ، على حدّ قول السيّد هاشم (٤٧٤).

« هذا إذا لم نتحدّث عن التوافق الغريب، على نوع من الحياة الحسابية بين الزوجين، يعيشونها بدقّة مستهجنة، تبعث في النفس مشاعر القرف والتقزّز، فأحدهما يصبح مديناً للآخر، إذا دفع ليرة واحدة زيادة عن الآخر في مصروف البيت، ومطالب كل ساعة بسدادها » (٤٧٥).

والمسلمون، في رأي السيّد هاشم، « يعيبون في نظريات الزواج المسيحي غربتها عن الواقعية، وبعدها عن الموضوعية، وتجاهلها لدور العواطف، والمشاعر والأحاسيس، المتقلّبة، المتغيرة أحياناً في حياة الإنسان. فبدت لهم تلك القوانين الكنسيّة جامدة، متحجّرة، وكأنّها وُضعت ليس لمجتمع إنساني متحرّك، بل لمجتمع مومياءات، لا أحاسيس فيه ولا عواطف...

« والكارثة الكبرى ليست بتقليص دور الكنيسة في حياة الناس، ولا بفشل قانون الزواج الكنسي، بل الكارثة الكبرى بقانون الزواج المدني، الذي حلّ سعيداً محلّ القانون الكنسي المطرود، وهو معروف فلا داعي لحديثنا عنه.. » (٤٨٠).

« وهكذا يكون المسيحي، قد انتقل بردّة فعل صاخبة ضد قوانين كنيسته، من أقصى التشدّد والتزمّت إلى اقصى التفلت والتحلّل، نقلة حادّة من أقصى التطرف الإيجابي إلى أقصاه السلبي المدمّر، لولا ذاك ما كان هذا.

« ويمكننا القول هنا، إنّه تحت مجهر التجربة والممارسة. أثبت التشريع الإسلامي، إنّه الحلّ العقلاني الواقعي، وإنّه السبيل الصحيح لمعالجة مشاكل الإنسان، وتنظيم حياته الشخصية والأسرية والاجتماعيّة » (٤٨١).

ويروح السيّد هاشم متأسّفاً باكياً على وضع المسيحي المنكود. فالإنسان المسيحي « رأت فيه المسيحية نصفه فقط، رأت فيه الجانب الروحي، وأنكرت

فيه الجانب الجسدي » : والنتيجة كانت في ردّة فعل فظيعة، حيث « أفلت فيها مارد الجنس من القمقم، فباتت (المجتمعات والدول المسيحية) تعيش في فوضى رهيبة من الفلتان الخلقي والانحطاط الغرائزي، والتحلّل من ضوابط الشرف والقيم، كالحيوانات في الغابة » (٤٨٢).

* * *

أمّا سماحة الشيخ حسن خالد فبأكثر رصانة يأخذ على المسيحية، في موضوع الزواج والطلاق، بأنّها اخترعت قوانين لا توجد في الكتاب. فهو يعلم بـ« أنّ شريعة النصارى هذه قد حرّمت على الرجل الزواج بأكثر من زوجة واحدة، على الرغم من أنّه ليس من نصّ في الإنجيل يصرّح بهذا التحريم، اللّهمّ إلاّ ما ورد في إنجيل متى.. وفي كلام بولس الرسول في ما يخصّ رجل الدين... »

ففي نظر المفتي الشيخ حسن، إنّ الأناجيل « فيما يختصّ بمبدأ تعدّد الزوجات، لم تورد نصاً صريحاً بالتحريم يمكن الاستناد إليه » (٧٣٨) .. ويتابع سماحته إثبات نظريته من وقائع التاريخ، فيقول : « لو ذهبنا نتابع وقائع التاريخ العائلية لدى الأقدمين (من المسيحيين) لرأينا أنّ التعدّد في الزوجات بقي مباحاً في العالم المسيحي إلى القرن السادس عشر.. ويظهر.. أنّ تعدّد الزوجات لم يكن مجهولاً حتى بين رجال الدين أنفسهم » (٧٣٩).

فاستناداً إلى تعدّد الزوجات في المسيحية، على رأي المفتي، وفي شعوب ما قبل الإسلام، واستناداً إلى « حاجة الإنسان الجنسية » (٧٤٢)، وإلى « طاقة الرجال » (٧٤٠)، وصوناً للزوج أو للزوجة عن « الممارسات الشاذّة التي تفضي به أو بها أحياناً إلى ما لا يحمد من السلوك والموقف، وإلى الدخول في معاشرات تسيء إليه أو إليها أدبياً وصحياً، وتسيء إلى مجتمعهما » ... بالاستناد إلى كل هذه « كان تشريع إباحة تعدد الزوجات في الإسلام، وكان موقفه الرافض لفرض شرعة الزوجة الواحدة الذي تفرضه الكنيسة النصرانية » (٧٤٣).

أمّا الطلاق فيعرف سماحة الشيخ بأنّه في المسيحية لا يجوز مطلقاً، ويعرف

« أنّ الكنيسة ترى أنّ الأصل في الزواج الديمومة والاستمرار، وأنّه رابطة مؤبّدة لا تزول إلاّ بالموت » (٧٤٥). أمّا في الإسلام، فــ« قد انعقد إجماع المسلمين على مشروعيّته » (٧٤٧). وسبب جواز الطلاق في الإسلام، كما يقول سماحته، « لما قد يجدّ في الحياة الزوجية، أو ينشأ من أمور لا تستقرّ معها، بل تنقلب إلى جحيم، كالخصام والشقاق، أو التباغض أو المرض، أو العقم الذي لا يستقيم معها دوام العشرة وتصبح الرابطة الزوجية عقداً قائماً شكلاً وصــورة لا موضوع لها ولا روح » (٧٤٧).

خامساً ــ الحياة الرهبانيّة

تعتبر الحياة الرهبانية، في المسيحية، علامة من « علامات الزمن الآتي » ، وتشهد للملكوت وهي في هذا العالم. إنّها، في مفهوم الكنيسة، من المفروض أن تكون سيرة مثالية لأشخاص ابتدأوا، وهم في الحياة الدنيا، يتخلّون عن ذواتهم، ويستَبقون ذلك التخلّي النهائي، أي الموت. وذلك في اتّباع المسيح والاقتداء به..

هذه الحياة، في نظر المسلمين عامّة، وكما عبّر عنها السيّد شريف محمد هاشم، « مظهر من مظاهر فشلِ التشريع المسيحي حول الإنسان؛ ليس لكونها نظريّة ضد قوانين الطبيعة ونواميسها فحسب، مبنية على تعذيب الجسد وقهره، تكفيراً عن آثام وخطايا لم يقترفها.. وانّما أيضاً لأنّ فشلها أثبتته بصورة عملية، بالحوادث الجنسية الفاضحة، التي لا تعدّ ولا تحصى، التي حدثت على مدى التاريخ كله، في أكثر من دير وأكثر من كنيسة، وفي أهمّ وأعلى مراكز الكنيسة المسيحية، حتى بين الباباوات أنفسهم. وليس من باب التجنّي والتجريح، إذا ما قلنا أنّ التاريخ قد تحدّث عن حوادث مخجلة، شارك فيها بعض الباباوات والكرادلة أنفسهم » (٤٨٣).

وينقل السيد هاشم إلينا نصوصاً من كتاب « قصّة الحضارة » لديورانت الذي يَعتمد عليه كمرجع للعلوم الكنسيّة؛ هذه النصوص تدور حول ممارسات الباباوات الشاذّة، من رشوة، وقتل، ورغبات النساء، واختيار العشيقات، وحياة الدنس والفحش، والمشاكل الأخلاقية، والتأرجح بين الزواج والتسرّي، ورذائل القساوسة والشمامسة والرهبان..

ثمّ ينتقل بنا إلى القرن العشرين ليسأل : « هل توقّفت عملية هروب القساوسة ورجال الكنيسة من سجن نظريات كنيستهم الداعية إلى قتل طبائع أجسادهم، ليربحوا محبّة الله ؟ أم أنّ الثغرة الخفية المفتوحة في جدار تلك النظريات منذ كانت، لا يزال هؤلاء يتسلّلون منها أفراداً وجماعات إلى رحاب أجسادهم وحاجاتها ؟ ليمارسوا بالخفاء حياتهم كبشـر، فيقبلـون بـنهم المحروم على إرضاء نزواتهم المكبوتة، حتى ولو أصيبوا بعدهـا بالمرض الجنسي القـاتل « الإيدز » ... (٤٨٥).

ثمّ ينقل السيّد هاشم أخباراً من جرائد، « عن تفشّي الشـذوذ الجنسـي بـين رجـال الكنيسة، وإصابة ١٢ قسّاً في أميركا وحدها بهذا المرض » ، ليستنتج بأنّ مثل هذه الأخبـار هي « خير دليل وبرهان على عقم نظريات الكنيسة حول الإنسان من أساسها » .

والدليل الأهمّ على فشل الحياة الرهبانيّة، عند السيّد هاشم، يراه في « تنـاقص عـدد المتهافتين عليها، الرافضين للبس ثوبها، رغم كل المغريات الموضوعة لأجلها.. حتى صارت الرهبنة عملياً من نصيب مَن في حياتهنّ من مآسي وخطايا وأوضاع خاصّة، فيلجـأون إلـى الأديرة نشداناً للعزلة والتوبة والسكينة والنسيان، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الرهبان » (٤٨٦).

ثمّ يقـوم السيّد هـاشم بعملية مسح شاملة لمـا حـرّمته الكنيسة علـى المسـيحي. فـ« الإنسان في المسيحية محروم دائماً، ومحروم أبداً، محروم في الـدنيا، ومحـروم فـي الآخرة، يعيش الحرمان المرير بكل ألوانه في ديناه.

« فهو محروم فيها من لذة الجسد ولذة البنين.. مطلوب منه خصي نفسه مـن أجـل ملكوت السماوات في ديار الدنيا. فهو مخصيّ سلفاً في الدار الآخرة، طالما أنّه محروم مـن الزواج هنا.

« ومحروم من لذّة التملّك، ولو كان نتيجة جهاده الشريف.. ومحروم من لذّة الطعـام والشراب والملبس.. ومحروم من لذّة الشعور بالاستقرار الأسري والعائلي.. ومحروم من حبّه الطبيعي المشروع للحياة نفسها.. » (٤٩٠ ــ ٤٩٣).

وخلص السيّد هاشم إلى القول :

« وهكذا يصبح مطلوباً من المسيحي بحكم ديانته أن يكون :

مخصيّاً بلا زوجة ولا ولد،

فقيراً بلا مُلك،

متخفّفاً إلاّ من البالي من الثياب،

متقوّتاً بالنذر اليسير من الطعام،

وأخيراً مدعواً للتخلّص من حياته برمّتها..

« كل ذلك من أجل ملكوت السموات.. وكأنّ ملكوت السموات لا يدخله إلاّ : المخصيّون، والفقراء، والمتبتلون، والعراة، والجياع، والعطاش، وأخيراً الأموات » (٤٩٣).

« ولم تكتف المسيحية بإغداق كل هذه النعم من الحرمان المتلوّن على إنسانها في دنياه الفانية، بل ألحقته به إلى حياته الثانية، داعية إيّاه أن يهيّئ نفسه كي يعيش في آخرته على شوكة نفسه الذي تقلّب عليه في دنياه، واعدة هذا المسكين بحياة أخرى لا تختلف بمرارتها وشقائها وحرمانها عن الحياة الأولى » (٤٩٣).

وهكذا فـ« إنّ وتيرة الحياة الجافة الخشنة ستستمرّ في الآخرة كما كانت في الدنيا » (٤٩٤).

وممّا يستدعي العجب العظيم من المسيحية وتعاليمها الغريبة، إنّها « من جهة تأمر الإنسان بالالتحاق بمملكة الرب.. فاتحة له كل أبواب أديرتها وصوامعها وأماكن العزلة والانطواء والهروب من مسؤوليات الحياة، كي يدفن جسده فيها مرّة واحدة وإلى الأبد.. ومن جهة أخرى توصيه خيراً بالأطفال والزوجة.

« والسؤال هنا، عند السيّد هاشم، ملحاح :

« أين نجد الأطفال ونحن مخصيّون ؟

« وأين نجد الزوجة وهنّ راهبات ونحن رهباناً ؟

« إنّ ما نراه أمامنا في المسيحية، ليس تناقضاً فحسب، وإنّما دعوة ساذجة خياليّة إلى نظام شاذ غريب، سيُلحق ولا شكّ بحال تعميمه خللاً رهيباً، في مسيرة الحياة برمّتها، وتقويضاً شاملاً في بنيان حياة البشرية، حيث ستسير هذه بموجبه إلى الانقراض النهائي البطيء.

« إذ ماذا يحدث للبشرية، لو نشد كل أبنائها مملكة السماء ؟ والتحقوا بالأديرة والصوامع، وخصوا أنفسهم، وتنازلوا عمّا يملكون، وقعدوا ينتظرون المأكل والمشرب والملبس من أبيهم السماوي، إطاعة لتعاليم ديانتهم ؟..

وخلاصة الكلام : « ليس في المسيحية إلاّ الشطط في الخيال، والإغراق في التطرّف، والبعد عن الواقعية والمألوف، والغرام المسيحي المعروف بمعاكسة كل ما يتلاءم وفطرة الإنسان، وهيامها بتعقيد كل أمر يتطلّب تبسيطاً » (٤٩٦).

* * *

وللشيخ حسن خالد مفتي الجمهورية اللبنانية، كما للسيّد هاشم، مواقفه الصريحة من الحياة الرهبانيّة. وهذه، بنظره، سلبية، لا نصوص فيها في الكتب المقدّسة، إنّها انحسار وانكماش وهروب، يرفضها الإسلام رفضاً قاطعاً. يقول سماحة الشيخ :

« والإسلام.. تصدّى لظاهرة الرهبنة.. ووقف منها موقف المتبرّئ العائب، لأنّها بدعة لم يفرضها الله تعالى.. إنّ الرهبانية اعتزال للناس، واعتزال لمعايشهم ومظاهرهم وممارساتهم. والمسيح والرسل من قبله، وكذلك الرسول محمد، لم يعتزلوا الناس، ولم يعتزلوا معايشهم وممارساتهم الحياتية اليومية.. بل كانوا على العكس يتردّدون على نواديهم ومجتمعاتهم الصالحة، ويمشون في أسواقهم، ويختلطون بهم..

« وليس في كتب العهد القديم والجديد، مثال لهذه الرهبنة الشائعة في رجال الكنيسة المعاصرة. بل إنّه ليس في نصوص هذه الكتب ما يشجّع عليها أو يأمر بها. والرهبانيّة سلبية، وانحسار عن الحياة، وانكماش عن مجتمعاتها، وهروب

من المسؤوليات فيهـــا. وكل هــذا لا يرضى به الإسلام الـــذي جاء ليحرّك المجتمعـــات.. » (٧٢٢ ــ ٧٢٤).

ويعتمد سماحة المفتي على آيات قرآنية وأحاديث نبويّة ليدلّ على رفض الإسلام لهذا النوع من الحياة. يقول الكتاب : « ورهبانيّة ابتدعوها ما كتبناها علــيهم.. » (٥٧ / ٢٧). ويقول الرسول : « ورهبانية أمتي في المسجد » . ويقول : « إنّي أصوم وأفطر، وأقوم الليل وأنام، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنّتي فليس منّي » (٧٢٤ ــ ٧٢٥).

* * *

ولابن الخطيب أيضاً رأيه، رغم أنّ كتابه لا يفترض فيه التعرّض إلى هذا الموضوع! ومع هذا يقول ساخراً في ردّه على متى فصل ١٩ بشأن الخصيان : « وهنا نجد أنّ ملكــوت السموات قد قصره الله تعالى على الذين لا يضعون لقمة في بطونهم، ولا شـــربة مـــاء فـــي حلوقهم، ولا مزقة لباس على أبدانهم، ولا درهماً في أيديهم. والذي زاد الطين بلّـــة، وجـــاء ضغثاً على إبالة، وجوب أن يخصي كل منّا نفسه لأجل ملكوت ربّه! وأين يكون النسل بعــد الخصاء ؟ وهل يوقف النسل على الأشرار والفجّار دون الأتقياء والصلحاء ؟! » (٤٥).

* * *

هذا هو موقف المسلمين إذاً من الممارسات المسيحية. فهمها المسلمون، طبعاً، انطلاقاً من القيم الإسلامية التي بها يؤمنون. وفهموها أيضاً على ظواهرها، دون تحليل أو غوص في الأعماق. وإذا كان لنا من مأخذ نقوله الآن فهو السطحية التي عولجــت بهـــا هــذه الأمـــور الإنسانية الخطيرة.

أمّا حكمنا على هذه المفاهيم الإسلامية فلن نبخل به في الفصل التالي! ولكن لن نحكم في كل قضية بمفردها، لئلاّ يطول البحث إلى ما لا نهاية. إنّما حكمنا سيقتصر علـــى بعــض المبادئ اللاهوتيّة والمنطلقات الأساسية التي تضع القارئ على خطّ واضح. بهذا نتجنّب الجدل والردّ والردّ على الردّ، لنقدّم مبادئ عامة صالحة لموقف صالح.

الفصل السابع

منطلقات أساسيّة

أوّلاً ـ مفهوم الوحي

ثانياً ـ الكنيسة

ثالثاً ـ الله

رابعاً ـ الإنسان

خامساً ـ مفهوم الدين

سادساً ـ الحريّة

سابعاً ـ الخطيئة

تحاشينا، ونحن نستعرض رأي المسلمين في العقيدة المسيحية وموقفهم منها، أن نبدي رأينا، أو نناقش كلّ نقطة فيها، اقتناعاً منّا بأنّ المنطلقات الأساسيّة كلّها، التي يمكن الاعتماد عليها، مختلَف فيها. والنقاش في هذه المنطلقات الأساسيّة يضع المتناقشين بعضهم بإزاء بعض، وتمسي شخصيتهم هي المعنيّة في البحث والجدال، أكثر من النقاط التي يتناقشون فيها. وهذا ظاهر في معظم كتب المسلمين الذين يبحثون في العقيدة المسيحية؛ كما هو ظاهر في كل ندوة حوار إسلامي ـ مسيحي.

ثمّ أنّنا نتجنّب الحوار في مثل هذه المنطلقات الأساسيّة، اقتناعاً منّا أيضاً بأنّ الحقيقة، كل الحقيقة، في نظر المسلمين، توجد في الإسلام؛ وأنّ الحقيقة، كل الحقيقة، في نظر المسيحيين، توجد في المسيحية. فالنقاش إذاً، سيكون بين متحاورين، أيّهم يكن أشدّ عوداً، وأمتن أسلوباً، وأسرع حجّة، يكن هو الغالب. فيما يجب أن تكون المنطلقات هي المقصودة في البحث.

لهذه الأسباب نتحاشى النقاش في المبادئ. ونهرب من الجدل والنقاش فيما بين المسلمين والمسيحيين. كلاهما في هذا الصدد باطل لا يؤدّي إلى نتيجة. وحدها معرفة المنطلقات هي الكفيلة في توضيح الصورة اللاهوتيّة الحقيقية. ثمّ أنّنا نحصر هذه المنطلقات في سبعة : الوحي، الكنيسة، الله، الإنسان، الدين، الحريّة، والخطيئة. وقد تندرج فيها نقاط عديدة غيرها.

أوّلاً ــ مفهوم الوحيّ

لئن كانت ألفاظ : الوحي، والإلهام، والنبوّة، والانزال، والرسالة، والولاية، وغيرهــا، من التراث اليهودي المسيحي، فإنّها هي نفسها يستعملها الإسلام، ولكن بمفهــوم ومضــمون مختلفين تماما. هذا الاختلاف هو موضوع بحثنا في هذا الفصل، ولن ندخل في معالجة هــذه المواضيع في جميع معطياتها وأبعادها اللاهوتية، فإنّ ذلك من خصائص اللاهــوتيين، وقــد عالجنا جزءاً منه في كتاب « عالم المعجزات » ، رقم ٣ من « سلسلة الحقيقة الصــعبة » ، الفصل الأوّل، صفحة ٤١ ــ ٧٨ من ط ٣، سنة ١٩٨٦. نقول :

١ً ــ يتميّز الوحي في المسيحية بكونه **وحياً تاريخياً**، أيّ يقوم على أسس تاريخيّــة، ويرتبط بأحداث تاريخيّة، ويتفاعل معها، ويتحدّد في مكان وزمان، ويتتبّع أحوال الأشــخاص وتغيّراتهم، ويُنقل بواسطة شهود، شفوياً وكتابةً، ويتكيّف بتكيّف الثقافات والحضارات والتقاليد الشعبية، ويتزيّن بمختلف الفنون الأدبيّة، ويلبس أسلوب ناقليه.

هذه الميزة عبّر عنها المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، في الدستور العقائدي فــي الوحي الإلهي، حيث نجد « ارتباطاً وثيقاً » بين كلمة الله وعمله في التاريخ (عدد ٢)؛ وقد أشارت إلى ذلك مقدّمة الدستور بوضوح فقالت : « ليس الوحي تعليماً أوّلا، ولا مجرّد فكــرة ونظريّات، بل تاريخاً... فيبدو الله، في الأسفار الإلهيّة، أقرب على الإنسان من حبل الوريــد، يفاجؤه بتدخّلاته المباغتة، يكالمه كصديق. والإنسان يشاهد خالقه في بيته على دروب الحياة، ويرى أنّه يكلّمه لغة إنسانيّة، ويدخل في تاريخه كعنصر يقيّم ذلك التاريخ وينير منعطفاته...

« هي هذه الوجهة التاريخيّة التي ولجها المجمع، فأحيا بها التفكير اللاهوتي، وجعل الأسفار المقدسة، لا مجموعة حقائق تُدرس فتُحفظ، بل حضوراً إلهيّاً وتعايشاً بين الله والإنسان، تتراءى من خلاله أعمال الله في تاريخ شعب. ومن هذه الأعمال تتوضّح الحقائق التي لا بدّ للعقل من أن يستخلصها فتكوّن لغةً تعبّر عن حياة الله في صميم حياة الإنسان ومشاكلها، حتى الخطيئة » (مقدمة الدستور، ص ١٥٥ من الوثائق المجمعيّة).

* * *

أمّا الوحي، بحسب مفهومه الإسلامي، فلا علاقة له بالتحوّلات التاريخيّة، ولا بالأحداث الطارئة؛ ولا يخضع حتى لأحوال الشخص الملقى عليه (وهو النبيّ محمّد وحده)؛ ولا يتعامل مع الزمن الراهن... بل هو وحي « منزل » من فوق، من « اللوح المحفوظ » ، في « الأفق الأعلى » ؛ وقد « نزل » دفعة واحدة، أي « جملة واحدة » . ولكنّ محمّداً لم يتلقّاه إلاّ منجّماً، أيّ آية آية، أو كلّ خمس آيات معاً، أو عشر آيات، أو أكثر أو أقل (السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ١ / ٧٣).

هذا الوحي، كلّه من عند الله، بمبناه ومعناه، وليس لمحمد فيه يد، لا يبدّل فيه، ولا يعطيه من تلقاء نفسه، ولا ينطبق به على هواه، وليس عليه أن يختار اتّباعه بحسبما يشاء. قال : « قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي، أن أتّبع إلاّ ما يوحى إليّ » (سورة يونس ١٠ / ١٠). وقال: « قل إنّما أتبع ما يوحى إليّ من ربّي » (الأعراف ٧ / ٧). وقال: « ... وما ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يوحى » (النجم ٥٣ / ١ ــ ٤).

لقد « نزل » الوحي على محمّد « تنزيلاً من ربّ العالمين »[١] ، « إنّا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلاً » (٧٦ / ٢٣)، أو هو « نزل به الروح الأمين » (٢٦ / ١٩٢،

---

(١) ٢٦ / ١٩٢، ٣٢ / ٢، ٣٦ / ٥، ٣٩ / ١، ٤٠ / ٢، ٤١ / ٢، و٤٢، ٤٥ / ٢، ٤٦ / ٢، ٥٦ / ٨٠، ٦٩ / ٤٣... وغيرها.

١٦ / ١٠٢). فالنبي إذاً « لا يصوغه بلفظه، ولا يلقيه بكلامه » [٢]، بل هو « لا يملك حتّى حقّ استخدام ذاكرته في حفظ القرآن، بل الله يتكفّل بتحفيظه إيّاه » [٣]. وبوضوح أكثر: « إنّه الوحي ينزل على محمد، حين يشاء ربّ محمّد، ويفتر إذا شاء له ربّ محمّد الانقطاع، فما تنفع التعويذ والأسجاع، ولا تُقدِّم عواطفُ محمد ولا تؤخّر في أمرِ السماء » [٤].

* * *

فسبب هذين المفهومين المختلفين أصلاً وفرعاً، بين الوحي المسيحي والوحي الإسلامي، قامت قيامة السيد شريف محمد هاشم على الحريري الذي يقول، وينقل عنه هاشم قوله : « إنّ حقيقة الوحيّ تعتمد على وهن الطبيعة البشريّة وتحوّلات التاريخ » (قسّ ونبي ١٨٦). يعلّق السيد هاشم : « قصد (الحريري) بذلك ربط موضوع الوحي بالخلفيّة الذهنيّة والمستوى الفكري للإنسان، معتبراً أن تمرير نظرية الوحي في مجمع ما يعتمد بالدرجة الأولى على غباء الإنسان فيه وضعف مستواه الثقافي والحضاري » (ص ٦٤١).

نسأل : أوهكذا تُترجم أقوال الحريري وتُفهم! هل يقول الحريري في نصّه بأنّ « غباء الإنسان » هو مصدر للوحي! إنّه استنتاج غير معقول في العقل، ولكنه معقول في ما عقدت عليه النيات.

ثم ينقل السيد هاشم عن الحريري قوله : « وشأن كلمة الله، لكي تكون خلاصية، أن تكون مدرَكة؛ ولكي تكون كذلك، عليها أن تعتمد على التاريخ وتحوّلاته » (قس ونبيّ ١٨٦). ويعلّق السيد هاشم : « إنّ شرط اعتماد كلمة الله على أحداث التاريخ البشري وتحوّلاته لتكون مدركةً وخلاصيّة، كما قال صاحبُ اللقيط، ليس إلاّ تجديفاً على العقل، وعبثاً بمنطقه، وطعناً بكمال الله ومشيئته » (٦٤٧).

---

(٢) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٣.
(٤) المرجع نفسه، ص ٣٨.

نقول : مفهوم الحريري للوحي مفهوم مسيحي « تاريخي » ، ومفهوم السيد هاشم مفهوم إسلامي « فوقي » و « تنزيلي » . فليحترم الواحد مفهوم الآخر، ثمّ أليس لنا من القرآن دليل على أنّ ما فيه يخضع لأحداث تاريخيّة، جرت في التاريخ، ولأسلوب لغوي معيّن! لنسمع القرآن يقول : « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم » (٣ / ١٦٤)[٥] ، فهل يفهم السيد هاشم من ذلك بأنّ الله يراعي أحوال البشر وثقافتهم وظروفهم ولغاتهم فيرسل إليهم وحياً بلغتهم مدركا منهم فـ« يعقلون » .

إنّ المطلعين على الصراع المحتدم بين المعتزلة وأهل السنّة في قضية « خلق القرآن » يعرفون تماماً أبعاد هذه المشكلة. فالمعتزلة الذين قالوا بـ« حدوث القرآن » اعتمدوا في قولهم على ما في القرآن من أحداث تاريخيّة. ولكنّهم، ويا للأسف قضوا على نفوسهم فاضمحلّوا. وبقي قول أهل السنّة القائل بـ« أزليّة القرآن » . وإنّ بموجاتٍ متفاوتة بين مدارسهم.

* * *

٢ ــ ثمّ إنّ الوحي في المسيحية « **لا يستند إلى تعليم مؤسّس واحد** بعينه، بل ينمو نموّاً مطّرداً خلال خمسة عشر أو عشرين قرناً، قبل أن يصل إلى ملئه في ظهور المسيح الذي هو صاحب الوحي الأساسي » [٦].

وفي هذا النموّ المطّرد حمل الوحي معه من حضارات الشعوب القديمة وتقاليدهم، ولبس أشكالاً وأجناساً من الفنون الأدبية التي تختلف، شكلاً ومضموناً، عن أساليب تعبيرنا، وخضع للغة البشر وتراكيبها وخصوصيّاتها.. لهذا يتعسّر فهم أبعاده إن لم يتزوّد الباحث بعلوم التفسير الكتابي.

زد على ذلك أنّ الفنون الأدبية في الوحي غنيّة ومتنوّعة جداً، من نثر وشعر وكرازة وصلوات وأخبار وأمثال وحكم وأناشيد ورؤى ورسائل وغير ذلك... إنّه

---

(٥) انظر : ٢ / ١٢٩، ٢ / ١٥١، ١٦ / ٣٦، ٢٣ / ٣٢، ٦٢ / ٢ ...
(٦) معجم اللاهوت الكتابي، مقال : الوحي.

تنوّع عجيب يحدونا إلى القول بأنّ الوحي هذا، مع أنّه بلغة البشر، قد لا يفهم بمعزل عن فهم أطره التاريخية كلّها.

ثمّ إن هذه الأشكال تعود إلى كتبة عديدين. وإلى مراحل تاريخيّة ممتدّة قروناً عديدة، وإلى أنواع من المؤلّفين، فمنهم رواة ومنهم مخبرين ومؤرخين وقضاة ومشترعين وحكماء وملوك وأنبياء ورسل ومبشّرين وما إلى ذلك...

* * *

أمّا في الإسلام فالأمر يختلف تماماً، جملةً وتفصيلاً، بل هو بسيط جدّا : لا يد لأحد في القرآن غير الله. ليس من شخص آخر أوحي إليه القرآن غير محمّد. وليس من كتاب إسلامي جاء الوحي فيه غير القرآن. وليس في وحي القرآن تقاطع زمنيّ بعيد المدى. ولا تختلف أخيراً هويّة الذين نزل الوحي من أجلهم اختلافاً كبيراً أو اختلافاً يذكر.

هذا الوحي « المحصور » بشخص واحد هو محمّد، وبكتاب واحد هو القرآن، وبلغة واحدة هي العربية، وبفترة من الزمن محدودة جدّا، أي ما بين سنة ٦١٠ و٦٣٢، وبمجتمع متجانس الثقافة والمستوى الاجتماعي والحضاري هو مجتمع مكّة والمدينة... هذا « الحصر » ينبئ بنتيجة خطيرة، بمقابل الوحي المسيحي « الممتد والمنفتح » . هذه النتيجة هي في أن يكون المقصود من الوحي « محمّداً » بشخصه وليس البشر. لكأنّ الوحي نزل على محمّد ومن أجله فقط. وقد يستفيد الناس منه بعض الشيء، ولكن بالدرجة الثانية. ولنا من القرآن برهان :

لقد قضى محمّد حياته، كما يبدو من نصوص القرآن، يدافع عن ذاته، ويقاتل من أجل أنّه إنسان موحىً إليه. فراح يجد التبرير بعد التبرير، ويقنع سامعيه بأنّ ما يُنزل عليه هو « تنزيل من ربّ العالمين » ، وأنّه « مصدِّق لما في التوراة والإنجيل » ، وأنّه أنزله جبريل الروح الأمين... بل يروح محمد أكثر من ذلك ليتحدّى الأنس والجنّ بأن يأتوا بمثل سورة أو آية من سوره أو آياته... وكم اتّهمه المتّهِمون بأنّه « مجنون » ، أو « ساحر » ، أو « شاعر »... فكان يرفض ويدافع

ويتحدّى ويقول : « بل قالوا أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هــو شــاعر... » (٢١ / ٥)، ويقولون « شاعر مجنون » (٢٧ / ٣٦). ويجيبهم : « وما هو بقول شاعر » (٦٩ / ٤١). ويجيبهم أيضا : « ما بصاحبكم من جنّة » (٣٤ / ٤٦). و « يقولون إنّه لمجنون » (٦٨ / ٢)، ويجيب : « وما صاحبكم بمجنون » (٦٨ / ٥١) ...

فهذا الوحي « المحصور » بشخصية محمّد وبيئته الضيّقة، ماذا يعني للبشريّة الممتدة في الماضي والحاضر والمستقبل من التاريخ! ثم لو كان الوحي الإسلامي كاملاً يناسب نمــوّ البشرية التاريخي، فلماذا هو لم يكن كذلك خلال نزوله على النبيّ ؟ ونحن نعلم أنّــه تطــوّر تطوّراً هائلاً من بدايته حتى نهايته خلال ثلاثَ وعشرين سنة! فإذا كان تطــوّره « رحمــة » بالإنسان العائش في هذه الفترة من الزمن فقط، أفليس من « رحمة » مماثلة بالذين يعيشــون عبر الدهور والأجيال!

* * *

الوحي المسيحي مرتبط بحياة البشر وتنوّعهم، والوحي الإسلامي محصــور ضــيّق صمد كصمديّة الله الذي أنزله بلونٍ واحد، لا تنوّع فيه ولا عــوج. الأوّل مســتمرّ، متعــدّد الوسائط والوسائل، والثاني بدايته قريبة من نهايته، كان على يد وسيلة واحدة ووسيط واحــد. الأوّل متعدّد الأساليب والفنون، والثاني مغلّق على أسلوب واحد بفنّ واحد على ذهنيّة واحدة. الأوّل متواصل متفاعل يتعامل مع ظروف البشر الراهنة، الثاني منقطع منزل من علو يتعامل مع محمّد وما يريد محمّد في ظروفه وأميال قلبه. الأوّل متدرّج متطوّر منفــتح يــربط بــين عهدين، القديم والجديد، ويؤمّن صلته بكافة شعوب الأرض بواسطة « جماعة » حيّــة هــي الكنيسة، الثاني، يكفي أن يقال فيه بأنّه « نزل دفعة واحدة » .

* * *

٣ ــ ثمّة اختلاف ثالث بين الوحي المسيحي والوحي الإسلامي، يقوم على « **تكامــل** » بين جميع مراحله عبر العصور والأجيال. يعني : هناك علاقة، في

الوحي المسيحي، بين العهد القديم والعهد الجديد، وهي تقوم على ما يلي : « بدون العهد القديم تصبح كتب العهد الجديد غير مفهومة، تتكلّم لغة لا يملك مفتاحها أحد؛ كما أنّ بدون العهد الجديد يصير محتوى كتب اليهود أساطير خرافية، شريعة إلهية تبقى حرفاً ميّتاً، ووعداً يعجز عن تحقيق آمال الإنسان، ومغامرة فاشلة لا يرجى منها شيء » [٧] .

هذا التكامل يوضحه المجمع في دستور الوحي بقوله : « لقد كان تدبير العهد القديم يهدف بنوع خاص إلى تهيئة مجيء المسيح مخلّص الكلّ، وإلى الإعداد للملك الماسوي... وأسفار العهد القديم تبيّن بوضوح الطرق التي يتّبعها الله للتعامل مع البشر، وذلك حسب أوضاع الجنس البشري... » [٨] . وقد « رتّب الله، بحسب قول المجمع، الأمور بحكمته كي يحتجب الجديد في القديم، ويتّضح القديم في الجديد... وأسفار العهد القديم كلّها تكسب كمال معناها، وتظهره في العهد الجديد[٩] ؛ وبدورها هي تنيره وتشرحه » [١٠] .

* * *

هذه العلاقة العضوية بين العهدين، بل هذا التكامل « والنموّ المطرد » ، هي ما يكوّن العنصر الأساسي لمفهوم الوحي المسيحي... هذا « التكامل » ، مع أنّه مشار إليه في القرآن، لا يكوّن عنصراً هامّاً في المفهوم الإسلامي للوحي. فالقرآن يعترف بنبوّة النبيين السابقين كلّهم، ويعترف بوحيهم على أنّه من عند الله، و « يصدّق » ما في التوراة والإنجيل، ويقرّ بأنّ الشريعة الإسلاميّة تعتمد على الشريعة اليهوديّة ـ النصرانيّة، ويشير إلى تعاليم كثيرة مشتركة بين القرآن والتوراة، وينظر إلى الله نظرته إلى إله بني إسرائيل... إلاّ أنّ هذا التقارب لا يعني « تكاملاً » . يعني! قد يستغني المسلم عن التوراة والإنجيل ويكتفي بالقرآن ويبقى مسلما مؤمناً حقيقياً. وقد

---

(٧) معجم اللاهوت الكتابي، مادّة : الكتاب.
(٨) دستور عقائدي في الوحي الإلهي، عدد ١٥.
(٩) راجع متى ٥ / ١٧، لو ٢٤ / ٢٧، رو ١٦ / ٢٥ ـ ٢٦، ٢ كور ٣ / ١٤ ـ ١٦...
(١٠) دستور عقائدي في الوحي الإلهي، عدد ١٦.

يستغني المسلم عن الإيمان بجميع تعاليم الأنبياء ويكتفي بنبوّة محمّد ويبقى مسلماً حنيفاً طيّباً.

الواقع أنّنا لا نجد اليوم مسلماً واحداً يأخذ بالتوراة والإنجيل على أنّهما من صلب إيمانه. وقد تكون حجّته بأنّهما « محرّفان مزوّران » ، لكنّه ليس له على تزوير الإنجيل، أقلّه، حجة[١١] . الحقيقة هي أن المسلمين يستغنون بالقرآن عن التوراة والإنجيل، كما يستغنون بمحمّد عن جميع النبيين السابقين. وكان على المسلمين أن لا يفعلوا ذلك حتى يبقوا مسلمين حقيقيين، لأن المسلمين الحقيقيين هم الذين، بحسب تحديد القرآن، « يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل عليهم » [١٢] .

* * *

٤ً ـ ثمّة فرق آخر فيما بين الوحي المسيحي والوحي الإسلامي، هو الفرق بين **الحرف والروح**. في الوحي المسيحي لم يعد العهد الجديد عهد الحرف، بل عهد الروح[١٣]، ولا الختان يعود إلى حروف الشريعة، بل إلى الروح[١٤] .

---

(١١) انظر محمد سعيد العشماوي، « الإسلام والأديان والأخرى » ، في **مجلّة الأزمنة**، تشرين الثاني ـ كانون الأوّل، ١٩٨٨، المجلد ٣، عدد ١٣، ص ١٨ حيث يقول : « عن دعوى التحريف، نقول أن الفكر الإسلامي والصيغة التاريخية للإسلام هما على خطأ شائع يعزو إلى القرآن وصم التوراة والإنجيل بالتحريف، ومن ثمّ فلا فائدة من قراءتهما أو دراستهما، خصوصاً لأن القرآن بديل منهما وغنى عنهما... » ويستنتج بأنّ « القرآن لم يذكر شيئاً على الإطلاق عن تحريف الإنجيل (العهد الجديد) بمختلف ما فيه من أناجيل وأعمال ورسائل ورؤى. إنّه لم يتّهم المسيحيين بأي تحريف. إنه لم يذكر شيئاً عن تحريف التوراة (العهد القديم) بجميع أسفارها. إن المقصود بالتحريف هو تحريف اليهود في المدينة (أيام النبي) لآيات التوراة تحريفاً معنوياً بتغيير مدلولها أو بإمالة اللفظ عن معناه، أي تفسيرها تفسيراً يوافق أهواءهم وأغراضهم ويخالف التفسير الصحيح المقصود منها... (انظر المقال، ص ١٠ ـ ٢٣).

(١٢) انظر كتاب « قس ونبي » حيث تجد تمييزاً بين المسلمين والقرآنيين. فالمسلمون الحقيقيون هم الذين يقيمون التوراة والإنجيل والقرآن. والقرآنيون هم الذين يكتفون بالقرآن. وليسوا هم مسلمين بحسب تحديد القرآن المكّي، أي الذين لا يفرّقون بين أحد من رسل الله . انظر أيضاً لفظة « مسلمين » في القرآن حيث تعني الذين لا يفرّقون بين النبيين.

(١٣) انظر ٢ كور ٣ / ٦.

(١٤) انظر رومانيين ٢ / ٢٩.

ولسنا نعمل في نظام الشريعة أو نظام الحرف القديم، بل نعمل في نظام الروح الجديد[١٥] . إنّ الشريعة الجديدة مكتوبة في قلوب الشعب الجديد : « ها إنّها تأتي أيّام، يقول الرب، أقطع فيها مع بيت إسرائيل عهداً جديداً... هذا العهد... هو أنّي أجعل شريعتي في بواطنهم، وأكتبها على قلوبهم » (ارميا ٣١ / ٣١ ــ ٣٤).

هذا العهد الجديد الذي بتدبّره الروح يقوم على ثلاثة أمور : « أوّلاً ــ المبادرة الإلهيّة في غفران الخطايا[١٦] ، ثانياً ــ المسؤولية والمكافأة الشخصية[١٧] ، ثالثاً ــ عبادة الرب عبادة باطنية، فلا تبقى الشريعة محض نظام خارجي، بل تصبح إلهاماً يؤثر في قلب الإنسان[١٨] تحت تأثير روح الله الذي يهب للإنسان قلباً جديداً[١٩] قادراً على معرفة الله » [٢٠] .

إنّ تعهّدَ فهم الوحي انطلاقاً من الروح لا من الحرف، شدّد عليه المجمع في دستور الوحي ونبّه على المنقّبين والدّارسين والمفسّرين واللاّهوتيين جميعهم بأنّ يأخذوا بعين الاعتبار « نيّة الكتّاب القدّيسين » (عدد ١٢). ويوجب المجمع أيضاً « على الشارح أن يفتّش عن المعنى الذي كان في نيّة الكتاب المقدّس أن يعبّر عنه وعبّر عنه حقاً في الظروف المعيّنة التي عاش فيها، وفقاً لأوضاع عصره، وثقافته، بواسطة الفنون الأدبية المتداولة إذ ذاك » (عدد ١٢).

* * *

إنّ التمييز بين « الروح » و « الحرف » لا مجال لوجوده في الوحي الإسلامي. الأسباب عديدة. **أوّلها** ــ إن الوحي الإلهي في القرآن لم يخضع لذهنية البشر وطرق حياتهم. الوحي الإسلامي، في « روحه » وفي « حرفه » إنتاج إلهي، وليس للبشر

---

(١٥) انظر رومانيين ٧ / ٦.
(١٦) انظر أرميا ٣١ / ٣٤، حزقيال ٣٦ / ٢٥ و٢٩، مزمور ٥١ / ٣ ـ ٤ و٩.
(١٧) انظر ارميا ٣١ / ٢٩، حزقيال ١٤ / ١٢.
(١٨) انظر ارميا ٣١ / ٣٣، ٢٤ / ٧، ٣٢ / ٣٩.
(١٩) انظر حزقيال ٣٦ / ٢٦ ـ ٢٧، مزمور ٥١ / ١٢، أرميا ٤ / ٤.
(٢٠) انظر هوشع ٢ / ٢٢. راجع الحواشي على ارميا ٣١ / ٣١، في الطبعة الكاثوليكية الجديدة للعهد القديم، دار المشرق بيروت ١٩٨٦.

فيه يد. ومحمّد نفسه « لم يصغه بلفظه » على حدّ قول الشيخ صبحي الصالح الذي سمعناه منذ قليل. **ثانياً** ــ يقول المسلمون بإعجاز القرآن، يعني إعجازاً في اللغة والأسلوب والألفاظ والتعابير والصور والتشابيه والأحكام... هو أوّلاً إعجاز لغوي. وبلغته هو معجزة المعجزات. وبلغته تحدّى الشعراء والإنس والجنّ والكهّان وكل ساحر مفتون. فالحرف إذاً، كالروح، معجزة. **ثالثاً** ــ ثمة دليل آخر على معجزة « الحرف » نأخذه من كتب تفاسير القرآن ومن المفسّرين المسلمين جميعهم، وهو أنّ المسلمين لم يميّزوا قط بين « نيّة » الكاتب الذي هو الله، وبين « الطريقة في التعبير » التي هي من الله أيضاً.

ينتج من ذلك أنّ ما في القرآن من قوّة « الحرف » ، وما فيه من « روح » مرتبط بـ« الحرف » . لهذا مارس المسلمون، منذ البدء، تحفيظ القرآن غيباً، وحرفاً بحرف. ومارسوا العناية بكتابة الحرف عناية فائقة. ومارسوا في صلواتهم تلاوة تيسّر من آياته.

هذا الربط بين « الحرف والروح » في الوحي الإسلامي أوقف مدارس « علم الكلام » عند حدها. فليس اليوم في الإسلام ما يسمّى بعلم « اللاهوت » ، أي علم استخلاص العقيدة الإلهية من الأساليب البشرية. كما ليس في الإسلام ممارسات ليتورجيّة تستطيع بواسطتها الأمّة الإسلامية أن تتحرّر من « حرفيّة » القرآن، لتضع هي، بلغتها وأسلوبها صلواتٍ وابتهالاتٍ ترتفع بها نحو الله. فبسبب هذا الربط بين الحرف والروح لا نجد في الإسلام طقوس عبادة أو أعياداً، دون « عيد المائدة » فقط، الذي هو عيد مسيحي له صلة بعيد الأعياد عند المسيحيين، أي « عيد الافخارستيا » . وليس في القرآن عيد غير هذا العيد : « قال عيسى بن مريم : اللهمّ ربَّنا! أَنزل علينا مائدة من السماء، تكونُ لنا عيداً لأوَّلنا وآخِرِنا، وآيةً منكَ... قال الله : إني منزّلها عليكم فمن يكفرْ بعد منكم، فإنّي أعذّبه عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين » (المائدة ٥ / ١١٤ ــ ١١٥).

* * *

٥ ــ وهناك أيضاً فرق آخر بين الوحي المسيحي والوحي الإسلامي يقوم على التلازم أو عدمه بين « **الأعمال والأقوال** » . في المسيحية نرى « ارتباطاً وثيقاً » بينهما، كما يعبّر عن ذلك المجمّع الفاتيكاني الثاني بقوله : « وتدبير الوحي هذا يقوم بالأعمال والأقوال التي ترتبط فيما بينهما ارتباطاً وثيقاً، بنوع أنّ الأعمال التي حقّقها الله في تاريخ الخلاص، تُبرز العقيدة والحقائق التي تُعبّر عنها الأقوال وتدعمها، بينما الأقوال تُعلن الأعمال وتُوضح السرّ الذي تحويه » (٢١) .

هذا « الارتباط الوثيق » بين الأعمال والأقوال هو من صميم مفهوم التجسّد الإلهي الذي به كان تمام الوحي وكماله... أمّا قبل التجسّد فقد كانت « أقوال الله » تعبّر عن « أعماله » ، و « أعماله » تبرز حقيقة « أقواله » ، بطرق مختلفة وأنواع شتّى. واستمرّت هذه الطرق والأنواع تتلازم وتتقارب حتى اجتمعت نهائياً في شخص المسيح، الذي هو نفسه « كلمة » الله و « روحه » المرسل من لدنه. وبذلك أمسى الوحي، بمفهومه المسيحي، كاملاً منسجماً قولاً وعملاً « في المسيح الذي هو وسيط الوحي بكامله، وملؤه في آن واحد » ، على حدّ تعبير المجمع(٢٢) .

نريد أن نلفت نظر القارئ، الذي يتعرّض إلى الحكم على بعض الظهورات العجائبيّة، بأنّ هذه الظهورات، إن لم تخضع لقاعدة « الارتباط الوثيق بين الأقوال والأعمال » ، أي إن لم يكن من الظاهرة العجائبية رسالة لم يعبّر عنها بالقول، فلا شيء يلزمه بتصديق ما يرى. والكنيسة، في كل حال، هي التي تحكم بصوابٍ على أشياء تخصّها مباشرة.

* * *

أمّا في الإسلام فترابط الأقوال مع الأعمال في موضوع الوحي فغير وارد البحث فيه إطلاقاً. لقد قلنا سابقا بأن ليس في الإسلام من وحي إلاّ على محمّد؛

---

(٢١) دستور عقائدي في الوحي الإلهي، عدد ٢.

(٢٢) المرجع نفسه، بالاستناد إلى مراجع كتابية: متى ١١ / ٢٧، يو ١ / ١٤ و١٧، ١٤ / ٦، ١٧ / ١ ـ ٣، ٢ كور ٣ / ١٦، ٤ / ٦، أفسس ١ / ٣ ـ ١٤.

ولكنّ أعمال محمّد لم تكن، حتى بنظر المسلمين أنفسهم، موحاة؛ ولا أقواله أيضا لها علاقة بالوحي؛ في حين أنّ ما في القرآن هو « كلام الله » لا أفعاله. وكلام الله، بوصفه أزليّاً، لا يمكن أن يُعبّر عن « أعمالٍ زمنيّة » ، خاضعةٍ للأحداث التاريخيّة، ومحدّدةٍ في زمان ومكان...

فالفصل إذاً في الإسلام بين الأقوال والأعمال، في موضوع وحي القرآن، واجب. وأوجب منه اعتبار أعمال النبي حتى ولو أشار إليها القرآن، غير موحاة أيضاً، وما إشارة القرآن إليها إلاّ دعماً لمحمّد : فغزواته، وأعماله التجارية، ومعاركه، وهجراته، وعداواته مع قريش وبعض القبائل التي غزاها، وحبّه الجمّ للعديد من النساء، وسنّه قوانين للزواج والطلاق والارث، وتدخّله في شؤون المرأة وطهارتها وأوضاعها، وتنظيمه للأسرة والمجتمع، وتحديده لأعمال الزكاة والفيء والخراج والجزية وأعمال المال والصدقات، وأحكامه القاضية على الكافرين والمشركين... إلى ما هنالك من أعمال رصدها القرآن... هذه كلها أعمال لا علاقة لها بالوحي الأزلي، ولا التعبير عنها يُعترف به بأنّه من عند الله، لكونها خاضعة لمجريات الزمن الراهن.

* * *

يتحصّل من التمييز بين الأقوال والأفعال، أو الربط بينهما، ميزة خاصّة في شخصيّة كلّ من المسلم والمسيحي. فبسبب « الترابط الوثيق » بينهما نرى شخصيّة المسيحي ميّالة إلى الروحانية المنسجمة قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً، في السرّ كما في العلن. إنّها شخصيّة صادقة نيّرة، تلتزم في الحياة مواقفَ، وتَلزَم حدودَ ما تلتزم به... في حين أنّ شخصيّة المسلم المبنيّة على الفصل بين الأقوال والأعمال هي شخصية تميل نحو الماديّة حتى في الجنّة. وذلك نتيجة طلاق فيما بين الظاهر والباطن، والقول والعمل. وكم من الذين اتّخذوا، في الإسلام، بمقولة « الظاهر والباطن » ، حتى انقسم الإسلام إلى قسمين لا رباط بينهما، رغم وحدة النبي ووحدة الكتاب.

* * *

٦ ــ **الوحي والتقليد** : لقد ارتكز الوحي، في المسيحية، في نشأته إلى كرازة الرسل الشفوية، إلى التقليد. والتقليد، على ما يبدو، يمرّ، تاريخياً، قبل الكتاب. ثمّ دُوّنَ في كتاب. فالتقليد والكتاب هما ينبوع الوحي المسيحي وأساس تعليم الكنيسة. ومع هذا، فانّ الكنيسة لا تأخذ بالقضايا التي تتأتّى فقط من التقليد، فهي تفتّش كي تجد الأساس الأخير لكل قضية في الكتاب. ومع هذا أيضاً فإنّ مبدأ « الكتاب وحده » Sola Scriptura لا يكفي أيضاً، لأنّ الكرازة الرسوليّة وجدت قبل الكتاب، ونشرت الإيمانَ باسم سلطة أساسية أعطاها المسيح للكارز عينه. ثم أنّ الكنيسة هي التي اعترفت بصحّة الكتاب، لأن تكوين الكتاب كان نتيجة سلطة أعطته صفته القانونيّة[٢٣] .

هذا الربط بين التقليد والكتاب قال به دستور الوحي المجمعي بوضوح : « بفضل هذا التقليد يتضح للكنيسة قانونُ الأسفار المقدّسة بكامله، وبفضله أيضاً تُفهمُ الأسفارُ المقدسة نفسُها فهماً أعمق، وتصبح فعّالة باستمرار. وهكذا فإنّ الله، الذي تكلّم قديماً، لا يزال يكلّم خطّيبة ابنه الحبيب (أي الكنيسة) » [٢٤] . ثم يخلص الدستور إلى القول : « إنّ الكنيسة لا تنهل اليقين عن محتويات الوحي كلّها من الكتاب المقدّس وحده. ولهذا علينا أن نقبل كليهما (أي التقليد والكتاب) ونجلّهما بعاطفة واحدة من الحب والاحترام » [٢٥] .

إنّ غنى هذه النصوص المجمعيّة يفرض علينا الانتباه إلى أمور مهمّة جداً : أوّلا ــ إنّ التقليدَ يوضِحُ الكتاب، وبالتقليد يُفهم الكتاب فهماً عميقاً، وبه أيضاً يُصبح فعّالاً. ثانياً ــ إنّ الكنيسة، كما تحيا بجسد المسيح ودمه، تحيا أيضاً بالكلمة في مصدريها : التقليد والكتاب، أي الروح والحرف. ثم أّن التقليد مستمرٌ فعلُه في الكنيسة، لكأنّ الله لا يزال يوحي إلى الكنيسة بكل جديد. يعني أنّ الكنيسة

---

(٢٣) كارل راهنر، معجم اللاهوت الكاثوليكي لله مادة : الكتاب المقدس.
(٢٤) دستور عقائدي في الوحي الإلهي، عدد ٨.
(٢٥) المرجع نفسه، عدد ٩.

هي « المكان المناسب » لعمل الله وكلمته الفعّالة، كما سنرى في كلامنا على الكنيسة.

يتحصّل من المفهوم المسيحي للتقليد، أنّ الوحي يستمرّ في الكنيسة؛ وقد عبّر المجمع عن ذلك بقوله : « إنّ الرسل تركوا خلفاء لهم الأساقفة، وسلّموهم مكانتهم التعليميـــة، لتظّـــلّ البشارة دائماً تامّة وحيّة في الكنيسة » [٢٦] . هذا يعني، بحسب قـــول المجمـــع أيضـــاً، « أنّ الكنيسة، بتعليمها، وحياتها، وطقوسها، تخلّد، وتنقل للأجيال بأسرها كل ما هي عليه وكل مـــا تؤمن به » [٢٧] . هذا يعني أيضا أن الأسقفية في الكنيســـة، أي الكهنـــوت، كمـــا الخلافـــة، والتعاليم، والبراءات الرسولية الصادرة عن المجامع الكنسية وعن المسؤولين فيهـــا... كلّهـــا تكمّل الوحي. أي تكمّل التجسّد الإلهي في البشريّة الذي هو تمام الوحي. يعنـــي أنّ المســـيح، بحسب نظريّة التقليد في الكنيسة، لا يزال يتجسّد فيها إلى الأبد.

* * *

هذا المنطق غريب جداً عن الإسلام. نظريّة « التقليد » كلّها، بكل معانيها وأبعادهـــا ونتائجها، غير واردة في الإسلام إطلاقا. وإذا أردنا تبسيط الأمور نقول : القرآن وحده يكفي. أيّ : كل إنسان يأخذ القرآن ويتلوه، ويعمل بموجبه، يحصل على الوحي كلـــه، أي علـــى الله بتمامه، أي على الإسلام بتعاليمه وأحكامه وعقيدته وحدوده كلها... وليست « السنّة » ، وهي تعني التقليد في اللغة الإسلامية، سوى أقوال النبيّ التي تشرح أو تفسّر هذه الآيـــة أو تلـــك. ولكنّها لا تكوّن مصدراً للوحي، كما هو الحال في المسيحية.

لهذا، لا يوجد في الإسلام « كنيسة » أو ما يشابهها. اللهمّ إلاّ عند الشـــيعة الإماميـــة الذين قالوا بـــ« الامامة » أو « الولاية » . هؤلاء أعطوا للإمام دوراً خطيراً في الدين. هـــو يحفظ الدين، ويحافظ على الوحي، وله حقّ التفسير والتأويل. انّه

---

(٢٦) المرجع نفسه، عدد ٧.
(٢٧) المرجع نفسه، عدد ٨.

معصوم من كل خطأ وخطيئة. بل هو المثال الكامل. ولهذا، وبسبب عقيدتهم، وتنبّههم إلى خطورة التقليد، أعطوا للإمام ما يجب أن يعطوا، ليستمرّ الإسلام « حيّاً » .

ثمّة خطورة أخرى في عدم القول بـ« التقليد » في الإسلام، وهي أنّه لا يوجد في الإسلام « كرازة » . يعني لا يوجد فيه غير « الكتاب » مَن يدعو إلى الإسلام. لا إنسان مولج بذلك، ولا « جماعة » ، ولا « شخص » يعمل... والأمر، على صعيد نقل الحقيقة للآخرين، يبدو خطيراً للغاية : لقد استعاض المسلمون عن الكرازة بما يسمّى بـ« الجهاد المقدس » . هذا ركن من أركان الدين الإسلامي، أو ما يشابه. « الجهاد » عندهم هو « الكرازة » . ومهم عدّد المسلمون معانيه، يبقى، في معناه الأساسي، « حرباً » ضد الذين لم يعتنقوا الإسلام بعد.

* * *

يتحصّل ممّا تقدّم بأنّ « التقليد » في الوحي المسيحي هو مصدر هامّ جداً، بل هو « الحياة » في المسيحية. وهو ما يفتقده الإسلام على حساب « الكتاب » الذي يبقى هو المصدر الوحيد. وهكذا تجمّد الله في كتابه، وبقي « صمداً » إلى مدى الدهر. هذا لا يعني، بالنسبة إلينا، احتقاراً للنظرة الإسلامية للوحي، بقدر ما يعني اختلافاً فيما بين المسيحية والإسلام اختلافاً جوهرياً نشير إليه، ليس إلاّ.

* * *

٧ ـــ **موضوع الوحي ديني،** لا يهتمّ بالبحوث العلمية، ولا بالنظريات الفلسفيّة، ولا بالعلوم الفلكيّة أو الطبيّة، وما أشبه... يوحي الله عن ذاته، ويكشف عن مقاصده التي ترسم للإنسان طريقَ الخلاص. في الوحي تظهر المسلكيّة الروحيّة التي ينتهجها الإنسان في سبيل التعرّف بالله، وبطرقه الخلاصية.

فالقول إذاً بأنّ الوحي في المسيحية يكشف عن الحقائق العلمية، أو هو يأخذ موقفاً منها، أو هو لا يتناقض معها أو يتناقض... هو قول يتناقض تماماً مع مفهوم

الوحي الحقيقي وغايته. فغاية الوحي الأولى والأخيرة هي الإنسان الذي يريد أن يعـرف الله، الإنسان في عصره، ومجتمعه، وبيئته، وظروفه، ومستوياته الفكريـة والعلميـة، وأسـاليب عيشه... لهذا نقول : إنّ الحقيقةَ رهينةُ التعبير عنها. يعني أنّ هناك هامشَ غموضٍ يلفّ كـلّ حقيقة بشريّة. ولا يمكن، ونحن في هذا العالم المتحرّك، أن نحظى بالحقيقة كاملـةً، تعبيـراً وإدراكاً، ودفعةً واحدة ونهائية...

ونستطيع القول : إنّ الوحي في المسيحية يحمل أخطاءً بالقـدر الـذي تصـنع هـذه الأخطاء شخصيّة الإنسان الفذّة. ثمّ أنّ الله يكشف عن وجهه ولو في ظلمات الحيـاة البشـريّة المدلهّمة؛ يخطّ مستقيماً ما رسم من أهدافٍ ولو على خطوطِ تاريخٍ إنسانيٍّ كثيرِ الاعوجاجاتِ والالتواءات.

* * *

أمّا في الإسلام فالكلام يطول جداً إن أردنا استعراض ما يجده المسلمون في القـرآن من علوم دينية واجتماعية وسياسية وأدبية وفلسفية ولغوية واقتصادية وطبيّة وعلمية وفلكيـة وفيزيائية وكيمـاوية... وما إلى ذلك. ففي القرآن يجد المسلمون، بحسب محمد عزّة دروزة: « أصولَ دينهم، وشرائعَ حياتهم، ونبعَ إلهامهم، ونبراس أخلاقهم، ونور هدايتهم في مختلـف شؤونهم الدينية والدنيوية، الروحية والمادية، العامّة والخاصة، السياسية والقضائية والاجتماعيّة والشخصيّة والإنسانيّة ... » [٢٨] .

وعند أنور الجندي إنّ كل ما في الأرض من علوم مصدرهـا ومرجعها القرآن، بـل « إنّ القرآن بمثابة ندوة علمية للعلماء، ومعجم لغة للغويين، وأجروميّة نَحْوٍ لمن أراد تقـويمَ لسانه، وكتاب عروضٍ لمحب الشِعر، وانسكلوبيدية عامّة للشرائع والقوانين » [٢٩] .

---

(٢٨) القرآن المجيد، المكتبة العصرية، صيدا، بدون تاريخ، ص ٥ ـ ٦.
(٢٩) أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار، ص ٣٢٦.

هذا القرآن، بحسب قول الدكتور يوسف مروّة[٣٠] ، نجد فيه كلّ « ما يؤيّد ويدعم مواضيع العلم الحديث : من تجزئة الذرّة، وثنائيّة المادّة، والأشعة الكونيّة، وطبقات الجوّ، والضغط الجوّي، وتركيب الماء والهواء، ولغة الحشرات، وبصمات الأصابع، والكائنات المجهريّة، وعدم فناء المادّة، وغزو الفضاء، والذبذبات الصوتية، والنقل البعيد، والرؤية عن بُعد (التلفزة)، إلى غير ذلك من حقائق العلم الحديث » [٣١] .

وفي رأي أحمد سليمان، أنّ القرآن تناول بالبحث كل المعارف والعلوم الممكنة « تناولاً شاملاً جامعاً مانعاً. لم يبقِ فيه للأجيال التي تلتْ نزولَه ما تزيده، ولم يترك للعلم وآلاته أن يُضيفا شيئاً إلى بيّناته... فسبق العلمَ ولم يترك زيادةً لمستزيد » [٣٢] .

وفي علم الدكتور مصطفى الرافعي إنّ في قطرة واحدة من بحر القرآن الزاخر « زهاء ثلاثة آلاف علم. فترى ما عسى أن يكون البحر!؟ » [٣٣] . وعنده أيضاً أنّ في القرآن « إشارات وآيات بيّنات في مسائل ما برِحتِ العلومُ الطبيعية تحاول الكشفَ عن كنهها منذ عصور » [٣٤] .

والشريعة أيضاً، مثل العلوم، في ذروتها. هذه الشريعة، بحسب محمّد قطب، « أرادها الله لمستقبل البشريّة كلّها، والتي وضعها الله على مستوى النضج

---

(٣٠) ولد في النبطية في ٧ / ١١ / ١٩٣٤، نال براءة سورية على اختراعه « محرّك لتوليد القوّة المحركة بواسطة الضغط الناشئ عن تفاعل عنصرَي الهواء كيميائياً » بتاريخ ٢٥ / ٦ / ١٩٥١. وفي ١٨ / ١ / ١٩٥٦ نشر نظرية هندسية جديدة في فرع الطبولوجيا. وفي عام ١٩٥٧ نشر معادلة رياضية جديد... « وكان في ذلك الحين، كما كتب عن نفسه، أوّل من تنبّأ بسقوط القمر الصناعي الروسي سبوتنيك الأوّل في كانون الأوّل ١٩٥٧... ثم تنقّل بين جامعات أوروبا ومختبراتها العلمية، ونشر في ١٨ / ٩ / ١٩٦٣ تفسيراً وتعديلاً جديدا لقوانين الجاذبية النيوتونية... الخ (انظر لمحة عن حياته وعلمه واكتشافاته في كل الحقول بقلمه، في كتابه العلوم الطبيعية في القرآن، منشورات مروّة العلمية، بيروت ١٩٦٨، ص ٨ ـ ٩).

(٣١) يوسف مروة، كتاب العلوم الطبيعية في القرآن، ص ٦٩.

(٣٢) أحمد سليمان، القرآن والطبّ، دار العودة بيروت، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٣٣) إعجاز القرآن، دار الكتاب العربي بيروت، ط ٩، ١٩٧٣، ص ١٢٦ حاشية ١.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ١٣١.

للبشريّة كلّها، وصاغها بحيث تشمل كل دقائق حياتهم، وتسير مع كلّ نموّهم وتطوّرهم حتى يرث الله الأرض وما عليها.. وعالج الإسلام هذه الشريعة بحيث لا تخرج الحياة البشرية في أيّة لحظة من تطوّرها عن مفاهيم الإسلام وتشريعاته » (٣٥) .

وفي القرآن أيضا نجد الحلول المناسبة لمشاكل الإنسان والكون. « والإنسانيّة، بعد طول حيرتها حول المذاهب والدعوات والأفكار، لن تجد حلاً لمشاكلها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية إلا في الإسلام » (٣٦) . والقرآن « هو المنهج الذي يعطي الجواب الصحيح عن كل مسألة، ويَحكم بالحق في كل مشكلة » (٣٧) . والإسلام دين « لم تقف أمامه مشكلة من المشكلات... دين وضع أصولاً خالدة لإصلاح جميع مجالات الحياة... لم يقف الإسلام حائلاً أمام أيّة مشكلة من مشكلات الحياة في كل عصر وكل بيئة. بل وجد الحلول العادلة لكل ما جدّ وما يجدّ على سطح الأرض من جديد... حلّ جميع العصبيات وأبطلها، وكلَّ المشكلات وأزالها، وجميعَ العقد النفسية والروحية عند جميع الناس... قابل الإسلام آلاف الدعوات والمبادئ والأفكار الجديدة، ومع ذلك لم تستطع أحداه أن تجاربه في حيويته، وبساطته، ومثاليته، وعظم مبادئه وأصوله » (٣٨).

ومن هذا القبيل وجّه الخميني رسالة إلى زعيم الاتحاد السوفياتي غورباتشوف، بوساطة وزير الخارجية شيفارنادزة، يحثّه فيها إلى « التأمّل فيما بعد الموت، وإلى اعتناق الإسلام لأنّ في الإسلام حلاً لجميع مشاكل العالم؛ وذلك قبل أن تصبح الشيوعية آثاراً في المتحف » (٣٩) .

وأخيراً نقول مع الدكتور داوود العطّار : « لعلّ أهمّ الأسباب الداخلية

---

(٣٥) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص ٢١ ـ ٢٢.
(٣٦) محمد فريد وجدي، المستقبل للإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ١٢٦.
(٣٧) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص ٣٢١.
(٣٨) الدكتور محمد خفاجي، الإسلام ونظريته الاقتصادية، ص ١١.
(٣٩) الصحف اللبنانية جميعها، في تاريخ ٢٧ / ٢ / ١٩٨٩.

لانحطاط المسلمين وتأخرهم في الوقت الحاضر هو انصرافهم عن تدارس ما في القرآن مـــن كنوز العلم والمعرفة، والتي ما زالت بكراً حتى الآن » [٤٠] .

* * *

يتحصّل من مفهوم الوحي المسيحي، أنّ المسيحيين، تجاه الحقيقة والمطلق يظلّون في حالة بحث وقلق. وهم لا يجدون في كتبهم الموحاة أيّة حقيقة تعالج الوضع البشري المـــرتهن بظروف التاريخ وتحوّلاته. بل هم في صراع ونضال دائمين. لا شيء ينكشف لهم طالما هم في هذا العالم العابر. ولذلك هم، في قلقهم هذا، يعيشون حالة رجاء دائم. يتطلّعون باســـتمرار نحو العالم الآتي، ويترجّون، بعد انتقالهم من هذه الحياة، مواجهة الحقيقة والمطلق. هذا الرجاء هو لهم اليوم بسبب معاناتهم مع الله. هذا هو صليبهم المنتصب أمام عيونهم أبداً.

أمّا ما يتحصّل من مفهوم الوحي الإسلامي، إنّ المسلمين، تجاه الحقيقـــة والمطلـــق، مطمئنّون مرتاحون. لا قلق عندهم ولا اضطراب. يواجهون الحقيقة فيجدون لها ألـــف حـــلّ وحلّ في كتابهم « المنزل » . هذا الكتاب، فيه « الحق اليقـــين » (٦٩ / ٥١) و « القـــول الفصل » (٨٦ / ١٣). كلّ ما يترجّاه المسلم من الحياة الآتية يعرفه هنا. وما سيحصل عليه هناك لا يختلف عمّا يعرفه هنا. ولهذا يجد في كتابه « كل الحلول لكل المشاكل » ، كما يجد فيه كل العلوم والاختراعات والمعارف. هذا « الكل في كل شـــيء » جعـــل المســـلمَ قـــابلاً لوضعه، غيرَ متألّم من أيّ نقص ما، وغيرَ قلقٍ على مسيرته وحريّته.

* * *

٨ً ــ يتمركز الوحي الإلهي، في المسيحية، في شخص يسوع المسيح. فهو الـــوحي، وملء الوحي، وكمال الوحي وتمامه وغايته ونهايته واستمراريته إلى دهر

---

(٤٠) د. داوود العطار، موجز علوم القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩، ص ٧.

الداهرين باستمرار الروح في الكنيسة. لا بعده وحي يرتجى خارجاً عنه، ولا قبله وحي لم يكن متّجهاً إليه. فالمسيح هو صاحب الوحي الأساسي، وهو موضوعه. لقد تمّ كل شيء به، وبه كان « ملء الزمن » (غلا ٤ / ٤). وما تمّ به سلّمه إلى رسله، و « تسلّم » رسله ما سلّمهم إيّاه. وهؤلاء، عن طريق الكنيسة، « بلّغو الناس » ما تسلّموه، وذلك بهدي الروح القدس وإرشاده. وفي النهاية يتمّ الوحي بتمام المشاهدة العيانية لسرّ الله.

هذا ما يعلّمه المجمع في الدستور العقائدي للوحي. يقول : « الحقيقة الخالصة التي يطلعنا عليها الوحي، سواء عن الله أم عن خلاص الإنسان، فإنّها تسطع لنا في المسيح الذي هو وسيط الوحي بكامله، وملؤه، في آن واحد » [٤١] . ويعلّم أيضا : إذا كانت غاية الوحي خلاص الإنسان، فالخلاص تمّ واكتمل بالمسيح. فالمسيح إذاً هو غاية الوحي : « وعليه، فهو الذي ــ إن رآه أحد فقد رأى الآب ــ بحضورِه الذاتي الكامل، وبظهوره، وبأعماله وأقواله، وبآياته ومعجزاته، وخاصة بموته وقيامته المجيدة من بين الأموات، وأخيراً بإرساله روح الحقّ، يتمّم الوحي، ويكمّله، ويثبّته... » [٤٢].

القول بأنّ المسيح هو كمال الوحي، بل هو الوحي يعني **أوّلاً** ــ أنّ الوحي في المسيحية ليس كتاب الإنجيل. وما الكتاب سوى ذكريات أو مذكّرات شخصيّة[٤٣] ، كتبها أناس بإلهام وإخلاص وصدق. في هذه « الذكريات » بعض تعاليم معلّمهم، وبعض حياته ومعجزاته. وهي مهمّة من أجل ما فيها من هذا البعض. وبما أنّها وسيلة لمعرفة عمل المسيح الخلاصي، أقرّتها الكنيسة بسلطان. ففي تعليم الكنيسة، ليست إذاً سوى « الشهادة الرئيسية على حياة الكلمة المتجسّد » [٤٤]. وهي « تؤكّد كل ما يتعلّق بالمسيح، وتعبّر أكثر فأكثر عن تعاليمه

(٤١) دستور عقائدي في الوحي الإلهي، عدد ٢.
(٤٢) المرجع نفسه، عدد ٤.
(٤٣) تعبير استعمله الدستور في عدد ١٩، سيأتي ذكره في نصّ لاحق.
(٤٤) دستور في الوحي، عدد ١٨.

الأصيلة، وتبشّر بقوّة العمل الإلهي الخلاصية الذي تمّمه المسيح، وتخبر عن بدايات الكنيسة وانتشارها العجيب، وتنبئ بكمالها المجيد » [٤٥].

وإذا كان المسيح هو الوحي يعني **ثانياً** ــ إمكانيّة تعدّد مؤلّفي الكتب الملهمة مراعاة لظروف الكنائس، وانطلاقا من مبدأ الكرازة الشفوية. وقد عبّر المجمع عن ذلك بقوله: « كتب المؤلّفون الأناجيل الأربعة، واختاروا بعض ما كان ينقل بغزارة، شفوياً أو كتابة، وأوجزوا البعض الآخر، أو فسروه مع مراعاة ظروف الكنائس، واحتفظوا أخيراً بأسلوب الكرازة، بحيث أنّهم أعطونا دوماً عن يسوع ما هو حقّ وصادق. ولقد كتبوا بتلك النيّة، سواء تدفّقت الأمور من ذاكرتهم وذكرياتهم الشخصية، أو صدرت عن شهادة أولئك الذين عاينوا بأنفسهم » [٤٦].

ويعني **ثالثاً** ــ وبحسب تعبير المجمع أيضاً « إنّ التدبير المسيحي الذي هو العهد الجديد والنهائي لن يزول أبداً، ولن يرجى أيّ وحي جديد علني قبل الظهور المجيد لسيدنا يسوع المسيح » [٤٧]. هذا يعني أنّ ما في العهد الجديد يكوّن أساساً كاملاً لحياة الكنيسة حتى تسير به مزوّدة كفاية نحو مجدها العظيم.

ويعني **رابعاً** ــ عناية الكنيسة عناية فائقة بكتب الوحي جميعها، بتعدّد رواياتها، وكما هي. وذلك استناداً إلى القول بمختلف مصادر الوحي، شفويةً كانت أم كتابةً، اخباريّة هي أم رسائل أم رؤى... وما إلى ذلك، لأنّ « الكنيسة تمسّكت وتتمسّك دائماً وفي كل مكان بالإنجيل الرباعي الشكل » ، وتحترم تعدّدها وتحافظ عليه... وقد رفضت كل محاولة لدمجها. هذا الاحترام يستند إلى مفهومها للوحي، أيّ إنّ الوحي الحقيقي ليس في ما كُتب، بل عن مَن كُتب.

* * *

---

(٤٥) المرجع نفسه، عدد ٢٠.
(٤٦) المرجع نفسه، عدد ١٩.
(٤٧) المرجع نفسه، عدد ٤، راجع ١ تيمو ٦ / ١٤، تيطس ٢ / ١٣.

هذه المعاني المسيحية لا نجدها في الإسلام إطلاقاً. الوحي في الإسلام هو القرآن. والقرآن هو الوحي. ولا وحي بعد القرآن. إنّه الوحي النهائي. وكما كان تمام الوحي المسيحي في المسيح، والكتب هي « شهادة له » . فإنّ تمام الوحي الإسلامي في القرآن و « محمّد » شاهد له. في المسيحية بقي الشاهد والمشهود له. أي الكتاب والمسيح؛ أمّا في الإسلام فقد ذهب الشاهد وبقي المشهود عليه، أي القرآن. ولنقل ذهب « الروح » ، وبقي « الحرف » .

ومع بقاء المسيح والكتاب، في المسيحية، تبقى أيضاً الكنيسة لتدلّ وتشهد وتضمن سلامة المسيرة، بهدي الروح القدس ومواهبه الغزيرة ... أمّا في الإسلام فلم يبق إلاّ « الكتاب » ، إذ لا كنيسة، ولا روح قدس، ولا تقليد حيّ، ولا كرازة، ولا المشهود عليه. لهذا يُخشى في الإسلام حصول أمرين قد حصلا : حصلَ تقديسُ النبيّ واعتبارُه كائناً سامياً فاعلاً شفيعاً حيّاً يهدي أمّته إلى حيث يريد. فصنعوا له الأعياد والاحتفالات والذكرى والابتهالات... وهو تكريم رفضه وحاربه المسلمون الأصوليون المتشدّدون، أمثال الوهابية والأخوان المسلمون... وحصل ثانياً الإيمان بوجود الإمام الهادي المنتظر حيّاً يقوم بعناية الكتاب وحفظِه والاحتفاظ به، وبتفسيره وتأويله وضمانة استمراريته. وهو موقف الشيعة الإمامية على اختلاف مذاهبهم وتعدد فرقهم.

هذان موقفان طبيعيان في الإسلام، لأن ليس فيه من يضمن الوحي ويتولاّه بسلطان، ويقدّمه للعالم بحلّة عصرية مناسبة، وبقراءة تناسب متغيّرات هذا العالم، كما هو حال الكنيسة وعملها في العالم.

ومن الطبيعي أيضاً أن يكون في المسيحية، نتيجة تعدد الكتبة الملهمين وتعدد أساليب الكتابة وتنوّع ظروف الكنائس التي كتبوا لها، أن يكون هناك صلوات وابتهالات وأناشيد وأعياد وليتورجيات متنوعة تضعها الكنيسة نظراً لإيمانها بحريّة التعبير وتنوّعه. فالكنيسة تسهم، بدورها، في توضيح الوحي وعصرنته، بما لها من سلطان... فيما الإسلام لا يمكنه أن يضع صلوات وابتهالات وطقوساً نظراً

لـ« وحدانيّة » الكتاب وتعلّقه بالله رأساً، بدون تحديث له أو عصرنة؛ لأن كلام الله، كما يعتقد المسلمون، لا يحتاج إلى تحديث أو عصرنة. فهو أساس كل تحديث وعصرنة.

بهذا المعنى نقول : إن الوحي في الإسلام « مغلق » ، يدور في دائرة لا تتعدى، في المفهوم الإسلامي، ثلاثة : الله، جبريل، ومحمّد. وهو أيضاً « مغلق » بين دفّتي كتاب واحد، مؤلّفه واحد، في فترة زمنيّة محدّدة، ولمجتمع معيّن... لا تعدّدية في مصادر الوحي الإسلامي، أي لا تنوّع فيه ولا حركة ولا انفتاح. وهذا طبيعي، في رأيهم، لأنّ الله واحد. لقد أحسّ « الإماميّة » بهذا « الانغلاق » فأوجبوا الاعتقاد « بالإمامة » ، وهي الركن السادس من أركان الإسلام، عند الشيعة، وهي « كالكنيسة » ، تتولّى شؤون تقديم الوحي إلى الإنسان المتنامي والمتطوّر في أساليبه وظروف حياته.

* * *

٩ ـ ثمّ إنّ للوحي المسيحي **طابعاً جماعيّاً**، أي أنّه لا يتوجّه إلى روحانيّة الفرد فحسب، ولكن إلى الكنيسة، بحيث أنّها هي المرسَل إليها أوّلاً لتشهد له بصورة دائمة. وهذا الوحي المدرج في كتاب قد لا يُعرف إلاّ بشهادة الكنيسة. وهو لا يعاكس سلطة الكنيسة، بل هي تفسّره بسلطان، لأنّ الكتاب كان منذ البدء، شكلاً أساسياً من الكنيسة الأولى. ثمّ أنّ الصلة بين الكنيسة والكتاب تتأتّى من كون الاثنين لا يمثّلان مرجعين متميّزين متنافسين : فالكنيسة تشهد للوحي، والوحي مصدر تعاليمها؛ للكنيسة سلطانها المطلق من الوحي، والوحي مطلق كامل ناجز تتولّى الكنيسة تنفيذه. وليس لأحد أن يشكّ في صلاحيات الكنيسة هذه. فهي الجسد السرّي للمسيح في العالم، أي هي الوحي نفسه المستمرّ حيّاً متكاملاً متلازماً لنمو البشريّة.

فعلاقة الكتاب بالكنيسة إذاً، هي علاقة ارتباط عضوي. لا ينفصل الواحد عن الآخر. إنّهما متلازمان منذ البدء. غير أنّ الكنيسة لها أن تستخرج معاني

الوحي وتُقدّمُها للناس حيث هم في جميع عصورهم وحالات نموّهم. وليس كل فرد من البشر يستطيع أن يجد ما تستطيع الكنيسة أن تجد. فالوحي أعطي أولاً وآخراً للكنيسة، أو لكل فـرد ينتمي إلى الكنيسة. هذا يعني أنّ مسيحياً خارج الكنيسة لا يكون. أي أن مسيحياً يحاول فهـم الوحي اعتماداً على ثقافته وتربيته وأميال قلبه، هو مسيحيّ قد يكوّن لنفسه مسـيحاً بحسـب ثقافته وتربيته وأميال قلبه، لا مسيحاً هو رأس الكنيسة وجسدها السرّي.

* * *

هذا الطابع الجماعي للوحي في الإسلام غير وارد : أنزل الكتاب على محمّد، ومحمّد دفعه للناس لكي يسيروا بموجبه. فكل من « قرأه »، أو « تلاه »، أو « رتّله »، أو « تدبّره » ــ هذه ألفاظ ترد بكثرة في القرآن ــ يكن مسلماً مؤمناً طيّباً، لا شائبة في إسلامه. نعني بذلك أنّ المسلم يأخـذ إسلامه من « الكتـاب » مباشـرةً. لا من « الجمـاعة » . ولئن كان من « جماعة » أو « أمّة » في الإسلام، دعا القرآن إلى تكوينها، فهي « أمّة » اجتماعيّة سياسيّة تقيم شريعة الإسلام، ويكون القرآن دستورها الأوحد.

فالوحي الإسلامي إذاً، على صعيد « الجماعة » ، كان في سبيل بناء مجتمع سياسي، هو « دار السلام » بمقابل « دار الحرب » التي هي دار غير المسلمين إطلاقاً. وعلى صعيد الفرد، هو في سبيل هديه إنْ تدبّرَ أركانَ الدين وسارَ بموجبها. فالفرد في الإسلام يكون مسلماً وإنْ لم ينتمِ إلى « الأمّة » . وانتماؤه إلى « الأمّة » قد يكون واجباً، ولكن في سـبيل بنـاء مجتمع سياسي يطبّق أحكام القرآن، وليس في سبيل الخلاص أو صحة الانتماء إلى الإسلام.

* * *

علينا أن نلاحظ، في مجال هذا الطابع الجماعي للوحي، أنّ المسلمين الذين يجتمعون للصلاة يوم « الجمعة » ، هم لا يجتمعون من قِبَلِ الواجب الملزِم؛ ولا يجتمعون عند صلوات ليتورجيّة تضعها الجماعة، أو لها الحقّ في وضعها؛ ولا

يجتمعون لذكرى حدثٍ خلاصي تمّ في التاريخ؛ ولا يجتمعون في احتفالٍ أو عيدٍ يدور على نعمةٍ ربّانيّة تلقّاها وليّ... هذا، وإن اجتمع المسلمون يوم « الجمعة » فهو اقتداءً باجتماع اليهود يوم « السبت » واجتماع المسيحيين يوم « الأحد » . ولكن كم من فرق بين هذه الاجتماعيات!

* * *

١٠ ــ وأخيرا يتميّز الوحي المسيحي بكونه **وحياً مَعَاديّاً** (أخرويّاً)، أيّ أنّه « لم يتمحور حول حياة يسوع الأرضية فحسب، بل يتّجه نحو ظهوره الأخير، الذي يمهّد له، منذ اليوم، تاريخُ الكنيسة والعالم أجمع... وإليه تتطلّع الكنيسة (رؤ ٢٢ / ١٧)... وبفضله تستطيع أن تدرك بوضوح مسيرتها التاريخية ومصيرها النهائي » .

في ذلك اليوم، حين يمسي الوحي متجلّيًا بتجلّي يسوع النهائي (١ بطر ١ / ٧ و١٣)، سيظهر البشر أيضاً معه في المجد (كو ٣ / ٤). ويتطلع البشر كلّهم نحو هذا التجلّي الذي سيتمّ في آخر الأيّام، بفارغ الصبر، بالمشاركة مع الخليقة كلّها (رو ٨ / ٩ ــ ٢٣)، حيث تُستبدل بعده حياةُ الإيمان بحياة المشاهدة المباشرة لله وجهاً لوجه (١ كور ١٣ / ١٢، ٢ كور ٥ / ٧).

فالوحي المسيحي إذاً، في معناه الحقيقي، وفي حقيقته القصوى، يتطلّع نحو تحقيق غاية الإنسان القصوى التي هي الحياة مع المسيح، وفيه، وبه، وله.

* * *

في الإسلام لا يبدو فصلٌ بين حياةِ الإيمان هنا وحياة المشاهدة هناك. فتمام وحي المسلمين يتمحور حول بناء حياة أرضيّة، ينتشر فيها « السلام الإسلامي » ، ولا تطبّق فيها إلاّ شريعة القرآن، ولا يُنتظر نعيمٌ في الجنّة يختلف عن نعيم الأرض، بما فيه من طيّبات ماديّة وتحقيقٍ لشهواتٍ جسدية واستحصالٍ على عددٍ وفيرٍ من الحوريات... فما هو هنا سوف يجده المسلمون هناك. وما يكوّن سعادتَهم هنا هو نفسه يكوّن سعادتهم هناك. وليس الله هناك بأكثر ممّا هو هنا.

قد تكون هناك سعادة بالله، كما يشير القرآن؛ ولكنّها سعادة برضوانه الذي يوفّر لأحبائه طيّباتهم الوفيرة. فسعادتهم بالله بما يُعِدّ لهم، لا به هو، أو فيه، أو معه...

* * *

انطلاقاً من كل ذلك نوضح بعض المغالطات الواردة في أقوال بعض المسلمين، فنقول:

إن كلام السيد هاشم على « أنّ القرآن والمسلمين والمؤمنين به لا يعترفون إلاّ بإنجيل واحد، هو إنجيل النبي عيسى » (١٠٥)، لا معنى له. وكلام عبد الكريم الخطيب بأنّ « الواقع والعرف لا يسمحان بأن يكون لعيسى أكثر من كتاب » (في هاشم ١٠٥)، هو أيضاً كلام لا معنى له. والقول بأنّ إنجيل عيسى الحقيقي قد ضاع أو غُيّب أو ضُيِّعَ أو أُخفي أو أُتلف أو بُدّل أو حُرّف... وما أشبه... هو أيضاً لا معنى له. والكلام بـ« أنّ أنصار التثليث قضوا قضاءً مبرماً على كل أثر لهذا الإنجيل » العيسوي (١٦٨) هو كلام لا معنى له أيضاً وأيضاً...

ثمّ أنّ السيّد هاشم يأخذ على المسيحيين شيئاً لا يَطرح لهم مشكلة، وهي « إنّ المسلمين يؤمنون بأنّ النبي عيسى قد ترك للبشرية إنجيلاً سماوياً » (١٦٨). فهذا كلام لا سند له في المسيحية، لا قديماً ولا حديثاً، لا في العقيدة ولا في التاريخ. ولم يقل به أحد، وليس هو في وارد أي منطقٍ مسيحي... المسيح لم يكتب كتاباً، ولم ينزّل كتاباً. فمن أين جاء السيد هاشم والمسلمون بهذه المقولة ؟!

وفي هذه المقولة أيضاً يبدو السيد هاشم على اضطراب. فهو، في مكان آخر يطعن بالمسيحيين لأن ليس لهم انجيل مكتوب. يقول : « وإذا كان محمّد قد ترك للمسلمين قرآناً واضحاً متماسكاً ليسيروا على نهجه وهديه، فإن من البحاثة والمفكرين ــ وجلّهم مسيحيين (كذا) ــ من يعتقد أنّ المسيح لم يترك للمسيحيين إنجيلاً، أو على الأقل إنجيلاً مكتوباً » (١٦٨). نقول : هذا عين الصواب. ولكن أيّة مقولة من المقولتين يعتمدها السيد هاشم لنأخذ منه الحَقيقة!

* * *

وكلام الشيخ حَسن خالد أيضاً بعيد جداً عن المفهوم المسيحي للوحي، فهو يريد من المسيحية أن تؤمن بأنّ « هذا الإنجيل لا يمكن أن يكون أناجيل » (٧١٣). والمسيحية تؤمن وتعلّم بأنّ كتاب الإنجيل روايات تاريخية وذكريات مَن عاينوا وسمعوا ونقلوا بصدق... فليس هو المسيح الذي كتب، كما يكرّر سماحته قائلاً : « إنّ سيدنا عيسى عليه السلام جاء حاملاً معه كتابه الإنجيل » (٥٩٥)... فمن أين جاء سماحته بهذه المقولة ؟! أهو الذي يعلّم الكنيسة ما به يجب أن تؤمن وتعلّم! أم عليه أن يسمع ويتأمّل ويقبل ويؤمن. فقبل القرآن بسبعة قرون كانت الكنيسة تعلّم ما هي الآن تعلّم...

ثمّ إنّ قول الشيخ حسن بأنّ الإنجيل تكلّم على محمّد ووصَفَه في أكثر من مكان فهو حكم جاهل بمفهوم الوحي من أساسه. نعود لنؤكّد لسماحته الشيخ بأنّه ليس من شأن الوحي أن يتنبّأ عن المستقبلات، أن يتكلّم على الناس، أن يبدّل ويغيّر في قوانين الكون، أن يبشّر بأحداث عتيدة، أن يحلّ مشاكل، أن يتضمّن دقائق العلم والمعرفة، أن يسنّ شرائع... كتاب الإنجيل هو، مذكرات وذكريات كتبها من عاين وشاهد وسمع، وألهمه الروح على ذلك، وثبّتت الكنيسة ما أُلهم بسلطان.

* * *

نختصر ونقول : إن الإنجيل ليس كتاباً منزلاً من السماء. عيسى لم يَنزِلْ بكتاب، ولم يكتب إنجيلاً. ولم يأمر بأن يكون للكنيسة كتاباً. وليس الخلاص متعلّقاً بهذا الكتاب. وليس الكتاب هو تمام الوحي وغايته... الإنجيل كتاب كتبه رجال من الكنيسة ملهمون. كرزوا به شفوياً ثم كتبوه ليبقى شاهداً فقط على الوحي ذاته الذي هو المسيح نفسه... أمّا في الإسلام فالأمر يختلف تماماً إذ أن النازل من السماء هو « الكتاب » . والكتاب هو الوحي. وكل شيء منوط بالحرف. فيما كل شيء في المسيحية يعود إلى المسيح نفسه.

ثانياً ــ الكنيسة

موقف المسلمين من الكنيسة موقف رافض : يرفضون وجودها أصلاً؛ ويرفضون انتسابها إلى المسيح وعلاقتها به؛ ويرفضون أهليتها وصلاحياتها في تعيين كتب الوحي ومصادره، وفي تحديد العقائد، وفي تعاليمها الأخلاقية والاجتماعية، وفي دورها في سنّ القوانين والتشريع، وفي حقّها في إنشاء المؤسّسات والمنظمات الدينية؛ ويرفضون خاصة مهمّتها الخلاصيّة ودورها الفعّال في رفع البشرية نحو خالقها ومخلّصها...

قد يحترم المسلمون الكنيسة ورجالاتها، لكونها مؤسّسة إنسانيّة لها شأنها ومكانتها في العالم. أمّا أن تكون الكنيسة « مكاناً للخلاص » ، أو أن يكون لها طابع إلهيّ مميّز، أو أن تكون « سرّاً ظلّ مكتوماً في الله مدى الأزل وقد كُشِف الآن عنه » (رو ١٦ / ٢٥)... فهذه أمور لا تعني لهم شيئاً، إذ « هم لا يريدون أن يتجاوزوا، بتصوّرهم للكنيسة، حدودَ الجانب الإنساني، أي لا يريدون أن يروا فيها أكثر من جماعة بشريّة منظّمة، ومكوّنة من أشخاص متّحدين في العقائد والعبادة » [١] .

وفي كل حال، وعلاوة على كل اعتبار، الكنيسة بمعناها المسيحي اللاهوتي، لا وجود لها في القرآن! واللفظة نفسها لا توجد فيه إطلاقاً. غير أنّ لفظة « بيعة » موجودة مرّة واحدة، بصيغة الجمع : « بيَع » ، في قوله : « ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لَهُدِّمَتْ صوامع (للرهبان) وبِيَع (للنصارى) وصلوات (لليهود)

---

(١) معجم اللاهوت الكتابي، مادّة : كنيسة.

ومساجد (للمسلمين) يُذكر فيها اسم الله كثيراً » [٢] . ولكن من الواضح أنّ « لفظة « بيع » هنا تعني أمكنة للعبادة، مثل « الصوامع والمساجد والصلوات ».. ولا تعني الكنيسة بمفهومها اللاهوتي المسيحي المعروف، أي « جماعة المؤمنين بالمسيح » ، و « جسد المسيح السرّي »...

هذه الكنيسة، بمفهومها اللاهوتي، يجهلها الإسلام والمسلمون جهلاً تامّاً. وهي غير موجودة لا في إسلام اليوم ولا في إسلام الأمس.. ولكن، هذا المجهول الأكبر في الإسلام هو الفاعل الأكبر في المسيحية. وحين يتناول المسلمون الكنيسة في مجامعها ورجالاتها وتعاليمها ومؤسساتها، فهم يتناولونها بالنقد والطعن والتجريح، بسبب أن الكنيسة تعدّتْ حدودها، « واخترعت » « ديناً » و « كتاباً » و « عقائد ».. يتبرّأ منها، بنظرهم، المسيح والمسيحية معاً.. أمّا المسيحيون فحين يتكلّمون على الكنيسة فكأنّهم يتكلّمون على المسيح نفسه، إذ هي جسده السرّي، وامتداد تجسّده في الكون، ومكان خلاصه الأكيد، وشكل السعادة الكاملة التي ستتحقّق في الدّهر العتيد.

* * *

أمّا المفهوم الإسلامي للكنيسة فواضح في ما كتبه المسلمون. ومآخذهم عليها تنال منها في الصميم. فالشيخ حسن خالد يعتقد بأنّ الكنيسة « عقدتْ مجامع، واتّخذت من القرارات ما أضاف إلى النصرانية ما لم يكن منها » (ص ٥٢٦). ومثله يقول السيّد هاشم ويعتقد بـ« أنّ المسيحية هي من صنع البشر » (ص ٢٥٦)، و « أنّ الإيمان المسيحي برمّته ما هو إلاّ تدبير بشري » (٢٥٥). هذا التدبير قامت به الكنيسة طبعاً.. ومثلهما قال بالأمس ابن قيّم الجوزيّة بأنّ « النصارى تلقّوا أصول دينهم عن أصحاب المجامع » (١٦٧). وعن شيخ الإسلام أخذ المسلمون رأيهم في الكنيسة التي بدّلت وحرّفت وغيّرت في دين المسيح.

---

(٢) القرآن سورة الحج ٢٢ / ٤٠.

ويكفينا دليلاً عنوان كتابه : « الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح » ؛ لكأنّ للمسيح ديناً جاء به، وتناولته الكنيسة تبديلاً وتزويراً!

رأي المسلمين في الكنيسة إذاً واضح : الكنيسة، في اعتقادهم، مجموعة بشريّة تولّت أمر المسيحية، فقرّرت لها كتبها، وعقائدها، وسلوكها، ومؤسساتها. وعقدت مجامع، فحلّلت فيها ما حلّلت، وحرّمت ما حرّمت. قامت بدور المسيح نفسه، فعلّمت ما ليس لها عليه سلطان. ودليل المسلمين على تخطّي الكنيسة صلاحيّاتها : تعدّد الآراء والتعاليم فيها، حتى صارت الكنيسة الواحدة كنائس وطوائف ومذاهب لا حصر لها ولا عدّ. وما علّمته « الكنائس » هو « مستحدث » ، لا شأن للمسيح فيه. فالنصرانيّة الصحيحة، بحسب أبي حنيفة، هي « التي يأخذها المسلمون عن محمّد، عن جبريل، عن الله » . وما فيها من « مستحدثات » هو من صنع البشر.

وبسبب ما قامت به الكنيسة من تعاليم أساسيّة، بات المسلمون لا يميّزون فيها بين ما جاء به الوحي عمّا جاء به البشر؛ ولا يعرفون « دين المسيح » من « دين الكنيسة » . فكم في « دين النصرانية » اليوم، في رأيهم، من تبديل وتزوير وتحريف!. حتى بات المسيحيّون كالمشركين في عقيدتهم؛ وأمسى المسيح إلهاً وابناً لله بدل أن يكون، كما قال القرآن، رسول الله ونبيّه.. والكنيسة هي المسؤولة عن هذا التزوير العظيم، على حدّ قول المسلمين قاطبة.

* * *

هذا المفهوم الإسلامي للكنيسة يختلف جذرياً وأصلاً عن المفهوم المسيحي. وليس على الذين يريدون معرفة دور الكنيسة في المسيحية وأهميّتها العظمى، إلاّ أن يرجعوا إلى ما كتبه المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني في أوّل وأهمّ دستور له، هو « دستور عقائدي في الكنيسة » . علماً بأنّ مقالة « الكنيسة » ، في البحوث اللاهوتية العقائدية، هي من أهمّ المقالات إطلاقاً، وأساس لها جميعها. تناولها ويتناولها كل باحث لاهوتي يريد أن يدخل في سرّ المسيح وسرّ الخلاص. ولن

يكون لنا برهان على خلاص البشر خارج الكنيسة. فالكنيسة هي مسيرة المسيح الدائمة والمستمرّة في التاريخ.

فنظراً إلى أن مفهوم الكنيسة في المسيحية هو مبدأ من المبادئ الأساسية في علم اللاهوت، ونظراً إلى أنّ ذروة الخلاف فيما بين المسيحية والإسلام تمسّ الكنيسة في صميمها، ونظراً إلى أنّ الموقف الإسلامي الصارم والجازم من القضايا المسيحية كلّها يتركّز، في جملة ما يتركّز، حول المفهوم الحقيقي لدور الكنيسة.. كان لا بدّ من إلقاء ضوء مسيحي لاهوتي واضح على مفهوم الكنيسة ودورها. فنقول :

منذ الأزل، و « قبل إنشاء العالم » (أفسس ١ / ٤)، أسّس الله الكنيسة؛ لأنّه، منذ البدء، دعا الإنسان إلى أن يعيش في « جماعة » . ولمّا وقعت الخطيئة، وفرّقت ما بين الناس، فرط عقد « الجماعة »؛ فكان لا بدّ، لجمع شمل أبناء الله المشتّتين (يوحنا ١١ / ٥٢)، من إعادة الإلفة والمصالحة والوحدة في « جماعةٍ » واحدةٍ تسمّى « كنيسة » . فالكنيسة هي البشريّة في استعادة لحمتها.

الكنيسة هي الشكل الذي يحيا الله فيه على الأرض. هي المكان الوحيد لمعرفة الله واستمراريّة حضوره في العالم. وهي تُحَدّد، في وضعها الراهن، بكونها جماعة البشر المتمتّعين بخلاص المسيح (رسل ٢ / ٤٧).

الكنيسة هي ملء قامة المسيح على مستوى الكون كله، من بدايته حتى نهايته. هي الخليقة الجديدة التي تعهّدها المسيح فأصبح لها مخلّصاً ورأساً وربّاً. هي حضور الله في العالم القلق المضطرب. هي الكتاب الإلهي المفتوح الذي لم تنتهِ كلماته بعد، هي الرؤيا التي تطلّ على آفاق جديدة حتى نهاية الدّهر.

في الكنيسة، كما في المسيح، « يحلّ جميع كمال الألوهيّة حلولاً جسديّاً » (كو ٢ / ٩). المسيح موجود فيها بجسده، حاضر حضوراً فعّالاً حقيقيّاً ملموساً. موجود انطلاقاً من مبدأ « إذا ما اجتمع اثنان باسمي أكون الثالث بينهما » . لهذا فالكنيسة واجبة الوجود لوجود المسيح وحضوره، لعمله الخلاصي ولإكمال مهمّته. من هنا يمكننا القول : الكنيسة هي المسيح والمسيح هو الكنيسة. بولس عرف ذلك منذ لحظة ارتداده (رسل ٩ / ٤ ــ ٥).

تجمع الكنيسة البشريّة كلَّها : فهي تتوجّه إلى اليهود كلّهم، وتنفتح على الأمم كلّهم (رسل ١٥ / ١٤). في كينونتها الدعوة إلى الوحدة بين اليهود والأمم في جماعة واحدة، أيّ « إنّ الأمم، هم، في المسيح يسوع، شركاء اليهود في ميراثه وجسده ووعده » (١ ف ٣ / ٤). وفي صميم رسالتها أيضاً عمل المصالحة بين شعوب العالم قاطبة، « لأنّ الله صالح العالم في المسيح » (٢ كور ٥ / ١٩).

شأن الكنيسة أن تقدّم المسيح إلى العالم من حيث هي، من موقعها في العالم، من نظرتها الخاصّة للأمور، من منطلقاتها ومعطياتها بحسب نموّها وتطوّرها. فهي تواكب العالم؛ ولذلك باستطاعتها أن تصيّر المسيح متجسّداً دائماً، حاضراً دائماً، حيّاً فيها إلى الأبد. رسالتها، والحالة هذه، أن تعدّ البشر إلى قبوله، أن تشهد له، وتكمّل إنجيله لله وتحقّق خلاصه، وتهيّئ الكونَ إلى مرحلته النهائيّة.

من هنا نقول : إنّه من غير الممكن ألاّ تكون الكنيسة هي المرحلة الأخيرة لهذا العالم. هي الشكل الأخير للبشريّة المطوّبة. والكلمة الحسم لكل وحي. والحَكَم الأخير لكل شريعة وقانون. بل هي ملكوت الله على الأرض. وباب الخلاص لكل المدعوّين. ولن يكون سلطانٌ بدونها، ولا حلّ ولا ربط، ولا خلاص خارجاً عنها. وليس من وحي مدرج في كتاب يُشهَد على أصالته وصحّته إن هي لم تدلّ عليه.

* * *

ومع هذا ليست الكنيسة هي الشكل المثالي الكامل، وليست هي الملكوت السماوي المحقَّق. الكنيسة تسير. هي شعب ــ الله ــ في ــ مسيرته. هي خاضعة لتطوّر التاريخ. هي تناضل وتجاهد ضدّ قوّات الشرّ. تتألّف من أناس، فيهم خطأة وفيهم أبرار. ينبت فيها الزؤان مع الزرع الجيّد... هي ناقصة تسعى نحو الكمال، وتبحث باستمرار عن الوسائل الفعّالة للخلاص لتقدّمها لأبنائها. هي، بالنتيجة، صورة المسيح المنازع أبداً.

الكنيسة هي سرّ شعبٍ خاطئٍ مشتّت، ولكن أصبح لديه إمكانيّة الخلاص والوحدة. إنّها جماعة « المدعوّين ليكونوا قدّيسين » (رو ١ / ٧، ١ كور ١ / ٢)، وليسوا بعدُ قدّيسين. إنّها جماعة تمتلك عربون الخلاص والقيامة، ولكنّها لم تنلها

بعد. إنّها تسير نحو تحقيق ملكوت الله، ولكنّها ليست هي الملكوت المرجوّ في الدهر العتيد. وفي سبيل تحقيقه كان لها على الأرض سلطان.

تتعامل الكنيسة مع العالم بكل ما فيه، وكما هو. وُجدتْ فيه وله. تعمل من أجله. تتعامل مع الخطيئة بكلّ شرّها ونتائجها. من أجل هذا وُجدتْ. وهي، على مثال ربّها ومعلّمها، تقدّم الغفران، ولا تنبذ أحداً من الخطأة، وتبحث عن الضالّين، وتحضن المسترخين، وتهتمّ بالمساكين، وتحبّ كلّ الذين لا مكان لهم في هذا العالم. كنيسة الفقراء والخطأة هي، وإلاّ ليست هي شيئاً.

في الكنيسة يكون الخلاص، لا بغيرها، أو بدونها، أو خارجاً عنها. هي هي الواسطة إليه. كما هي الواسطة إلى القداسة، وإلى المسيح، وإلى الله. بدونها لا مسيح ولا قداسة ولا توبة ولا خلاص. انطلاقاً منها، وبواسطتها، يكون خلاص العالم. ويكون الخلاص على مستوى العالم شاملاً كونيّاً، إذ لا خلاص فردي منعزل. الكنيسة تعمل على أن يكون الخلاص شاملاً؛ لهذا فهي تمتدّ حتى إلى الذين يرفضونها.

الكنيسة تضمن وحدة المسيح، ووحدة النظرة إليه. وحدها الكنيسة توحّد الرؤية، تدلّ على مسيح واحد لا غير. لولاها لكان كل مسيحي اكتشف مسيحَه بحسب قدراته. لولاها لأصبح في العالم مسحاء لا حصر لهم ولا عدّ. وحدها الكنيسة تقرأ الإنجيل وتفهمه وتفسّره وتقدّمه للناس. وليس لأحد سواها أن يقدّم لنا مفهومه. هي تقرّر، وهي تقدّم لنا صورة المسيح الحقيقية.

لنذهب أبعد لنقول : في الكنيسة فقط نعرف الله، وخارجها لا نعرف الله. فيها فقط نعرف الله موجوداً، وفيها نعرف حقيقته، وكيفية عبادته، ووسائل الوصول إليه، وتأدية المجد اللائق به، خارجها لا إله. ألم يقل الربّ : « ما من أحد يعرف الآب إلاّ بالابن، ومن يشاء الابن كشفَه له » (متى ١١ / ٢٧)، وقال أيضاً : « من رآني رأى الآب » (يو ١٤ / ٩)... يعني أن معرفة الآب لا تكون إلا بواسطة الابن. ومعرفة الابن لن تكون خارج الكنيسة وبدونها.

والذين تعمّدوا باسم المسيح، لا يحقّ لهم، بعد الإيمانِ بالمسيح، أن يبحثوا عن الله خارج المسيح، أو مِن وراء ظهرِ المسيح، وبالتالي خارج الكنيسة وبدونها. ونقول أيضاً : إنّه لا يحقّ لهم، بعد اليوم، الادّعاء بمعرفة الله معرفة عقلانيّة طبيعيّة فلسفيّة ببراهين وأدلّة وحجج دامغة... مثل هذا الإله الذي نتوصّل إليه بالعقل المجرّد لا علاقة لنا به ولا حياة. قلّما يهمّنا وجوده أو عدم وجوده. إله المسيح هو إله المسيحيين لا سواه.

إله المسيح هو أبوه الأب الأزلي، نتعرّفه في الكنيسة، وفي الكنيسة فقط. يعجز العقل البشري، في جبلته الكيانية، أن يستدلّ على الله، وأن يدرك المطلق. هذا العقل عاجزٌ في طبعِه عن إدراكِ مَن لا يُدرَك بطبعِه. عليه أن يسلّم أمره لجماعة بشريّة تتعامل في طبيعتها مع المطلق، جماعة مؤمنة تعمل بهدي الروح، ولا تعمل إلاّ بهديه. هذه الجماعة هي الكنيسة، الضامنة لحقيقة صورة الله. لولاها لغاب وجه الله عن الأرض. وعلى العقل المحدود، لا أن يسلّم أمره للكنيسة فحسب، بل أن يستسلم لها أيضاً. هذا هو الإيمان المستقيم.

* * *

ومع هذا،

لقد أصاب المسلمون كبد الحقيقة في قولهم بأنّ الكنيسة هي التي تشترع الأحكام، وتسنّ القوانين، وتحلّل وتحرّم، وتحدّد العقائد، وتعيّن الأيّام والأعياد، وتوزّع الخيرات والبركات، وتمنح النعم والغفران، وتقيم وتحطّ، وتعطي وتأخذ، وتنزل إلى الجحيم وتصعد إلى النعيم، وتهب السعادة وتتحكّم بمصائر البشر...

أجل هي الكنيسة التي تصنع ذلك كلّه. ولها الحقّ والسلطان من ربّها، الذي أراد أن يكون ذلك كذلك. وتعاليمه، في هذا الشأن، في معتقد المسيحيين وإيمانهم، واضحة صريحة. قال لبطرس زعيم الرسل : « صخرٌ أنتَ، وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » (متى ١٦ / ١٨). هذه الكنيسة، أحبّها المسيح « وضحّى بنفسه من أجلها، ليقدّسها، ويطهّرها..

ويزفّها إلى نفسه كنيسة سَنيّة لا شائبة فيهـا ولا تغضّن، ولا ما أشبه ذلك، بل مقدّسـة بـلا عيب » (١ ف ٥ / ٢٥ ـ ٣٠).

* * *

نشير في الختام إلى خطأ شائع في أبحاث المسلمين عن المسيحية. هذا الخطأ يكمـن في المقارنة بين الكنيسة والإسلام؛ أي بين الكنيسة، كجماعة إلهيّة روحيّة وبشريّة تتعامل مع التاريخ، وبين التشريع الإسلامي المنزل من « اللوح المحفوظ » . هذه المقارنـة لا تجـوز أصلاً؛ لأنّها مقارنة بين سلوك بشري و « إنزال إلهي » . بسبب هذه المقارنة غير الجـائزة، يأخذ المسلمون على المسيحيين اضطهادَهم لهم، بدافع من تعاليم الكنيسة؛ بينما المسلمون، كما يقولون، عاملوا المسيحيين بكل تسامح وتساهل، بدافع من تعاليم القرآن والإسلام...

لنفترض هذه المقارنة صحيحة في بعض مراحل ضيّقة من التـاريخ؛ لكنّهـا غيـر صحيحة عقائدياً وكتابياً على الإطلاق. فالقرآن، في قتل المشركين والكفّار، واضح صـريح. وواضح أيضاً موقفه من أهل الكتاب، وإجبارهم دفع « الجزية عن يد وهم صـاغرون »... والإنجيل، من جهته، أيضاً واضح وصريح في الدعوة إلى المحبّة والتعاون، وحتـى محبّـة الأعداء، وإلغاء شريعة السنّ بالسنّ والعين بالعين، وإقامة شريعة تقديم الخدّ الأيسر بعد الأيمن لمن يريد بك شرّاً.. هذا وإنّ المقارنة من الوجهة التاريخيّة أيضاً فيها نظر : فالمسلمون لـم يكونوا بأرحم من المسيحيين في تبادل الاضطهاد والإكراه والقتال، منذ الفتح الإسلامي حتـى مذابح السريان والأرمن ومسيحي لبنان ومصر والسودان و...

وعلى الشيخ حسن خالد أن يعيد النظر في حساباته التاريخيّة، إذ يقول « بأنّ المسلمين الذين كانوا يسكنون أوروبا الشرقية قد أبيدوا بفعل الاضطهاد المسيحي، وأكلتهم نيران الحقـد الأثيم » (٧٧٢)؛ فهو نفسه يشهد على صنيع المسلمين أيّام الفتح العربي؛ وهو نفسه يسـتطيع أن يقرأ، على ظنّنا، ما كتبه الواقدي في « فتوح الشام » ، والطبري في تاريخه، وغيرهمـا من المؤرخين المسلمين.

وهو نفسه أيضاً قدّم لنا، في الصفحة التالية من كتابه، أي صفحة ٧٧٣، قصّة جماعة من « الأنباط وقد أقيموا في الشمس وصُبَّ على رؤوسهم الزيت! بسبب تخلّفهم عن دفع « الجزية »..

وقد يكون السيد هاشم أكثر وضوحاً في تناقضه من سماحة المفتي: ففي فصل عنوانه: « الإسلام لم يُكره أحداً على اعتناقه » (ص ٦٠٢)، يبدأ به قائلاً : « لم يترك الحريري المزعوم فرية ولا تهمة، إلاّ وألصقها بالإسلام. وتهمة العنف في الإسلام، أو بالأحرى إكراه الناس على اعتناقه، من بين التهم التي لاكها أعداء الإسلام » (٦٠٢)... لكنّنا نرى السيّد هاشم، في السطر الأوّل، في الصفحة الأولى، من كتابه يقول بالحرف الواحد : « المعارك قد توقّفت بين الإسلام وأعدائه بفضل انتصار الإسلام العسكري الحاسم » (ص ٧). ويردّد في الصفحة نفسها : « حسم الإسلام الموقف لصالحه على الجبهة العسكرية » (ص ٧).

فـ« حسم الإسلام العسكري » لا يعني، في ظنّنا، تسامحاً وتساهلاً وليس هو أيضاً شريعةً بشريّةً، دعت إليها الحاجة والظروف، بل هو مسلك إلهي، دعت إليه آيات الكتاب. ثم إنّنا لا نظنّ أنّ في « الحسم » دَعَةً ولطفاً، بل نرى فيه « عنفاً وإكراهاً ». وكان العنف شديداً بقدر ما كان الوعد للمنتصرين كبيراً. ووعدهم بـ« جنّات » تجري من تحتها الأنهار » ، وبـ« سكنى القصور ومعانقة الحور » .. ذلك لأنّ « الجنّة تحت ظلال السيوف » .

ومع هذا، وفيما نحن نرفض المقارنة بين سلوك الكنيسة كجماعة بشريّة، وسلوك المسلمين تطبيقاً للشريعة الإلهية المنزلة، لا نريد أن نفاضل بين ما صنعه كلّ شعب بالآخر. فمسلك الاثنين، على قلب الله، قبيح؛ وأقبح منهما مَن يلصق بالله قبحه ويبرّره بآيات بيّنات.

ثالثاً ــ الله

لو كان الصراع على الله في الشرق كما هو في الغرب لَهان أمــر معالجتــه. إلاّ أنّ الصراع في الغرب هو صراع بين الله وبين غير الله، أيّ بين الإيمان والإلحاد؛ والصراع في الشرق هو صراع بين آلهة، ومؤمنين، وتعدد أديان وطوائف ومذاهب. إنّــه صــراع بــين اليهودية والمسيحية والإسلام والدرزيّة والنصيريّة.. كما هو صراع بين المذاهب والمعتقدات والممارسات المتنوّعة والمتلوّنة بتنوّع الناس وتلوّنهم.

ومميّزات الصراع بين الغرب والشرق هي أنّ صراع الغرب هــو صــراع فكــري عميق، غنيّ، حضاري؛ وصراع الشرق هو صراع ديني تعصّبي تقليــدي بــدائي ســخيف. صراع الغرب هو صراع من أجل الإنسان وكرامة الإنسان، وصراع الشرق هو صراع من أجل الله في سبيل الله والدفاع عن كرامته وتعاليته.

صراع الشرق هو صراع آلهة تتقاتل ليحلّ بعضها مكان بعض، ويُخضع أتباعُ القويّ منها أتباعَ الضعيف، ويذلُّهم بحسب مقولة الأكثرية والأقليّة، أو بحسب عقيدة الجهاد المقــدّس التي تقوم على الثأر والانتقام... إنّه صراع بين أن يكون هذا الإله أو لا يكون. إنّــه واجــب مفروض على الإنسان المؤمن، لكأنّه شريعة إلهيّة منزلة.

فمن الطبيعي إذاً، ونحن في هذا الشرق، أن نشهد صراع آلهة ومتديّنين. بــل نحــن نعمل على أن تتصارع آلهتنا، ونتصارع نحن من أجلهم، ونتحزّب، ونتباغض، ونحطّم بعضنا بعضاً حتى الإبادة.. نحن، في الحقيقة، في وضع هو من أعظم سخافات هذا الشرق الغــارق بين الآلهة والأديان.

وفي بعض الوعي الذي بقي لنا من هذه الصراعات نجيز لأنفسنا السؤال : مَن هو الله الذي نعبد ؟ ومن هو الله الذي لا نعبد ؟ وما كنا لنشقى بهذا السؤال لو لم تكن مسألة الله مسألةً شخصيّة، يطرحها كلّ منّا على نفسه، ويواجهها وحده، ويهتزّ لها كيانه، ويقلق بها ضميره، ويضطرب لها عقله، ويتعذّب بغموضها وسرّيتها.. وقد تتعاظم مسألة الله عند كلّ واحد منّا بالقدر الذي نجد فيه أنفسنا ملزمين في دخول دوّامة الصراع الحامي مع آخرين، بسبب الله إيّاه.

* * *

يوجّهنا في نظرتنا إلى الله كلامُ السيد شريف محمد هاشم، مستنداً إلى الأستاذ عبد الكريم الخطيب، وراداً على الدكتور الأب ميشال حايك الذي كان هو الضحيّة، هذه المرّة، بدل الحريري. ومع هذا لم يسلم الحريري في فصل عنوانه « الله في المسيحية والله في الإسلام » من تهمةِ متابعةِ « دبيبه على أرض الدسّ والضلال » (ص ٦٤٠). ولكن غضب السيّد هاشم تحوّل على الدكتور ميشال حايك القائل : « الإسلام يقوم على إله لم يُعلِنْ سرَّ ذاته.. فيما المسيحية تُعلنُ بأنّ الله محبّة، وأصبح قريباً للإنسان في المسيح » [١] .

يعلق السيّد هاشم على هذا الكلام ويقول : « يبدو التناقض على أشدّه، والتجديف على العقل فاضحاً » (٦٤٣). ويستعين بنصّ للأستاذ عبد الكريم الخطيب ليردّ فيه على الأب حايك: « مَن قال إنّ كنهَ ذات الله هو المحبّة ؟ إنّ ذلك تحكّم في ذات الله، وتسلّط قاهر من العقل عليها » [٢] .

انطلاقاً من هذه النظرة المتباينة أساساً، نستطيع أن نقف على جملة نقاط يبدو فيها الخلاف واضحاً بين المسيحية والإسلام. ونتيجة هذا الخلاف وأثره على

(١) الأب ميشال حايك، المسيح في القرآن، ص ١٥، عن السيد هاشم، ص ٦٤٣.
(٢) عبد الكريم الخطيب، المسيح في القرآن، ص ١٤٢، عن السيد هاشم، ص ٦٤٣ ـ ٦٤٤.

السلوك والأخلاق لا يقلّان خطورة عن الخلاف في ذات الله وعلاقته بالإنسان. على هذا نستعرض بعض نقاط نراها ضروريّة جداً لوضع حدود فاصلة بين إله المسيحية وإله الإسلام؛ وبالتالي بين السلوك المسيحي والسلوك الإسلامي. نقول :

١ ــ إله الإسلام هو، كما يعرّف عنه القرآن، « الله الصمد » (١١٢ / ٢)، أيّ المغلق على نفسه، الذي لا يعتني إلاّ بذاته، يعيش في عزلته، ممتلئ من ذاته حتى الاستغناء عن سواه، لا يرغب في شيء، ولا تحركه عاطفة حبّ نحو آخر. إنّه ممتنع على الآخرين، لا يدركه أحد، ولا تمسّ قلبه صلاة أو تضرّع، ولا تهزّه استغاثة مسكين[٣] ، ولا تنفع لديه شفاعة قديس[٤] . نتّهمه بأنّه خلق العالم، ذاك لأنّ العالم موجود، ولاقتناعنا بأنّ العالم لا يمكن أن يكون بذاته.

هذا « الله الصمد » لا يستطيع أن « يتخلّى عن ذاته » ليدخل في حياة الإنسان الذي يهمّه أن يجعل من مسألة الله مسألة شخصية حميمة تمسّ عمق كيانه ومصيره. في « صمديته » هذه يبدو « متعالياً » جداً، قابعاً وراء السماء السابعة، في عزلة إلهيّة مطبقة، لا يحتاج إلى محبّة أحد، ولا هو يشعر بمحبّة أحد. إنّه يتفرّج على العالم، من فوق عرشه، فيما العالم يتقاتل بسببه ومن أجله. إنّه إله صعب، صلب، جامد، لا يتحرّك، ولا يحنّ؛ لا تهزّه صرخة ضعيف، ولا يلبّي حاجة محتاج. خلق الألم وابتعد عنه، أوجد المرض والعذاب دون أن يناله منهما أذى، نصب لنا الصليب ولم يعلّق عليه. ذلّلنا بالموت وراح يستهزئ بالمائتين.

* * *

٢ ــ إنه إله المعجزات والخوارق، يوقف الأرض عن حركتها ساعة يريد، يدمّر نظام الكون، يتعدّى على قوانين العالم، يتصرّف بملكه كيفما شاء، يقيم

---

(٣) لئن وجدنا في القرآن والإسلام ابتهالات وتضرّعات وصلوات... فهي موجودة بسبب حاجة في طبيعة الإنسان إلى الله، وليس بسبب حنان أو حبّ موجود في طبيعة الله. فالله « صمد » ...

(٤) شفاعة النبيّ تقول بها السنّة، تقليداً للمسيحية؛ وليس في القرآن من شفاعة أبداً. يقول : « ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع » (٣٢ / ٤).

الموتى، يشفي المرضى، يصنع الأعجوبة بأهون سبيل، يتحدّى العلم ليثبت نفسه بطرق غير علمية وغير نظامية، يعجّز الإنسان ليظهر مقدرته..

إنه إله المعجزة الباهرة يفعلها لإظهار قدرته، وتأكيداً لسعة علمه وقوّة بطشه. لا يعمل بنعومة ولطاقة وسرّيّة. لا يعمل بواسطة نعمة تنساب في نظام الكون كأنّها من نظامه، ولا يترك الإنسان يكتشف أسرار الكائنات بما له من قدرة، وبما عنده من حرّيّة. إنّه « إله سيف » لا « إله نعمة » .

هذا الإله يجعل الإنسان حقيراً ليعلو هو، ويجعله ضعيفاً ليظهر قوّته. إنّه إله يسدّ الحاجات، يلبّي المطالب، يحلّ المشاكل، يفكّك العِقد. يُخضع الإنسان. يُبعده عن ذاته، يغرّبه عن نفسه، يخليه من صفاته الجميلة ليضيفها إليه هو.

* * *

٣ ــ إنه إله الجهاد المقدس يتطلّب منّا العجائب، يريدنا أن نجاهد لأجله، أن نتقاتل في سبيله، وندافع عن كرامته، ولو على حساب كرامة الإنسان. إنّه يطلب منّا بغضَ العالم لأجله، ويطلب منّا أن نخاف عليه من أن لا يكون « أكبر » ، إنه يحتاج إلينا لكي نرفعه، و « نكبّره » ، ونحبّه ولو على كره الآخرين.

إنّه إله يزرع الخصام بين الناس ليعلو هو. إله حرب. قليل الصبر، يضرب بسرعة، يقف بالمرصاد لكل عمل، يتعقّب الإنسان ويراقبه، يلاحقه ثم يقضي عليه. إنّه ناطور يتجسّس علينا، همّه المطالبة بحقّه إنْ قصّرنا عن تأدية حقّه.

* * *

٤ ــ إنه إله يختار شعباً دون شعب، ويميّز أمّة على أمّة، ويهتمّ بأناس على حساب آخرين، هو إله احتكار. ليست له صورة كاملة شاملة. هذا الإله يبغضُ أكثر ممّا يُحب. إنّه ضيّق الآفاق. وهو وقف على أناس معيّنين. إنّه على مستوى الذين حَكَروه.

هؤلاء الذين حصروا الله في تاريخهم، جعلوه موجوداً لأجلهم، وحاصروه

ليهتمّ بهم وحدهم، ويدافع عنهم، ويحارب لأجلهم. وفي ظنّهم أنّهم يمثّلــون البشــرية كلّهــا. وحدهم يستحقّون الله، ويستحقّون الحقيقة والسعادة والمعرفة.

* * *

٥ ــ الله المشترع هو أيضاً إله ظالم، سنّ شرائع منذ الأزل، ونزّلها علــى الإنســان فقضى بها على حرّيته. وضع قوانين أزليّة جمّدت التاريخ عن كل تطوّر ورقيّ. إنّه إلــه لا يهمّه تطوّر الإنسان، ولا يهمّه أن يكشف الإنسان عمّا في الكون من طرائــف. إلــه أرســل شريعة وانسحب. إنّه إله قوانين صارمة، لا يستطيع الإنسان أن يعود إليه ليتخلّص منها.

محكوم على الإنسان مؤبّداً أن يتمّم موجبات ما كلّفه الله به. ومحكوم عليه بألاّ يتطوّر، وبألاّ يسير إلى الأمام. انّه يدور في فراغ... شريعة أزلية أبدية لا تتطوّر بتطــوّر الإنســان، كيف يمكن للإنسان أن يتقبّلها! لو كانت شريعة بشريّة لجاء زمن ومجتمع وألغياها. إلاّ أنّهــا شريعة لا تخضع لا للزمن ولا للمجتمع، فكيف يحفظ الإنسان معها كيانه وكرامته وحرّيته!

* * *

٦ ــ إله النبيّين والرسل هو إله على صورتهم وصورةِ عصرهم وعلــى مســتواهم. نطقوا باسم الله. فحصروا الله ضمن جدرانهم. لقد صنعوا لله تاريخاً من أحداث تاريخهم. فكان الله كما هم وحيث هم.

ثم راح النبيّون والرسل يقدّمون للإنسان وسائل لخلاصه. وأيّ إنسان يقبل خلاصه من غير الله مباشرة ؟ أو أن يكون مثالُه على مستواه ؟ وفي كل حال، إله أولئك الرجال هو إلــه زمانهم ونوعية حضارتهم. وإن كانوا يقدّمون لنا شيئاً فهم يقدّمون ظلاً عن الحقيقة، ويقدّمون لنا اختبارهم، لكنّهم لا يلزموننا بما يختبرون.

* * *

٧ ــ إله الإسلام هو « الله ــ في ــ ذاته » ، واجب الوجود بذاته. إنّه تحديد عبقري، في قمّة ما يمكن أن نحدّد به الله، إذ يحفظ له تعاليته وكيانه الخاصّ

المميّز. يتّفق مع ما توصّلت إليه الفلسفة الأرسطيّة والأفلاطونيّة الحديثة. وقد دهش به فلاسفة الإسلام الأقدمين، وبنوا عليه صروح نظريّاتهم الماورائيّة. وكذلك أيضاً اتُّخذت بـــه الفلســـفة المدرسية في المسيحية عبر أجيالها ومفكّريها.

غير أنّ هذا التحديد، بالنسبة إلى الإنسان، هو تحديد مأسوي، إذ يجعل الله متهرّباً من واقع الإنسان الأليم، ومعتزلاً عنه. بل هو، في الواقع، تحديد ساخر بمصـــير الإنســـان، إذ لا نرى أيّ رباط بين هذا « الله ــ في ــ ذاته » وبين الإنسان الساعي، بوعيه وبلا وعيه، نحو تحقيق ما في عمق أعماقه من شوق نحو المطلق.

ثمّ إنّه تحديد يجعل الله في بنية أنتولوجيّة تضمّ الله والعالم معاً، إذ إنّنا نـــرى، خلفـــه، فكرة إبعاد الله عن العالم، وبالتالي لا يزال الله يعرّف بالنسبة إلى العالم. لهذا فهو ليس تحديداً « لله ــ في ــ ذاته » بالإطلاق، بقدر ما هو تحديد نسبي، أي يحفظ نسبة ما بين الله والعالم.

لذلك فنحن أمام إله نعجز عن معرفته في ذاته، لأن معرفتنا له لا تزال مرتهنة بالعالم.

* * *

٨ ــ لإله الإسلام تسعة وتسعون من الأسماء الحسنى، تدلّ على كمالاتـــه المطلقـــة وصفاته الذاتيّة و « العلائقيّة » معاً. عندما يدركها الإنسان كلّها يمسي الله في حوزته وقبضة يده. وبهذا لن تختلف معرفة الإنسان لله عمّا هي عليه هنا إلاّ في معرفة الاسم المائة هناك.

* * *

٩ ــ إله الإسلام هو « إله الكتاب المنزل » ، أي هو إله جُعل فـــي قبضـــة العقـــل المحدود، وفي مستوى الإنسان المخلوق. هذا الإله نرى تحديده، وكمالاته، ووصفه، وعلاقاته، ومهمّاته، وصوره، وأبعاده كلّها في « الكتاب المنزل » . إنّه إله احتوى الكتابُ غناه. فهو إله مأسور بين الكلمات والأساليب البشريّة. إله جامد محجّر في تعابير اللغة المعجزة. لقد قضـــي على حريّته، ولم يعد إله حياة...

* * *

هــذه بعض الاعتبارات حــول هويّة إله الإسلام، المتّصف بالبعــد و « التعــالية » و « الصمدية ».. إلى درجة أن توصّل الفلاسفة المسلمون الأقدمون إلى إنكار كل علاقة بينه وبين الإنسان؛ فأنكروا، بالتالي، « معرفة الله للجزئيّات » ، وذلك حفاظاً على تعاليته المطلقة؛ كما أنكروا أيضاً « عناية الله » بمخلوقاته، لئلا يصيبه، بسببها، شائنةٌ ما.

وكانت النتيجة إنّ كل ما يصفُ به الإسلامُ اللهَ من صفاتِ الرحمة والحنان والغفــران والمحبة والقرب والرضى يعود إلى سببين : الأوّل إنّ هذه الصفات لا تتعدّى كونهــا ألفاظــاً استعملها الإسلام والقرآن أسوة بالتوراة والإنجيل؛ والثاني يعود إلى حاجة الإنســان إلـــى أن يكون الله كذلك أكثر مما هي عليه طبيعة الله في ذاته.

* * *

بالإضافة إلى ذلك نسأل : أيهمّ الإنسان كثيراً أن يؤمن بــ« الله الصمد » ؟ وبــ« الله ــ في ــ ذاته » ؟ أتعنيه كثيراً معرفة طبيعة الله ؟ وعدد أسمائه الحسنى ؟ وكمالاته المطلقة ؟ وصفاته الأزليّة أو المحدثة ؟.. مثل هذا « الإله » لا يدخل في حقل تفكيرنا البشري ولا فـــي مجالات حياتنا.. إنّه ترف فكري ليس إلاّ.

ثمّ نسأل أيضاً : هل أعطى هذا « الإله » الإنسان مقدرة في عقله المحدود ليتخطّـــى بها حدوده ؟ أم أنّ الله اللامحدود تنازل عن لا محدوديته وجعل نفسه فـــي مســـتوى العقــل المحدود ليعرّف المحدودين عن ذاته ؟

إذا افترضنا أنّ العقل تخطّى حدوده، فعرف الله اللامحدود وأدركه، فأين هي الحـــدود الجديدة بين الله والعقل إذاً ؟ ومتى يصبح العقل بتحدّيه هذا إلهاً مكان الله ؟ ثمّ هذا التحدّي أهو من العقل أم من الله ؟

وإذا افترضنا أنّ الله نزل إلى مستوى العقل، فهل أظهر الله لهذا العقل كل مـــا هـــو، وكل ما له ؟ أم استبقى اللهُ لنفسه أسراراً ؟

في الحالة الأولى نشكر الله على ما وهبنا من كمالاته ومقدرات، ولكنّ الأرض الفانية والزمن العابر لا يستطيعان أن يجعلا كمالات المطلق.

وفي الحالة الثانية نسأل أيضاً : هل أعطانا الله كل شيء ؟ أم حرمنا من الكثير ؟

إن لم يعطنا كل شيء كفانا منه حرماناً.

وإن أعطانا كل شيء كفانا بهذا عن نفسه. فليستريح.

* * *

أما مقولة « إله الكتاب المنزّل » فهي مقولة عبقريّة في إبعاد الله عن خليفته. والقول « بالكتاب المنزل » تعويض عن إله مُغيّب مبعَد، يصيب الإنسان في صميمه، ويطعن في حرّيته وكرامته : الكتاب هو هو، لا يتغيّر فيه حرف، يستمرّ بتعاليمه وشرائعه إلى الأبد. إنّه كتاب معصوم بعصمة الله نفسه، كتاب فيه الحقّ كله، والعلم كله، واليقين كله.. بيد أنّ الإنسان يتطوّر، والزمن يتغيّر، والمجتمع يتبدّل، وكل شيء في الكون مزعزع كأنّه على أكتاف الجنّ وأكفّ العفاريت.. فهل يُعقل، والحالة هذه، أن يتخلّف الله، في « الكتاب المنزل » ، عن الإنسان السابح بحريّته في أرجاء الكون!! وحريّته هي أيضاً من الله!

معصومو « الكتاب المنزل » يتميّزون بـ« اطمئنانهم » إلى ما في كتابهم من نبوّة، هي، في رأيهم، خاتمة النبوّات وأكملها، ورسالة هي كمال الرسالات السماوية، وشريعة هي تمام الشرائع كلّها، وتعليم فيه « الحق اليقين » ، وعقيدة لا يشوبها نقص، ويقين ليس فيه شكّ، وحقيقة منزلة لا يداخلها ريبٍ، وعصمة في كل مستويات المعرفة والوجود..

معصومو « الكتاب المنزل » يستعملون « كلاماً من فوق » ، يسقّطون باستمرار آيات من السماء، يعرفون مشيئة الله، يتكلّمون باسمه، يجاهدون من أجله، يحدّدون هويّته كما يشاؤون، يبلّغون للناس ما يريدون.. مع هؤلاء كل حوار باطل من أساسه. بل هم المنتصرون مسبقاً لا محالة : الحقيقة كلّها بقبضة أيديهم،

الأدلة عليها دامغة، الموقف منها على اطمئنان تام، البراهين عليها في ملفّات جاهزة. المعرفة حسابية علميّة. الله كلّه في العبّ والجيب. الشريعة إرادة إلهية أزلية أبدية لا تتزحزح. نظم الكون والحياة محدّدة. حركات العالم والكائنات معيّنة. العلوم كلّها تستنبشها من آيات الكتاب المنزل المعصوم. وهذا أمر طبيعي، لأنّ الكتاب هو « كلام الله » ، أي هو « الله المتجسّد » بين البشر.

هذا هو موقف من جعل المجتمع البشري رهناً مما سنّه الكتاب المنزل. ولكن، المجتمع البشري يتطوّر ويتغيّر. فهل الكتاب هو كذلك ؟

في اعتقادنا لا بدّ من إحدى المعادلتين : إمّا أن يتطوّر الكتاب ويتغيّر، وإمّا أن يتخلّف المجتمع ويتقيّد بما في الكتاب... ولكن، إذا كان الكتاب إصلاحاً لمجتمع ما، وفي زمن محدّد، فهل يصحّ لكل مجتمع، ولكل زمن ؟

إذا كان الجواب بالإيجاب، أليس في ذلك تبرير مخيف لتأخّر الكتاب عن الالتحاق بتطوّر المجتمع ؟ يبدو ذلك : فحالة الإنسان في الجنّة، مثلاً، كما يصوّرها الكتاب، لا تختلف عن حالته وهو في هذه الدنيا. يعني : في الجنّة خيرات وشهوات هي صورة طبق الأصل عمّا في الدنيا من خيرات وشهوات.. وصورة الله في سمائه هي كصورة الشيخ في عشيرته. والدين دولة. والعقيدة شريعة. والحياة الروحيّة وفق شهوات الجسد. والتقرّب من الله يكون بالصلاة والتقشّف كما يكون بالملذّات وبنكاح النساء.. كل الحالات، في الدنيا وفي الجنّة، في مستوى واحد.

ونسأل : كيف يكون الله في كتاب تتكافأ فيه نظرتان متناقضتان ؟ أي كيف يكون الله « متعالياً » هنا، ويحيط به الإنسانُ هناك ؟ كيف تكون الدنيا هنا، كما هي الجنّة هناك ؟ بمعنى آخر : كيف تكون الحياة الروحيّة هناك ؟ هل هي على صورة الحياة الجسدية هنا ؟ أيكون الإنسان هو الذي ارتفع، أم يكون الله هو الذي وقع ؟

وأخيراً، الأنبياء ماتوا، وموتهم كان لنا رحمة من الله. أما « الكتاب المنــزل » فــلا يموت. إنّه إلى مدى الدهر باق. الأنبياء تعذّبوا، وقُتلوا، وأهينوا. أمّا « الكتاب المنزل » فــلا يتعذّب، ولا يُقتل، ولا يموت. ذهابُ الأنبياء كان ضرورياً لمجيء غيرهم، قد تناسِبُ تعاليمُهم الإنسانَ في رقيّه وتطوّره. أمّا بقاء « الكتاب المنزل » في الأرض، أمام عيوننـــا، فيحكمنـــا حكماً مؤبّداً... فهل يَترك الإنسانُ زمام أمره لكتابٍ لا يُصلب ولا يموت ؟

ينتج أنّنا، مع « كتاب إلهيّ منزل معصوم » ، نحن في خطر لا يوازيه أيّ خطر آخر على حرّيّة الإنسان وخلاصه. « مقولة الكتاب المنزل » هي مقولة شريعة ظلم أبدي ألحقهـــا الله نفسه بالإنسان. وليس على الإنسان من شرّ أكبر.

* * *

أما صورة الله في المسيحية فتتمحور حول نقطتين أساسيتين : الأولى هي صورة إله دخل التاريخ فأنشأ مع الإنسان علاقة محبة وكيان؛ والثانية صورة إله « تخلّى عـــن ذاتـــه » حتى الموت ليخلّص المائتين.

إله المسيحيين هو إله له بالتاريخ صلة، هو صانع التاريخ كله. إله قريب، هنا، يتفاعل مع أحداث التاريخ. إنّه « الله ـــ معنا » ، و « الله ـــ من أجلنا » . يدخل في متاعب الإنسان ومصاعبه، ينفعل بشرٍّ يؤذيه، يُسَرُّ بخيرٍ يؤدَّى له. يُحِبّ آخَرين ولو هم دونه مستوىً.

إله المسيحيين هو « إله ـــ علاقة » ، أي : نستطيع أن ندعوه، ونصلّي له، ونقدّم له القرابين، ونسجد له، ونطرب أمامه بأنغام الموسيقى، وأن نرقص له بزهو وفرح. لهذا الإلـــه « عيد » ، واحتفـــال، أي له معنا ذكريات وتاريخ وصلات حميمة ... انّ « الله ـــ فـــي ـــ ذاته » ، لا نستطيع أن نحتفل معه بشيء يجعلنا معه سعداء.

إنّ مقولة « العلاقة » ليست من الأعراض الدخيلة على الله، كما هي ليست أيضاً من الأعراض الدخيلة على الإنسان : فالإنسان يكون إنساناً مع آخرين، في

مجتمعٍ، بصلته الشخصيّة الحميمة مع مَن يحبّ أو مع مَن يكره. إنّه ذاتٌ إنسانيّة فرديّة خاصّة ومميّزة، ولكن ضمن طبيعة بشريّة تضمّ الملايين. وله من الملايين اختبارها وغناها وأبعادها. إنّه إنسان ـــ شركة، إنسان اجتماعي ذو علاقة..

هكذا هي « العلاقة » في الله، هي من جوهره، بل هي كماله. لله مع الآخرين شركة وانفتاح. إنّه إله كلمة، وروح. يقيم حواراً، ويقطع عهداً، ويعلن عن نفسه بنفسه، يَظهر، يتجلّى، ويعطي ما له؛ إنه إله محبّة وخير. والخير ذو علاقة بطبعه. وعلى هذه العلاقة يقوم جوهر الله. وهي تعني : محبّة. أي محبّة الله في ذاته، ولذاته. والقول بأنّ « الله محبّة » يعني أيضاً أنّ « المحبّة هي الله » ، والمحبة هي في الله.

وإذا كانت المحبّة في جوهر الله فمعناها أنّ الله هو « أب » يحبّ فيخلق. يحبّ فيخلّص. ويريد الخير والوجود والسعادة للآخرين. هذه المحبة لا تدور على محور الفردانيّة، بل هي خروج من ذاته الذاتية إلى ذاتٍ أخرى هي بمستواه. و « الابن » وحدَه يستحقّ أن يكون بهذا المستوى. وليس من الضروري، في عالم الكمال، أن يكون هناك محبّةٌ بين طرفين، كما هو في عالم البشر، ذاك لأنّ المحبّة في ذات « الآب » كاملة لا تحتاج، لكي تكون خلاّقة، إلى طرف آخر.

وشدّة المحبّة والعلاقة بين الأب والابن جعلت الإنسان يطمئنّ إلى الله، إذ يعتبر الإنسان أن الله، بالنسبة إليه، لا يكون على غير ما هو عليه مع ذاته. فإذا كان مع ذاته محبّة، فلن يكون مع الإنسان على غير المحبة. والمحبّة هذه ليست عرضيّة. إنّها، أيضاً، من جوهره. لقد أحبّ الله فخلق. فهل من صعوبة، بعد، أن يتنازل الله، ويتخلّى عن ذاته، ويخرج عن نفسه، وينفتح على غيره ويلحق بمن أحبّ ؟

وهل يستصعب العقل، بعد هذه المحبّة الإلهيّة، أن يعترف بإمكانيّة التزام الله لجميع قضايا الإنسان، ولجميع متاعبه، من آلام، وعذابات، وصلب، وموت ؟ أو أيضاً بأن يبقى الله مع من أحبّ ؟

إذا كان الموت، بالنسبة إلى الإنسان، تعبيراً عن علاقته بهذا الكون، فيُخلـي مكانـه لغيره، يكون معنى ذلك أنّ الموت هو رحمة في كيان الإنسان المرتبط بهذا الكون. ولـو لـم يكن الموت لكان الشرّ أعظم. فهل من صعوبة إذاً، إذا كان الموت كذلك، في أن يمرّ الله نفسه بهذا الترابط بينه وبين الإنسان، أي بهذه العلاقة الحميمة التي هي الموت ؟

لكأنّ الموت أصبح تلك العلاقة الفريدة المميزة التي تربط إنسـان الـدهور بعضـه ببعض. وبالموت إيّاه تتأكّد لنا العلاقة بيننا وبين الله.

ثمّ إذا كان الله علاقةً في جوهره فإلى مَن ينحني ؟ ومَن يحبّ ؟ ومع من يربط علاقة، ويقيم عهداً ؟ أإلى العالم الخارجي فيكون محتاجاً إليه ؟ وهل يبقى الله إلهاً بهذه الحاجة إلـى سواه ؟

إنّنا، برفضنا تحديد الله بكونه هو « الكائن ــ في ــ ذاته » ، رفضـنا خلفيـة هـذا التحديد الذي يفترض نسبةً ما بين الله والعالم، فهل نعود بتحديدنا اللهَ « علاقة » لنقع في مثل ما رفضنا، فنقول بأنّ الله يحتاج إلى آخرين لكي يحبّهم ؟

نقول : إذا كانت العلاقة من جوهر الله، من جهة، وإذا كان الله لا يحتاج إلى العـالم ليتحقّق وجوده، من جهة ثانية، ذلك أنّ الله، كما هو على الصعيد الانتولوجي، كائن ــ واجب ــ الوجود ــ بذاته، فهو أيضاً، على الصعيد العلائقي، محبّة ــ واجبة ــ الوجود ــ بـذاتها. ويعني أيضاً أنّ الله هو سرّ محبّة ــ متداخلة ــ في ــ جوهره، أي علاقة محبّة بينـه وبـين ذاته، أي علاقة محبّة في طبيعته. ذلك يعني أخيراً : الله محبّة بين ذاته الذاتيّة وذاته العلائقيّة. المحبة هي بنية المجتمع الإلهي.

بهذا المعنى يكون الله خروجاً من ذاته إلى ذاته. وبهذا أيضاً لا يكـون الله « أبـاً » للعالم لئلا يحتاج في جوهره إلى العالم. بل هو « أب » لابن من جوهره، يتبـادلان علاقـة أزلية كاملة.

وهل في غير ذلك نطمئنّ إلى الله الذي نعبد ؟

* * *

أمّا الصورة الثانية لإله المسيحيين فهي صورة « الإله المصلوب »، الله الذي « تخلّى عن ذاته » ، ومات على الصليب موت عبد. والأناجيل كلّها ليست إلاّ رواية لهذا الإله المصلوب مع مقدّمات مفصّلة.

الصليب في المسيحيّة يحدّد عقيدتها، يقرّر مراتبها، يسنّ نظامها، يوجّه مسيرتها، يثبّت سياستها تماماً كما « أنّ آلام الشعوب تُحدِّدُ نظامَ السياسة فيها » ، على ما يقول نيتشه. الصليب موجود، والمؤمن به يجد للألم معنى، والملحد لا يجد لألمه مخرجاً ولا معنى. صليب المسيح فتح الباب واسعاً أمام المؤمن والملحد معاً. ولكليهما ما يبرّر موقفهما : الملحد لا يقدر أن يستوعبَ موت الله، وهو القائل بـ« موت الله » . والمؤمن لا يقدر أن يستوعب « موت الله » وهو القائل بصلبه وموته. ولاستيعاب الموقفين نعود إلى البداية :

الكتاب المقدّس نفسه فتحَ الباب واسعاً على الإلحاد. إنه أوّل من ميّز بين الله والعالم. وفي هذا التمييز أنشأ « العلمنة » في مفهومها الأساسي. وليست هذه « العلمنة » سوى البذرة الأولى « للإلحاد » . وليس الإلحاد سوى أوّل « صليب » حمله اللهُ في خلقهِ العالم، وليس هذا « الصليب » إلاّ أوّل عملية في « تخلّي الله عن ذاته » . وكان هذا « التخلّي » في إعطاء الله الإنسان أسمى ما يتّصف به كيان الله، أيّ « الحرّيّة » .

فبإعطاء الله الإنسانَ حرّيتَه « تخلّى الله عن ذاته » ، أي أوجد بإزائه كائناً يستطيع أن يقول له : كلاّ. وبكلام مسيحي نقول : لقد حمل الله صليبه منذ خلق الإنسان. لقد خلق الله، بإزائه، حرّيّةً تَنالُ من حرّيته. خلق ذاتاً بمواجهة ذاته. خلق إنساناً يقف بوجه الله حرّاً : رافضاً وقابلاً على السواء. أيّ أوجد الله « العلمنّة » ، و « الإلحاد » . فكان له ذلك أوّل « صليب » حمله منذ البدء. انّها أوّلُ عمليّةِ « تخلّي الله عن ذاته » . وفي هذا أوجد « الموتَ لنفسه » .

وما « تجسّد » المسيح أيضاً إلاّ إعلانٌ آخر لهذا « التخلّي » ، أو قل : إعلانٌ مسبَق لهذا « الصليب » . و « الصليب » ، بهذا المعنى، ليس هو مصير المسيح لأجل

مخالفته ناموسَ اليهود، كما ليس هو أمراً محتّماً عليه، بل هو « هدف » سعى إليه بحرّيتـــه. الصليب ليس حدثاً مضافاً على الخلق والتجسّد والخلاص، بل هو المعنى المســيحيّ النهـــائيّ الأكمل لله.

بهذا « الصليب » كلّ شيء تدبّر وانتظم وتقرّر واكتمل. لكأنّ الله لم يخلق الإنسان ولم يتجسّد ولم يصر إنساناً حقيقياً إلاّ لأجل الصليب. بـــ« التخلّي » وبـــ« الصليب » انســـلخ الله عن ذاته ليصبح « الله ــ معنا » أو « الله ــ لأجلنا » . ولم يصبح كذلك لو لم يدخل في ظلمة الموت كلّها، ابتداء من الخلق والتجسّد، مروراً بالعذابات والآلام والصليب، حتى الموت والقبر والنزول إلى أقاصي الجحيم.

فهل قول الملحدين بـــ« موت الله » أدهى ؟ أم دخول الله نفسه في ظلمات الموت كلّها هو الأدهى ؟ ألا فليستفِد الملحدون. وقد يُسَرُّ اللهُ بهم، وهم يُعلنون موته، أكثر مـــن ســـروره بالمطمئنّين إليه، والرافضين موته. الملحدون الذين يُعانون من موتِ الله هم، للمسيحيّة، غنى. وهي تُسَرُّ بهم لأجل ما يُعانون ويبحثون ويقْلَقون ويتساءلون. والقلقون على الله هم أقرب مـــا يكون إلى قلبه. وهو لهم بانتظار الأب الحنون لابنه العقوق.

من هنا كان لنا نتيجة مسيحية عظيمة، وهي أنّه لا يمكننا أن نفهم ألوهيّة المســـيح إلاّ بالنسبة إلى موته على الصليب، وتخلّيه عن ذاته. ولهذا أنشد بولس مراراً نشيد التخلّي الإلهي بقوله : « وضع نفسه وأطاع حتى الموت، الموت على الصليب. لذلك رفعه الله .. كيما تجثو لاسم يسوع كلُّ ركبةٍ في السماء وفي الأرض وفي الجحيم، ويشهد كلُّ لسان أنّ يسوع المسيح هو الربّ تمجيداً لله الآب » (فيلبي ٢ / ٦ ــ ١١).

فـــ« موت الله » إذاً ليس ضعفاً في الله، بل هو علامة قدرة وحريّة ومحبّة وخـــلاص في أسمى صورة « الله ــ لأجلنا » . وفي كل حال، مَن منّا يستطيع أن يعرف حدود الله ؟!

إنّ المطلق في الله ليس جوهراً فحسب، أي « جوهر ــ قائم ــ بذاته » ، بل المطلــق أيضاً أن يكون في الله « علاقة » مع الكون، أن يكون الله « محبّة مجّانيّة » ، أي أن يكــون الله « شخصاً » . وليس الله « شخصاً » الاّ بالقدر الذي به « يتغرَّب » عن ذاته، يتخلّى عن ألوهيّته، يَصلب نفسه، يموت لأجل خلاص مَن خَلَق بحرّيته.

والكلمة الحقّ هي : إنّ المسيح، في تجسّده، وموته، هو « التفسير الــذاتي لله » . أو هو « ترجمة الله » ، و « انطلاقته نحو البشر » .

بعد هذا كلّه، وإذا كان ذلك حقاً، نسأل : هل يعنــي أنّ الله كــان عليــه أن يصــلب ويموت؟ هل مصير الله هو الموت ؟ أي هل الموت هو من طبيعة الله ؟

إذا كان الموت واجباً على الله يعني ذلك أنّه من طبيعته أن يموت. أي ليس في موتَه أيُّ عملِ محبّة. ويعني أيضاً إن موت الله « حدثاً تاريخياً » ، بل هو « أمر من ذات الله » .

ويكون معنى ذلك أنّ صليب المسيح « خدعة » ليس إلاّ. فهل يُعقل ذلك ؟ الحق يقال أنّ تحمّل الله الألمَ والصليبَ كان لأجل الآخرين، تماماً كما كان في خَلقه الإنسان متخلّياً عــن ذاته وعن حريّته في سبيل خلقِ إنسانٍ حرٍّ يقف بوجهه رافضاً أو قابلاً. وهل غيرُ الله يسعى إلى ذلك ؟ أو هل غيره مثله يتخلّى عن ذاته ليقيم له مع الآخرين علاقة محبّة مجانيّة حرّة ؟

هــذه المجانية في المحبة التي تجعل من « الله ــ في ــ ذاته » « إلهــاً ــ مــن ــ أجلنا » ، وحدَها تستطيع أن تفسّر قبول الله لهذا « الصليب » ليمحو، في الوقت ذاتــه، هــذا الصليب، بقيامته، ويتسامى عليه.

وهل للإنسان حاجة إلى غير هذا البُعد الإلهي في تغرّبه عن ذاته حتى آخــر حــدود التغرّب والتخلّي حتى نشعر بأنّ « موت الله على الصليب هو الصيغة النهائيّة لهذا العالم » !

رابعاً ــ الإنسان

استناداً إلى مفهومنا لله، وإلى نوعيّة علاقتنا به ــ وهما مختَلف فيهما جذريّاً فيما بين المسيحية والإسلام ــ نستطيع أن نجد الاختلاف الجذري إيّاه في مفهوم كلٍّ مــن المسـيحية والإسلام للإنسان ككائن بشريّ، في أبعاده الإنسانيّة كلّها، وفي كيفيّة علاقته بالله.

في تعليم الكنيسة « يجب أن يؤول كل شيء على هذه الأرض إلى الإنسان باعتبــاره مرجع كل شيء وذروته » (١) . وللتأكد من مستوى كرامة الإنسان في تعليم الكنيسة، يكفينا أن نعرف بأنّ الله خلق الإنسان، ومن أجل أن يفتديه ويخلّصه صار هو نفسه إنساناً. في مثل هذا التعليم، يصبح العلم الخاص بالإنسان (أي الأنتروبولوجيا) لا ينفصل عــن العلــم الخــاص بالمسيح (أي الكريستولوجيا). ويصبح أيضاً انتساب الإنسان إلى المسيح أكثر التصاقاً مــن انتسابه إلى آدم. ويصبح المسيح، بالتالي، لا آدم، هو النموذج للإنسان والمثال.

في تعليم الكنيسة أيضاً : بالمسيح، لا بغيره، ينفتح الإنسان على الله، ويقيم معه حواراً دائماً، أساسه المحبّة المتبادلة التي تجعل من الإنسان شريكاً لله في ملكه. وانفتاح الإنسان على الله يؤدّي حتماً إلى انفتاح الإنسان على أخيه الإنسان، إلى درجة أن يصبح هذا الانفتاح بعــداً أساسيّاً لطبيعة الإنسان المسيحي. هذا البعد هو ما يسمّى في المسـيحية المحبّــة، أي محبــة الإنسان لأخيه التي تعادل محبته لله، بل هي تسبق محبّة الله ...

ينتج من ذلك، إن الله الذي تجلّى وتجسّد من أجل الإنسان، يدفع بالإنسان نفسه إلى أن يتجلّى ويتجسّد من أجل أخيه الإنسان. ذلك يعني أنّ السلّم

---

(١) دستور راعوي حول الكنيسة في عالم اليوم، ١٢ / ١.

الخلاصي إلى الله هو الإنسان لا غيره، الإنسان الآخر هو السرّ الخلاصـــي الــذي يقــدِّم اللهَ ويعطيه للعالم.

كرامة الإنسان إذاً مستمدّة من مفهوم التجسّد الإلهي، الذي هو أساس تعاليم المســيحية وعقائدها. ارتباط الإنسان، بدل أن يكون مع الله، عاموديّاً، أصبح، بالتجسّد، ارتباطاً مــع الله المتجسّد، أي مع الإنسان المتألّه، أفقيّاً. فلنبحث، في المسيحية، عن الله، فيمــا بــين البشــر. بمحبّتهم المتبادلة تكون كرامة الإنسان في عمقها، ويكون الله نفسه.

الإنسان، في المفهوم المسيحي، في أيّ موقع إيمانيّ أو اجتماعيّ كان، يســتحقّ مــن أخيه الإنسان أن يتجلّى له على حقيقته، أي أن يعطيه الحقيقةَ مجّاناً، كاملةً، وبمحبّة، وكأنّهــا حقّ له. يستحق الإنسان، أي إنسان، أن نعمل من أجله، من أجل مساعدته، ومن أجل تحقيــق ذاته، أن نسعى معه لأن يجد معنا الحرية. يستحقّ أن نساويه بأنفسنا، أن نعامله كأنفســنا، أن نضحّي في سبيله، أن نكون له رسل خير وسلام، أن نوفّر له السعادة، أن نعمل مــن أجــل خلاصه المَعادي...

الإنسان، في المفهوم المسيحي، مهما حاولنا إدراكَ أعماقه، يبقى لنا سرّاً، إذ هو كيان بلا حدود، زخم بلا تقدير، انفتاح دائم، حريّة مطلقة، شخص يســتحقّ كــل محبّــة وخدمــة وتضحية... لأجل غناه العميق هذا، لا نستطيع أن نقف منه موقفاً نهائيّاً، قاطعاً؛ لا يمكننا أن نحكم عليه، أو أن ندينه، أو أن نعلّبه، ونوضّبه ونسوّقه كسلعة لها وزنها وحدّها وثمنها ومقدار منفعتها...

اعتماداً على هذه النظرة المسيحية إلى الإنسان تعلّم الكنيسة « إنّ الإنسان هو الــذي يجب أن يُخَلَّص، والجماعة البشريّة هي التي يجب أن تُجدّد » (٢) . وتعلّم

---

(٢) المرجع نفسه، ٣.

شريعة « الجهاد المقدس » في الإسلام خطرة جدّاً على كرامة الإنسان واحترام حريّته. يُقتل قتلاً من ارتدّ عن الإسلام، ومن أهان الإسلام، ومن سبّ النبيّ. ومن رفض القرآن، ومن شكّك بتعاليم الإسلام، ومن رفض موقعه المعيّن له من قِبَل الشريعة... وكل ذلك في سبيل الله، وفي سبيل الدين المستقيم.

أضف إلى ذلك نظرية « الدارَين » في الإسلام : دار السلم ودار الحرب. وما بينهما « هدنة موقّتة » . فإمّا تكون في سلام مع المسلمين، وإمّا تكون في حرب، إن خضعت للشريعة الإسلامية كنت في أمان الإسلام وذمّته، وإن لم تخضع كنت في حرب معه ضروس. إن كنت قويّاً فدارُ هدنة، وإن كنتَ ضعيفاً فقد آن الأوان لكي تخضع لشريعة الإسلام.

باختصار، إن كرامة الإنسان، في الإسلام، هي من موقعه الديني. وكرامة المسلم هي من إيمانه واستسلامه لأمور الإسلام. أمّا كرامة الإنسان، في المسيحية، فهي من كون الإنسان، أي إنسان، هبة إلهية وهيكلاً مقدّساً للروح، حصل عليهما بواسطة التجسّد الإلهي في الكون.

خامساً ــ مفهوم الدّين

الإسلام، في اعتقاد القرآن، هــو الدّين : « إنّ الدين عند الله الإسلام » (٣ / ١٩)، « ومَن يبتغِ غيرَ الإسلام دِيناً فلن يُقبلَ منه » (٣ / ٨٥)، بل « ومَن أحسن دِيناً ممّن أسلم ؟ » (٤ / ١٢٥). وفي نهاية الأمر، أعلن القرآن تمام دين الإسلام فقــال : « وأتممــتُ علــيكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً » (٥ / ٣).

و « الدين » في مفهوم المسلمين هو من تأسيس إلهي. ويشتمل أساساً على التوحيد... والإسلام، بحسب تفسير الفخر الرازي للآية (٣ / ١٩)، « هو الإيمان بالتوحيــد المطلــق. والقول بأنّ الدين عند الله الإسلام يقضي أن يكون الدين المقبول عند الله ليس إلاّ الإسلام. وفي قوله : « من يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » ، يعني : لو كان الإيمان غيــر الإســلام لوجب أن لا يكون الإيمان ديناً مقبولاً عند الله تعالى » .

في تفسير البيضاوي للآية (٣ / ١٩) « لا دين مرضي عند الله ســوى الإســلام. والإسلام هــو التوحيد والتدرّع بالشرع الــذي جاء به محمّد » . أمّا النسفي، في تفسيره للآية (٥ / ٣)، فيعتبر القول « ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، ردّاً علــى اليهــود والنصــارى. والدين، عنده، لغةً، هو الجزاء. ثمّ صار اسماً للملّة والشريعة. ومعنــاه : الانقيــاد للطاعــة والشريعة » .

وكذلك « النصرانيّة » ، في قول القرآن والمسلمين، هي أيضاً « دين » . وهي تماماً مثل اليهودية والإسلام والصابئة. قال : « إنّ الذين آمنوا (أي المسلمين) والذين هادوا (أي اليهود) والنصارى والصابئين... » (٢ / ٦٢، ٥ / ٦٩)، هؤلاء كلّهم إن عملــوا صــالحاً فازوا بالنعيم.

أمّا الغريب في الأمر ففي اعتبار القرآن « الوثنيّة » و « المجوسيّة » دينَين كاليهودية والنصرانيّة والإسلام والصابئة، فيجمع بين هذه الأديان كلّها، هنا في هذه الدنيا، وإن كان الله سيتولّى الفصل بينهما في الآخرة تبعاً لأعمال كلّ منها. جاء في سورة الحج : « إنّ الذين آمنوا (المسلمين) والذين هادوا (اليهود) والصّابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا (الوثنيين). إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة... » (٢٢ / ١٧).

يبدو، بحسب نظرة المسلمين، أنّ كلّ مَن له بالله صِلة ما، يكون له « دين » ، أي سبيل إلى الله وشريعة. ولكل دين نبيّه وكتابه وعقيدته وتعاليمه وشرائعه وعباداته ومناسكه وشعائره ونظرته إلى الكون والإنسان والتاريخ... بهذه المجموعة من القضايا، يُسمّي الإسلامُ كلَّ علاقة بالله « دِيناً » أو « نهجاً » أو « شريعة » ، إن سار الإنسان بموجبها حصل على ما يرجو.

بهذا المعنى، الدين، في مفهوم المسلمين، متعدّد. وكان الإسلام خاتمتهم جميعاً، بسبب كمال الوحي في القرآن، وبسبب أنّ محمّداً هو خاتم النبيّين، ولا نبيّ بعده... غير أنّ القول بأنّ ليس عند الله من دين إلاّ الإسلام هو قول لا يصحّ مع الاعتراف بسائر الأديان. فإمّا الإسلام وحدَه، وإمّا القبول بكافّة الأديان. والحال أنّنا نجد القولين المتناقضين موجودين في القرآن معاً : القول بتعدّد الأديان وحريّتها انطلاقاً من مبدأ « لا إكراه في الدين » (٢ / ٢٥٦)؛ والقول بأنّ « الدين عند الله الإسلام » (٣ / ١٩)، أو « ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » (٣ / ٨٥).

ومن البديهي ألاّ يقول المسلمون بأنّ في القرآن تناقضاً. فهم يفسّرون ذلك اعتماداً على « علم الناسخ والمنسوخ » ، أي إنّ آياتٍ نزلتْ فنَسختْ، أي بدّلتْ، آياتٍ، وجاءتْ بآياتٍ أخرى وأحكام أخرى تكون مكمّلة أو لاغية لحكمة إلهيّة..، وإمّا يفسّرون ذلك أيضاً اعتماداً على قولهم بأنّ أصحاب الأديان هم الذين حرّفوا وبدّلوا في الكتب، كاليهود، أو غالوا وأشركوا وكفروا،

كالنصارى... وكلّهم كافر. لذا يرفضهم الإسلام، هم وأديانهم كما وصلت إليه.

ولهذه الأسباب شُرّع الجهادُ في الإسلام واجباً مقدّسا لا مناصّ منه.

* * *

أمّا في المسيحية فالمسيح لم يؤسّس، في حياته الزمنية، ديناً اسمه « المسيحيّة » ؛ ولا رسلُهُ، من بعده، أنشأوا مثل هذا الدين، على غرار سائر أديان العالم السابقة واللاحقة، أمثال الهندوسيّة والبوذيّة والكنفوشيوسيّة واليهوديّة والإسلام والدرزيّة والعلويّة، وما أشبه... المسيح أسّس « كنيسةً » ، هي الشكل الذي فيه يحيا على الأرض، بعد قيامته من الموت وارتفاعه إلى السماء، كما رأينا.

بين « المسيحية » كدين، و « الكنيسة » كشكلٍ لحياة المسيح الروحانيّ الممجّد ، فرق في الجوهر والغاية. الدين، في مفهومه وتحديده، مجموعة شرائع، يتضمّنها كتابٌ منزل، تنظّم علاقة الإنسان بالله وسلوكه الأدبي والاجتماعي؛ فيما الكنيسة هي المكان الوحيد لمعرفة الله واستمراريّة حضوره في العالم. وهي تُحدَّد، في وضعها الراهن، بكونها جماعة البشر المتمتّعة بالخلاص بالمسيح (رسل ٢ / ٤٧)، كما رأينا أيضاً.

المسيح أسّس « كنيسةً » لا دِيناً، كنيسةً حيّةً لا دِيناً جامداً؛ كنيسةً تشترع للعالم، لا شريعةً تتحكّم بالعالم؛ كنيسةً تضع لها في العالم نهجاً، لا نهجاً أو دِيناً تتّبعه الكنيسة؛ كنيسةً هي تقرّر صحّةَ الكتاب الموحى، لا كتاباً منزلاً هو يقرّر وجودَ الكنيسة...

ثمّ أنّ الدين، في رأي المسيحيين، مهدّد دائماً بالزوال. وهو أمام أحدِ خطرين : إمّا تتخطّاه المدنيّات وتبقى شريعتُه مجمّدة في كتاب؛ وإمّا يبلغ الدينُ تمامه وكمالَه إذا ما حقّق هدفَه الأخير، الذي هو تحقيق الصلة بين الله والإنسان. هذه الصلة تحقّقت في المسيحية بـ« تجسّد » الله، وفي الإسلام بـ« كلام الله » و « تجسّده » في كتاب.

إنّ رغبة الإنسان في معرفة الله بواسطة العقل، وإرادة الله الشاملة في خلاص كل إنسان، وعلامات الله المتعددة والمتتالية في تاريخ الوحي... كل ذلك يجعلنا نقول : إنّه كان دائماً وسيكون أيضاً نوع من الصلة بين الله والإنسان، صلةٍ سمّيت في التاريخ « دِيناً » . هذا الدين تكوّنَ من عناصر اجتماعيّة وروحيّة وثقافية... وتمظهر أيضاً في هذه العناصر. وكان الإنسان يشعر، عبر التاريخ، بضرورة هذه الصلة وأهميّتها بينه وبين خالقه، عبّر عنها بالابتهالات والصلوات والصيام وأعمال البرّ...

ثمّ شعر الإنسان، وهو في حميم صلته. بالله، بأنّه كائن خاطئ ضعيف ناقص بإزاء الله القدوس والكلّي القدرة والكمال، فلهذا التجأ، في ممارسته الروحية، إلى ترويض نفسه بالأصوام والعذابات والتضحيات الكثيرة، وذلك إمعاناً في التكفير والتوبة... هذه التوبة، بتنوّع ممارساتها وأعمالها، من إماتات وتحمّل وآلام وتعذيب للنفس، قد تكوّن العنصر الرئيسي في جوهر العلاقة بين الله والإنسان... ولئلا تقف المسيحية عند المظاهر السلبية لهذه الأعمال كشفت عن بعدٍ روحيّ لها تمثّل بالقيامة والسعادة الأخيرة.

ومما يخشى منه، في مفهوم المسيحية، أن يصبح الدين، عندما تُنظّم فيه الأعمال والعبادات تنظيماً قانونيّاً، أن يصبح ذا سياسة اجتماعية وثقافية خاصة. فيقع إذّاك الالتباس التام بين ما هو إيمان وبين ما هو نظم اجتماعية تفرض نفسها، بقوّة هذا الإيمان، على الإنسان والمجتمع البشري. لقد كانت الكنيسة، عبر تاريخها، تتصارع دائماً مع هذا الالتباس. وهي الآن تحاول باستمرار الخلاص منه. بينما الإسلام، في جوهره، يخلط بين ما هو نظم اجتماعية وبين ما هو عبادات وممارسات دينية.

ويخشى أيضاً أن يصبح الدين، إذا ما تركّزت فيه النظم الاجتماعية والتشريعات القانونيّة والأعمال السلطويّة، نظاماً اجتماعيّاً خارجاً عن ما يمسّ شخصيّة الإنسان ووعيه لما هو عليه من محدودية بالنسبة إلى الله، وبعيداً كل البعد

عن غاية الدين الأساسيّة التي هي الحاجة إلى الخلاص. المسيحية تحاول باستمرار أن تعمّق الصلة بين الله والإنسان حتى تصبح صلة عميقة حميمة شخصية داخلية روحيّة إيمانيّة تكتمل بتحقيقها المعادي... أمّا الإسلام فيعمل لأن تبقى العلاقة الدينية أساس كل علاقة ونظام وتشريع لما هو عليه الإنسان في وضعه الراهن، في الزمان والمكان.

ويخشى ثالثاً أن يصبح الدين، إذا ما تنظّمت شؤونه كثيراً، وتعدّدت فيه الحركات الدينية، من رقص وولائم ومسح وضوء وذبائح..، وإذا ما أصبح الله خاضعاً لمثل هذه الحركات، فيرى الإنسان نفسه مع الله واحداً، ويشعر أن باستطاعته أن يستخدم الله ساعة يشاء، وأن يدلّ عليه بإصبعه، وأن يستعمله لحلول مشاكله... قد يصبح الدين، بهذه المعطيات قريباً جدّاً من الشعوذة، التي، على ما يبدو، لا يخلو منها دين، لأنّها بُعدٌ أساسيّ في الشخصيّة الإنسانيّة. تحاول المسيحية أن تعتبر الدين في جوهره انسحاقاً تامّاً كلّياً أمام الله. فيما يبقى المسلم يُنظّم كيفية علاقته بالله كأنّه شخص مستقلّ يعمل من ذاته.

ويخشى أخيراً من كثرة التديّن أن يعتبر الإنسانُ الله قريباً منه إلى حدّ إقامة صلات حميمة معه، تُنسَف معها كلُّ الحدود، فيجد نفسه ضروريّاً بالنسبة إلى الله كضرورة الله بالنسبة إلى الإنسان؛ وذلك بسبب أنّهما، معاً، يكوّنان طرفَي الصلة الدينية... بهذه العلامة يشعر الإنسان وكأنّه كائن يلامس المطلق، أو أنّه لا يعود يرى في تديّنه سوى منفعته وأنانيته على حساب الله الذي صيّره هذا التديّن وراء السماء السابعة. لهذا ترى المسيحية علاقتها بالله، لا من خلال كيان الله الأنتولوجي، بل من خلال شخصية يسوع المسيح المتجسّد في هذا الكون.

بهذه العلاقة المميّزة والدقيقة جدّاً بين الله المتجسّد والإنسان الضعيف الخاطئ تزول عن المسيحية كل صفة من صفات الدين، في المفهوم التاريخي والتقليدي للفظة، التي من شأنها أن تصنع بين الله والإنسان وسائل ضابطة أو حاجبة، أو وسائل من شأنها أن تحلّ محلّ الله، كالكتاب المنزل، أو نبيّ ما، أو ناموس إلهي، أو ملاك ينزّل الوحي تنزيلاً... وما أشبه. هؤلاء يعوّضون عن الله،

ويتعامل الإنسان معها كمع أطراف تسلّيه عن قلقه الوجودي، ولا تفعل فيه. لا تعطيه نعمة، ولا تزيده قداسة، ولا تؤهّله لسعادة... معها يقيم علاقة ناموسية، سببها الخوف أو البعد أو بعض الأماني، لا علاقة محبّة يدفعها رجاء...

أمام هذه المعاني الكثيرة للمفهوم الديني تدعونها الكنيسة إلى أن نبحث عن الله، لا حيث نريد نحن، بل حيث يريد هو أن يعرّفنا بذاته. وتعلّم أيضاً أنّ كل ما يمكن أن نحصل عليه من وحي وكتب منزلة وأنبياء ومرسلين ومقدّسات ومعجزات وعلوم غيبيّة وأسرار إلهيّة وحلول لجميع مشاكل البشرية... كل هذه لا توازي أهميّة لقائنا الشخصي مع الله بشخص ابنه الوحيد... من هنا كان خوف الكنيسة من أن تقع في مستوى سائر الأديان التي تَعتبر هذه المقدّسات بمستوى المسيح الله المتجسّد.

وما في المسيحية من مقدّسات الأديان ومظاهرها، كالطقوس والأعياد والممارسات والتنظيمات وأنواع العبادة والعقائد اللاهوتيّة... لا يكوّن جوهر المسيحية إطلاقاً. والخطر الكبير على المسيحية يكمن في أن نجعلها في هذا المستوى.

المسيحية إذاً، تتعالى على كل دين. تتجاوز نهائيّاً تاريخ الديانات كلها. بل تصبح هي جامعة لهذه الأديان. أو هي تبتلعها بكل ما فيها، حتى لا يعود لها خارجاً عنها أثر. هي، في النتيجة، ديانة أخروية معاديّة. يعني أنّها مهتمّة كل الاهتمام بخلاص البشرية وسعادتها، وتتعامل مع البشر على هذا الأساس. وكل ما في الأرض من مهامّ تصيّرها المسيحية في سبيل خلاص البشر وسعادتهم.

* * *

هذا المفهوم الحقيقي للدين، في نظر المسيحية، عرفه المسلمون، ومنهم السيّد شريف محمّد هاشم، واعتبروه مأخذاً مهمّاً على المسيحية، فيما هو، في رأي المسيحيين، عين الصواب، وإن اقتضى لذلك بعض التصويب. يقول السيد هاشم مثلاً، في معرض انتقاده : المسيحية هي « الديانة الوحيدة التي وُلدت

بالتقسيط، وعلى مراحل، والديانة الوحيدة التي نشأت وتطوّرت، بغياب صاحبها الذي سُجّلت باسمه، فيما هو، في الحقيقة، لا يعرفها، وأكثر الظنّ أنّه لم يتقصد إيجادها، على الأقل أن تكون كما هي » (ص ١٦٥).

بعض هذا الكلام هو عين الصواب : المسيحية نشأت وتطوّرت ونمت عبر التاريخ وعلى مراحله. هذا صحيح. والمسيح لم يسجّل في دوائر السلطات الرومانية أو اليهودية ديناً أو حزباً سمّاه باسمه، ونظّم أموره وسنّ قوانينه... المسيح هو المقصود في المسيحية. والكنيسة التي أسسها هي « جسده السرّي » ، أي استمراريّة تجسّده في التاريخ... وقد توسّعنا في ذلك.

وعند السيد هاشم أيضاً قوله : إنّ « صورة المسيح بدأت تأخذ شكلاً ما في أذهان الناس، كشخصيّة غير عادية، ليس بسبب ما قدّمه للبشرية من تعاليم وشرائع، وإنما بسبب ما تخيّله هؤلاء، عمّا تحمّله عنهم من آلام الصلب. فلم تخلّد المسيح وصاياه، وإنما آلام صلبه. ولولا الصليب والآلام لما كان المسيح ولا المسيحية » (١٦٩).

كلام السيد هاشم صحيح بمجمله. إنّما يقتضي بعض التصويب، أو زيادة كلمة. وكان عليه أن يقول « ... ولولا الصليب والآلام (والقيامة)... الخ » . والمأخذ الإسلامي على هذه الحقيقة هو أنّ المسلمين، كاليهود، يفهمون العلاقة بالله علاقة شرائع وتعاليم ووصايا وعقائد نزلت من السماء في كتاب منزل بواسطة ملاك الوحي... وهذا ما لا تقوم عليه المسيحية مطلقاً.

ويأخذ السيد هاشم أيضاً على المسيحية بأنّ ما فيها من تعاليم ووصايا نطق بها المسيح قبل صلبه و « لا يمكن اعتبارها شرائع وقوانين وأحكاماً محدّدة واضحة، يمكن أن تكون حلاًّ لمشاكل المجتمعات والإنسانيّة. بل كانت عبارة عن وصايا لها طابع خلقي، مسلكي طوباوي، نقلها عنه بعض تلامذته، أو في الحقيقة نسبت إليه، أو إليهم » (ص ١٦٧).

هذا هو الصواب : المسيح لم يسنّ شرائع ولا قوانين، ولم يقدّم للبشرية حلولاً

هذا يعني أنّ حريّة الإنسان بإزاء الله يحدّدها موقفان : موقف بإزاء القوانين الطبيعية التي يخضع لها الإنسان من ذات طبعه، وموقف بإزاء الشريعة الإلهيّة الموحاة أي النـــاموس المنزل في كتاب. هذا يأخذ به اليهود والمسلمون ويقدّسونه. أمّا المسيحيون فلا ناموس عليهم؛ فهم محرّرون.

هذا يعني أيضاً أنّ الإنسان الذي يخضع لشريعة بشريّة وضعية يســهل عليــه هــذا الخضوع أكثر من الخضوع لشريعة فوقانيّة لا تعيرُ لمتغيّرات الكون بالاً. قد يأتي يوم يتحرّر فيه الإنسانُ من كل شريعة بشرية وضعيّة؛ ولكن لن يأتي ذلك اليوم إطلاقاً لأن يتحرّر فيه من شريعة سماوية منزلة من فوق. فأوّل طعنة في حريّة الإنسان إذاً تأتي من تصوّرِ الإنسانِ لله مشترِعاً وواضِعَ قوانين أزلية ثابتة، منزلة على الإنسان تنزيلاً.

في الإسلام هــذا التصوّر : لقد أنزل الله على الإنسان شريعةً من فــوق، صيّرها في « كتابٍ منزل » ، لا يخضع لمتغيّراتِ الكون؛ وجمّدها في « حرفٍ » ، لا يَرحم. وبســبب هذا « الإنزال » العجيب تبدو الحريّةُ الإنسانيّةُ، بنظر الإسلام، مقيّدةً بأحكامِ شريعةٍ، سماويةٍ، منزلةٍ، جامدةٍ، صــامدةٍ بصمدانية اللهِ « الصمد »... وشعور المسلم بأنّ الله يقيّده بأحكامــــه « المنزلة » هو شعور يلفّه الكثير من اليأس الكياني، كانت إحدى نتائجه العملية الاستســلام للقضاء والقدر. وهي مسألة إيمانيّة مفروضة على المسلم كركن من أركان دينه.

ومن نتائج ذلك أيضاً أنّ المسلم، بسبب الشريعة « المنزلة » ، لا يرى محيداً عن قتالِ أيّ إنسان غير مسلم لا يسير بموجَب هذه الشريعة. أيّ أنّ كرامة الإنسان وحريته، بإزاء هذه الشريعة الإسلامية المنزلة، ليستا هما شيئاً يُذكر. قد يُقتَل غيرُ المسلم في سبيل الله، وقد يُسبى ويُقهر، وتُؤسر حريّته، أو يَدفع الجزيةَ صاغراً، أو يَخضع لقضايا كثيرة حُرّمت عليه باســم الله... هذه الأحكام الإلهيّة المنزلة، يذهبُ الإنسانُ بسببها ضحيّةَ الله، لأنّ المطلق، في المفهوم الإسلامي لله أولى من النسبي، أي أنّ محبّة الله أولى من محبّــة الإنســان. والعكــس، فــي المسيحيّة، هو

الصحيح؛ أي أنّ محبة الإنسان، والإنسان المعدم، هي الإشارة لمحبة الله، أو هي قَبْل محبة الله: « اترك قربانك واذهب وصالح أخاك » .

* * *

هذه الحريّة، بهذا المستوى اللاهوتي، الذي هو مستوى وضع الإنسان بإزاء الله، هي التي تميّز المسلم عن المسيحي في الصميم. وقد لا يهمّنا البحث فيها في غير هذا المستوى؛ لأننا، في غير هذا المستوى، نرانا نعالج النتائج، ونحن نريد النظر في المبدأ وفي المنطلقات الأساسية.

وفي هذا المستوى عينه نتوجّه بنصّ مجمعي غني يقول : « إنّ الحريّة الحقيقيّة هي في الإنسان **علامة مميّزة** عن صورة الله فيه؛ لأنّ الله أراد أن « يتركه لمشورته الخاصّة » (سيراخ ١٥ / ١٤) حتى يتمكّن **بذاته** من أن **يبحث** عن خالقه، ويلتحق به بحريّة، **ويبلغ** هكذا إلى تمام **سعادته** الكاملة[١] .

الإنسان إذاً، بنظر المسيحية، كائن حرّ. خلقه الله كذلك. حرّيته من الله. وبقدر ما يحقّق حريّته بقدر ذلك « يحقّق صورة الله فيه » ، ويحقّق بالتالي شخصيته وكرامته؛ ويكون، بهذه « العلامة المميزة » ، إنساناً تتحقّق فيه إنسانيّتُه كاملةً، ويسعى بحريّته هذه « إلى تمام سعادته » .

وقد تكمن العلامة الكبرى لحريّة الإنسان بإزاء الله في أنّ الله أراد أن يترك الإنسان لذاته، حتى يتمكّن بذاته، من البحث عن الله ذاته. نفهم من هذا الكلام : إنّ الله لم يفرض على الإنسان شيئاً، حِفظاً منه على الحريّة الإنسانيّة المطلقة. بل إنّ الله لم يقدّم للإنسان دليلاً واحداً على وجوده، وذلك أيضاً حتى لا يكون الإنسانُ أسيرَ هذا الدليل. فـ« البحث عن الله » ، كما يعلّم المجمع، هو رائد الحريّة المسيحية الحقّة. وعلى هذا المستوى اللاهوتي الواسع والغني تعالَج مسألة الحريّة المسيحية[٢].

---

(١) دستور راعوي حول الكنيسة في عالم اليوم، عدد ١٧.

(٢) المعجزة هي آية يصنعها الله على يد قدّيس لغاية ما. وهي تساند الإيمان وتقوّيه.. وليست سبباً له. أي هي لا تعطي الذين لا يؤمنون إيماناً. مع المعجزة يبقى الإنسان حُراً... والكنيسة لا تفرض على أحد بأن يصدّق المعجزة... تبقى حريّة الإنسان بإزائها مطلقة.

وبهذا المستوى أيضاً تكاد الحريّة، بمفهومها المسيحي، تلامس « المطلق » ، بخلاف ما هي عليه سائر الصفات والمميزات في الإنسان من محدودية. وتبدو « مطلقيتها » أيضـــاً بكونها تضع الإنسان بإزاء الله نفسه، وجهاً لوجه : بها يستطيع أن يقول لله نعم أو لا. وبهـــا يكون مع الله أو ضدّه. وبها هو « يبحث عن خالقه » ، وكم من البحث، كما نعلم، من شـــكّ وقَلَق واضطراب! وبها يقرّ بوجود الله أو بعدم وجوده. وبها يقرّر مصيره بيده، نحو السعادة أم نحو الهلاك...

وفي مفهوم المسيحيين أيضاً أنّ الله نفسه يسعى، شأنه شأن المربّي الحكيم مع ربيبه، إلى رفع القيود عن الإنسان، وذلك بقدر ما يرى في الإنسان الذي يتولّى تربيته نموّاً ورقيّـــاً. وقد لا يسعى الإنسان، إذا ما تُرك إلى ذاته، نظراً لمحدوديته، إلى مثل تلك الحريّة التي يوليها له الله. ففي مجال اكتساب الحريّة، يبدو الله أكثرَ سخاءً من الإنسان نفسه؛ إذ قد يسيء الإنسانُ المحدودُ الطبعِ والرؤيةِ إلى حريّته، فيبحثُ عنها بين الأمور النسبية العابرة، بينما هي تكـــوّن كرامة الإنسان بكل كيانه البشري العظيم بتعامله مع « المطلق » .

هذا الترابط بين حريّة الإنسان ومشيئة الله، نراه في مذكّرة مجمع العقيدة والإيمـــان. جاء فيها : « ولا تُلغى أبداً مقدرةُ الإنسان على تحقيق ذاته من خلال تبعيّته لله. الإلحاد وحدَه يعتقد بقيام تعارضٍ حتميّ بين سببيّة الحرية الإلهيّة وسببيّة الحريّة الإنسانيّة. كما لو كان إثبات الله يعني نفيَ الإنسان، أو كما لو كانت مداخلتُه تعالى في التاريخ تُعطِّل مساعي الإنسان. في الحقيقة، لا تَستمِدُّ الحريّةُ البشرية معناها وقوامَها إلاّ من الله وبالنسبة إليه » [(٣)] .

وثمّة ميزة أخرى للحريّة المسيحية نراها في دعوة المسيحية إلى التحرّر من الشريعة القديمة التي نسبها الإنسان إلى الله ليستطيع، تبريراً لتفوّقه على غيره، أن يحكمَ ويَقضي. ففي نظامِ العهدِ الجديد، و « بفضل تضحيةِ المسيح، أُبطِلَتْ

---

(٣) مجمع العقيدة والإيمان، الحرية المسيحية والتحرر، عدد ٢٩.

فرائضُ العبادة التي نصّ عليها العهد القديم. ووعتِ الكنيسةُ الرسولية، بصفتها ملكوت الله المفتتح على الأرض، بأنّها لم تَعُدْ مُلزَمَة بالشرائع التي كانت تنظّم الحياة الاجتماعية والسياسية لشعب الله. وفهمتِ الجماعةُ المسيحية أنّ الشرائع وأعمالَ سلطاتِ الشعوب المختلفةِ، حتى إن كانتْ شرعيّةً وجديرةً بالطاعة لها، لم يعد جائزاً لها أبداً، بما أنّها صادرة عن هذه السلطات، أن تدّعي الصفة المقدسة؛ لأنّ العديد من الشرائع والأنظمة يبدو على ضوء الإنجيلِ موسوماً بطابع الخطيئة يواصل تأثيرها التعسّفي داخل المجتمع[٤] .

هذه الميزة للحريّة المسيحية تضعنا، بإزاء الله، أمام أحد أمرين : إما أن يشعر الإنسان بأنّ الله يقيّده بشريعة أزليّة أبديّة، يعيش معها مقيّداً بما نزّل الله عليه من أحكام وشرائع، فيشعر بضغط عليه أزلي أبدي، لا مناص منه ولا مفرّ... وإمّا الموقف الثاني الذي فيه يشعر الإنسان بثقلِ الله عليه فينكر اللهَ وشرائعَه إنكاراً تامّاً، وذلك سعياً وراء تحقيق ذاته من قيود فُرِضَتْ عليه من فوق رأسه، قيودٍ لا تتغيّر ولا تتبدّل مهما طرأ على مسيرة الكون من تغيّرات وتبدّلات.

في هذين الاحتمالين، يتحتّم على الإنسان التنكّر لكل سالب حريّته، حتى ولو كان الله نفسه. وبالأحرى القول : وخاصّة إذا كان الله يتولّى سلبَ الحرية. من هنا كان الإلحاد نتيجة لتصوّر الإنسان لله يسلب له حريّته. فعظمة الإنسان كلّها تكمن في هذه الحريّة. متى فقدها فقدَ إنسانيّته، فلا الله الذي يعبد. ولا كل ما في الدنيا من سعادة، يوازي ما فَقَد. ويوم يتأكّد الإنسان من وجود الله، ويتأكد من سلب الله حريّته، لن يبقى أمامه إلاّ الانتحار. وما الانتحار إلاّ نتيجة تدخّل الله في الإنسان ليقزّمه في حريّته، أي في ما هو في صميم إنسانيته.

ثمةَ ميزة أيضاً وهي، إنّ الإنسانَ الذي يَخشى على حريّته من الله الذي ينزّل عليه الأحكام والشرائع، يَخشى عليها أيضاً من المخلوقات التي يضفي عليها صفات

---

(٤) المرجع نفسه، عدد ٥٤.

الله، ويخشى عليها من نفسه. « في الحقيقة، يقول مجمع الإيمان والعقيدة، عندما ينسبُ الإنسانُ إلى المخلوقات قيمةَ المطلق، يفقدُ معنى كينونته المخلوقة، لزعمه العثورَ على محوره ووَحدتِه في ذاته. إنّ الحبَّ الذاتي غيرَ المنظّم وجهٌ آخر لازدراء الله. لذلك لا يريد الإنسانُ الاعتمادَ إلاّ على ذاته، طامعاً بتحقيق ذاته، ومكتفياً بحلوله الذاتية » [٥] .

وأخيراً تتميّز الحريّة المسيحية بالتزام الإنسان الحياةَ الجماعية، فالله، كما يقول مجمع العقيدة، « لم يخلق الإنسان كائناً متوحّداً، بل شاءه كائناً اجتماعيّاً. لذلك ليستِ الحياة الاجتماعية خارجيّةً عن الإنسان الذي لا يستطيع أن ينمو ويحقّق دعوته إلاّ من خلال العلاقة مع الآخرين... وعليه أن يمارس حريّته المسؤولة داخل هذه الجماعات المتنوّعة، مثل العائلية والمهنيّة والسياسية... ففي الدائرة الاجتماعية تعبّر الحريّة عن ذاتها، وتتحقّق في الأعمال والهيكليات والمؤسسات التي بواسطتها ينظّم الناس حياتهم المشتركة...

والنتيجة « إذا كان تفتّح الشخصية الحرّة واجباً على كل شخص، وحقّاً له، فمن واجب المجتمع أيضاً أن يدعم هذا التفتح لا أن يعيقه » [٦] . يعني أنّ الحريّة المسيحية هي أيضاً لا تكون نامية إلا بميزتها الاجتماعية. وهذا البعد هو لها بعدٌ جوهري بمقابل بعدِها الفردي. فـ« لا حريّة إنسانيّة بدون مشاركة في الحرية » [٧] .

* * *

وفي الختام نريد أن ننبّه إلى هذا الفارق الأساسي في موضوع الحريّة فيما بين المسيحية والإسلام : في ممارسة الحريّة يصطدم المسيحي بحريّاتِ الآخرين، لا بالله. أمّا في الإسلام فيصطدم المسلم بالله. لهذا نقول : في العقيدة المسيحية هي الكنيسة التي تحدّ من إمكانيّة حصول هذا الاصطدام. أمّا في الإسلام فالحَكَم هو « الكتاب المنزل » ، أي الله نفسه.

---

(٥) المرجع نفسه، عدد ٤٠.
(٦) المرجع نفسه، عدد ٣٢.
(٧) المرجع نفسه، عدد ٢٩.

الإنسان الحرّ، في المسيحيّة، حفظاً على حريّته، يترك غيره يمارس حريّتـــه بأوســـع نطاق ممكن. بهذا تنمو الحريّة الإنسانيّة الحقة و « حريّة أبناء الله » (رو ٨ / ١٥)، وذلك، مرّة أخرى، في خلاصهم من الناموس وأحكامه، من الخطيئـــة وتقاطعهـــا لإرادة الله، ومـــن الموت وسلطانه المبيد.

سابعاً ــ الخطيئة

الإنسان يخطأ، وخطيئته تحسب عليه شرّاً لأنّها ضدّ الله مباشرة، لكون الله خيراً مطلقاً. الخطيئة، في المسيحية، عقيدة إيمانيّة أساسية؛ والمسيح ما كان ليجيء لولا هذا الواقع. لقد جاء وخلّص البشر جميعهم لأنّهم خطأة. كلام القديس يوحنا في ذلك واضح : « إذا زعمنا أنّنا بلا خطيئة خدعنا أنفسنا، ولم نكن على الحق... وإذا زعمنا أنّنا لم نخطأ جعلناه كاذباً، ولم يكن كلامه فينا » (١ يو ١ / ٨ و١٠).

لا يستطيع المسيحي أن ينكر واقع الخطيئة. ولا يمكنه أن يحكم على نفسه بأنّه بارّ طالما باستطاعته أن يخطأ كل حين، أي باستطاعته دائماً أن يختار بين الله وبين غير الله، بين الخير والشر، بين الحياة والموت، بين النور والظلمة... حريّة الاختيار هذه تكمن، في جوهرها، في قبول الله كما في رفضه، في طاعته وفي معصيته على السواء، في الاعتراف به كما في التنكر له... لقد خلق اللهُ الإنسانَ بإزائه كائناً حرّاً يستطيع أن يقول له : نعم أو لا... وكثيراً ما استعمل الإنسان حريّته هذه ليتحرّر من الله... وفي الواقع، وقف الإنسان بوجه الله منذ البدء...

* * *

الخطيئة، في المسيحية، هي ضدّ الخلاص، ضد إرادة الله الخلاصية والمُحِبّة. فالنعمة هي نعمة بسبب هذه الإرادة. والخطيئة هي خطيئة بسببها أيضاً. والهلاك، كما السعادة، يكونان كذلك بسبب موقفنا من هذه الإرادة الخلاصية.

لفهمٍ أعمق لسرِّ الخطيئة، نقول : إنّ الخطيئة، في معناها المسيحي، هي ضدّ محبة الله الخلاصية للإنسان، هي رفض للخلاص الذي تحقّق بالمسيح. يعني ذلك أنّ الخطيئة ليست هي ضد ذات الإنسان، ولا ضد الشريعة، وليست هي ضلالاً أو خطأ، أو نقصاً، أو انحرافاً، أو نجاسة... الخطيئة هي حالة الرفض المطلق أو النسبي لعمل الخلاص.

وللتوضيح أيضاً، نقول : الخطيئة في المفاهيم الطبيعية تعني « نجاسة » ، أي معاطاة الإنسان مع أشياء، أو أشخاص، تُعيّن الشريعةُ نجسَها أو دنسَها. والخطيئة في الفلسفة تعني ضلالاً وخطأ؛ إنها نتيجة جهل أو اعوجاج في المنطق. والخطيئة في اليهودية هي عصيان على الناموس الذي وحده يقرّر سعادة الإنسان أو هلاكه...

أمّا في الإسلام فالخطيئة هي نتيجة مخالفة خارجية للتشريع القرآني، تقرّرها محكمةُ شهودٍ خارجيّة أكثر من محكمة ضميرٍ داخلي. والحقّ يقال إنّه لا مفهوم واضح للخطيئة في الإسلام. بل لسنا نعرف ضدّ مَن تكون الخطيئة ؟ أهي ضد ذات الله ؟ ولكنّ الله كائن متعالٍ، بعيد، « صمد » ، لا تمسّه خطيئة، ولا ينال منه شرّ، ولا يهزّ كيانه شكّ أو تعنّت عاصين!... أهي ضدّ وحي الله ؟ ولكنّ المسلم يكفيه من الوحي إيمانه بوحدانيّة الله، والشهادة بـ« أن لا إله إلاّ الله » !... أهي ضد الخلاص ؟ يبدو أنّ هذه المقولة لا وجود لها في الإسلام إطلاقاً!... أهي ضد الإنسان ؟ ولكنّ الشريعة، بحسب منطق القرآن، أولى؛ والسنّ بالسنّ هي الشريعة؛ والجهاد في سبيل الله قتلاً وتدميراً هو الأساس؛ وكرامة الله أبدى من كرامة الإنسان؛ وحريّة الإنسان دون قيود الشريعة؛ وتدبّر القرآن أجدى من تدبّر الإنسان نفسه...

ثمّة غائب أكبر في الإسلام هو « الضمير » . هذه الكلمة لا وجود لها، لا معنىً ولا لفظاً؛ لا تصريحاً ولا تلويحاً. والذي يحكم على أعمال الإنسان، هو الشريعة النابعة من الحدود التي رسمها القرآن؛ وبتعبير آخر هو حَكَمٌ خارجيٌّ، لا

حَكَمٌ داخلي؛ أي هي « عيون الآخرين » التي تربك مسيرة المسلم، لا « عيـون الضـمير » التي تدلّ على براءة الإنسان أو عدم براءته. فالمقولة المسيحية بأن « لا خطيئة إلاّ من قِبَـل الضمير » لا وجود لها في الإسلام. بل « عيون الآخرين » ، أي « الشـهود » هـي التـي تحكم، فتجوّز العقوبة، وتسيّر نحو الهلاك؛ أو تريح النفس، وتسيّر نحو السعادة.

ينتج من ذلك أنّ الفرق بين المسيحية والإسلام، في موضوع الخطيئة، هـو الفـرق الحاصل بين أن يكون الله في الإسلام بعيداً « صمداً » إلى أقصى حدود البعد والصـمدية، أو أن يكون في المسيحية متجسّداً، مخلِّصاً، قد « تخلّى عن ذاته » حبّاً بالإنسان لكي يجلب لـه الخلاص والسعادة.

* * *

الخطيئة في المسيحية إذاً هي نتيجة وعي الإنسان إلى أهميّة الخلاص. الخلاص هـو المرآة الجليّة التي عليها تظهر الخطيئة. ولولا هذا الخلاص لما كـان لنـا أن نعـرفُ سـرّ الخطيئة. وبقدر ما نعي سرّ الخلاص بقدر ذلك نعي أهميّة الخطيئة ونقـدّرها حـقّ قـدرها. فانطلاقاً من هذا المفهوم نقول : نحن نعرف المسيح ونتّبعه لأنّه هو « المخلّـص » . ومـن ينكره فهو ينكره بسبب ذلك فقط. والخطيئة إذاً هي موقف الإنسان الرافض للمسيح المخلّص. وليس من خطيئة خارج ذلك.

هذا يعني أنّ الخطيئة ليست طعنةً بحقّ عظمة الله الأزليّة، ولا هي مخالفة لناموس أو لشريعة، ولا هي نتيجة ضعفٍ بشري، ولا هي حياد عن عادة خيّرة اكتسبناها، ولا هي زلّـة قدم في طريق معرورجة، ولا هي عصيان لإرادة تريد خيرنا، ولا هي ارتباك في الضـمير، ولا هي ضلال في العقل والمنطق، ولا هي انحراف خلقي أو أدبي، ولا هي خطأ علمي، ولا هي نجاسة لأشياء طاهرة، ولا هي شذوذ في المسيرة البشريّة، ولا هـي شـرّ فـي الحيـاة الاجتماعيّة، ولا هي فساد في الكون... الخطيئة هي رفضٍ لمحبّة الله الخلاصـيّة، لرحمتـه، وحنانه. هي رفض للمسيح المخلّص الذي « تجسّد » لكي يكون لنا به الخلاص. لهذا نسـمع الإنجيلي

يعلن على لسان المسيح : « لو لم آت وأكلمهم لما كانت عليهم خطيئة » (يوحنا ١٥ / ٢٢). مجيء المسيح إذاً، أي تجسّده، هو الذي قرّر وجود الخطيئة.

* * *

« إنسانيّة المسيح » هي المعنية مباشرة بالخطيئة. والخطيئة التي هي ضد الإنسان هي الخطيئة ضد المسيح. بل هي الخطيئة. بغض الآخر، تشكيكه، تحييده عن طريق الخلاص، الوقوف بوجه قداسته. منع الروح عنه... هذه هي الخطيئة.

تعاليم المسيح واضحة جدّاً في هذا الشأن، بل جلّ تعاليمه تدور حول هذا الأمر : إن كنتَ تقدّم قربانك وعرفتَ أنّ لأخيك عليك مأخذاً، اترك قربانك. يعني اترك الله واذهب إلى أخيك وصالحه. فإن مصالحة الإنسان ومحبته تتقدّمان على مصالحة الله ومحبته... وكم ساوى المسيح نفسه بالفقراء والتعساء والأطفال والضعفاء! وكم ترك المدعوّين ليهتمّ بالمشرّدين! وكم عادل بين محبة الله ومحبة القريب! وكم وقف بوجه الفرّيسيين الذين كانوا يؤثرون حفظ الشريعة على حفظ الإنسان ومحبته! وكم طعن بقدسية السبت والناموس ليهتمّ بقدسيّة الإنسان وكرامته!... لكأنّ الخطيئة العظمى، إن لم نقل الخطيئة على الإطلاق، هي الخطيئة ضد الإنسان ومحبّته.

* * *

فإذا كانت الخطيئة ضد الخلاص، أي ضد إرادة الله الخلاصية؛ وإذا كان الإنسان هو مقصد خلاص الله؛ فالخطيئة إذاً تكون خطيئة عندما تقف بوجه خلاص الآخرين، أي عندما تكون ضد محبة الآخرين، أي الخطيئة هي عندما نريد أن نخلص بدون الآخرين. هذا يعني أيضاً أن لا خلاص لنا بدون الآخرين، أي بدون « جماعة » ، معها وبها نخلص، أي بدون « كنيسة » حيث نجد الضمانة على أنّنا نسير حقّاً باتّجاه إرادة الله الخلاصيّة.

نقول : إذا كانت الخطيئة تنال من محبة الله، من نعمة الخلاص، فهي أيضاً تنال من الكنيسة حيث وديعة الخلاص. الخطيئة إذاً تطال الجماعة. ومهما كانت

الخطيئة فرديّة أو سريّة، فمفعولها يمتدّ على الجماعة بأسرها. وتوبة إنسان واحد في الجماعة تقوّي توبة كل فرد فيها. وقداسة واحد تفعل في تقديس الجماعة كلّها.

إذا كانت الكنيسة معنية بالخطيئة أكثر من الخاطئ نفسه، فهي تتصـرّف إذاً بكيفيـة القصاص عليها، كما تعيّن كيفية التوبة عليها. وذلك لأنّ الكنيسة، نظراً إلى قداستها، هي التي أصيبت بالخطيئة أكثر من الخاطئ نفسه؛ ثمّ لأنّها تملك وديعةَ الخلاص فتقرّر مسيرة الحصول عليه؛ وأخيراً لأنّها تكمّل عمل المسيح في تقديس الإنسان ومدّه بأنواع الهبات.

لهذا، فالكنيسة هي التي تحكم. وهي التي تحدّد كيفية الحكم. وهي التي تفرض الكفّارة على الخطأة. وهي التي تستطيع أن تعوّض عمّا لا يستطيع أيّ خاطئ تائب أن يعوّضه إن هو تُرِكَ لهمّته الفردية.

خاتمة الكتاب

١ً ــ لم يخطر بالبال قطّ أنّنا سنقوم يوماً بتدبيرِ كتابِ رَدٍّ على الردّ، لِما في مثل هذا العمل من مهاترة واتّخاذ مواقف ومحاولة في إقناع الآخرين بوجهة نظر معيّنة، مع ما يتضمّن ذلك من بعض الادّعاء، وبعض الغرور، واللعب في مبادئ المنطق وقواعد السلوك بين البشر...

٢ً ــ عملٌ كهذا يجعل القارئ يتساءل عن مدى احترام « المتصارعين » للإنسان! وللحقيقة! وللعقيدة التي فيها يكتبون! وعنها يدافعون! فكم في الردّ، والردّ على الردّ، من جدل، وحجج متضاربة، وأسلوب غير رصين! وشَدٍّ وأخذ وردّ!... حتى يضيع القارئ بين الآراء وتضارب المواقف...

٣ً ــ في الحقيقة، إنّه « صراع » عقيم، ذلك الصراع القائم على الجدل في الأمور الروحيّة والإيمانيّة. مثل هذه الأمور تعني عمقَ الشخصية الإنسانية الحميمة الخاصّة بكل إنسان لوحده. ويجب أن يتجنّب التدخّلَ فيها أيُّ إنسان آخر، مهما كانت علاقته بالآخرين قريبة وحميمة.

٤ً ــ وبسبب أنّ الأمور الإيمانيّة هي شخصيّة وخاصّة، نقول ونعتقد بأنّ الإيمان، في تحديده اللاهوتي، هو هبة إلهيّة مجّانيّة، تعمل في الإنسان، بين نفسه ونفسه، بطريقة روحيّة، باطنيّة، سرّيّة، عميقة، فعّالة، ذاتِ علاقة مباشرة بين الله والإنسان؛ وليس من ثالث بينهما سوى مَن شاءه الله أن يكون وسيطاً لهذه النعمة.

٥ً ــ ينتج من ذلك اعتقادُنا بأنّ كلّ « حوار » أو « لقاء » في ندواتٍ أو

حلقات، انعقدتْ تحت راية « الحوار المسيحي ــ الإسلاميّ » ، هو، في الواقع، « حوار طرشان » ، ولقاءٌ فيه الكثير الكثير من « التنازلات » ، و « المهاترات » ، والمواقف الدفاعيّة العنيدة، والغمز على مسلّمات الآخرين... وكم حضرنا منها، ورجعنا خاسئين!

٦ً ــ وقد توجّهنا، حَذَراً من هذه الحوارات العقيمة، وفي كل ما كتبنا، بقاعدةٍ ذهبيّة، وضعناها، منذ البدء، وفي كل قضية ومسألة، أمام أعيننا، ألا وهي تجنّبنا إصدار الأحكام المطلقة، وتقويم مسلّمات الغير، والطعن في المبادئ، واتّخاذ المواقف... لقد كان همّنا الدائم البحث عن الحقيقة الضائعة في عالَمٍ مؤمن بحماس، ومدافعٍ عمّا يؤمن به بتعصّب، عالَمٍ « مطمئنٍّ » ، يصعب عليه جدّاً قبول نتائج ما تتوصّل إليه الأبحاث...

٧ً ــ غير أنّ قصّتنا مع السيد شريف محمّد هاشم تختلف عمّا رسمنا من خطة للحوار. وما كنّا نردّ عليه، ونقيم معه حواراً، لو لم نجد عنده « معاناة » في ما كتب، وفي ما يعتقد؛ وما كنّا نفتح معه حواراً، لو لم نرَ أنّه يمثّل جيلاً معاصراً من المفكّرين المسلمين الذين عندهم قلق ومعاناة. ورأينا واجباً علينا الاستفادة من هذه المعاناة.

٨ً ــ هؤلاء « المعانون » ، الذين وقفوا من القضايا المسيحية موقفَ الرفض والسباب، هم، في رفضهم وسبابهم، يستحقّون، لصدقهم، أن نقف على تفكيرهم، ونوليهم انتباهاً؛ ولئن انحرفوا بعض الشيء في أسلوبهم، فما ذلك إلاّ دليل واضح على قلقهم الديني. هذا القلق، وحده، كان لنا حافزاً للقيام بمهمّة الردِّ على الردّ. وليس سواه.

٩ً ــ نعني بذلك : إنّ كلّ محاولة وفاقٍ بين المسيحية والإسلام هي عمليّة غير مجدية، وغير مجرّدة. فكم فيها من المراعاة، والتنازلات، والتسليات... خاصّة إذا اقتضى ذلك احترام حريّات الآخرين في معتقدهم الموروث الذي لا يَخضع، بحال من الأحوال، للأبحاث العلمية الرصينة. فبعض النفاق إذاً بادٍ في حماس الوفاق.

١٠ً ــ يؤكّد ذلك أنّ المبادئ الجوهريّة، والمنطلقات الأساسيّة، والقضايا اللاهوتيّة كلّها، وحتى الممارسات التقويّة، وأعمال العبادة، وأُسس الأخلاق... مختلَف فيها فيما بين المسيحية والإسلام. فكيف يكون الوفاق وفاقاً! وقد ركّزنا، على سبيل المثال، على سبعة منطلقاتٍ فقط، فرأينا ما رأينا من اختلاف جوهريٍّ وأساسي.

١١ً ــ ولئلا يأخذ علينا السيّد هاشم مأخذَه، فيكتب كتاباً جديداً، بسبب ما نقول من صعوبة الوفاق بين المسيحية والإسلام واستحالتِه، نبادر حالاً إلى القول : لئن اختلف الإسلام والمسيحية في كل شيء، فليس على المسيحيين والمسلمين أن يختلفوا فيما بينهم على شيء. أعني بذلك : على الداعين إلى السلام بين الشعوب أن يبنوا سلامهم على غير عمليّةِ الوفاق بين الأديان. فالدين، عند الله، وبشهادة القرآن، واحد. فليكفّ « التوفيقيّون » عن تضليل البشر؛ لأنّ عمليّة الوفاق هي، في الحقيقة، حافز جديد للصراع والصدام أكثر منه عاملاً للإلفة والوئام.

١٢ً ــ قد نجدُ، في المجتمعات الحرّة والمتحضّرة، حياةَ سلام ووئام بين المسلمين والمسيحيين، فمردّ ذلك، ليس إلى تقاربٍ بين المعتقدات المسيحية والمعتقدات الإسلامية، بل إلى قبولٍ متبادَلٍ لبعض المبادئ الاجتماعيّة، وتقاربٍ في المفاهيم الإنسانيّة، ورضى بنُظم سياسيّة معيّنة... وهذه أمور لا شأن فيها للمسيحية أو للإسلام.

١٣ً ــ نقول أخيراً : يوم يتنادى المفكّرون المسيحيّون والمسلمون ليقيموا حواراً وندوات في بناء الأوطان والمجتمعات الصالحة، يومها يسعد الإنسان ويرقى. ويوم تُنشر الكتب العلميّة التي لا تخطّها أقلامُ المتديّنين المتحمّسين، يومها نقول للسيد هاشم : غيّر « الميزان » الذي اعتمدتَه في معالجة أمور « المسيحية والإسلام » .

الفهرس

صفحة